آيات عتاب المصطفى صلى الله عليه وسلم

في

ضوء العصمة والاجتهاد

الدكتور عويد بن عياد بن عايد المطرفي
أستاذ مشارك علوم الكتاب والسنة
بكلية الدعوة وأصول الدين بجامعة أم القرى سابقاً
جامعة أم القرى - مكة المكرمة

١٤٢٦ - ٢٠٠٥

ⓒعويد بن عياد بن عايد المطرفي ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

المطرفي ، عويد بن عياد بن عايد
آيات عتاب المصطفى صلى الله عليه و سلم في ضوء العصمة و الاجتهاد. / عويد بن عياد بن عايد المطرفي - ط٣. .- مكة المكرمة ، ١٤٢٦هـ

..ص ؛ ..سم

ردمك: ٤-٦٣٢-٤٧-٩٩٦٠

١- نبوة محمد صلى الله عليه و سلم ٢- القرآن - مباحث عامة
٣- الاجتهاد (اصول فقه) أ.العنوان

ديوي ٢٤٢ ١٤٢٦/١٥٩٢

رقم الإيداع: ١٤٢٦/١٥٩٢
ردمك: ٤-٦٣٢-٤٧-٩٩٦٠

الطبعة الأولى عام ١٤٠٢ هـ
الطبعة الثالثة عام ١٤٢٦ هـ

نال المؤلف بهذا البحث درجة " الماجستير " في الكتاب والسنة من كلية الشـــريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز بمكة المكرمة بتقدير " ممتاز " مع التوصية بطبع الرسالة . مساء يوم الأربعاء الثاني من شهر صفر عام ١٣٩٨هـــ .

وكانت لجنة المناقشة مكونة من:

١ - فضيلة الأستاذ الدكتور / محمد الصادق إبراهيم عرجون " رحمه الله " مشرفاً .

٢ - الأستاذ الدكتور / عبد العظيم أحمد نور الدين الغباشي " رحمه الله " عضواً .

٣ - الشيخ الأستاذ / السيد أحمد صقر " رحمه الله " عضواً .

* بسم الله الرحمن الرحيم *

تصدير

﴿ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَآ إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِنَا ۚ رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِۦ ۖ وَٱعْفُ عَنَّا وَٱغْفِرْ لَنَا وَٱرْحَمْنَآ ۚ أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ البقرة/ ٢٨٦ .

قال الله تعالى في وصف رسوله محمد ﷺ، وتزكيته وبيان ما هو عليه من الأمانة، والصدق، والإخلاص في دعوته لربه: ﴿ وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ﴾ النجم/١- ٣ .

وقال في الثناء على خلقه العظيم: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ ﴾ القلم/ ٤ .

وقال في تأديب المؤمنين لرسوله ﷺ، وإيجاب توقيره عليهم، والثناء على المؤمنين الذين يتأدبون في مخاطبته، وفي التخاطب عنده﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ ۚ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴾ الحجرات/ ٢- ٣ .

أخرج البيهقي في الأسماء والصفات [٢/٢٣]، وابن ماجه في السنن [١/٧]، واللفظ له أن علي بن أبي طالب ﷺ قال:" إذا حدّثتكم عن رسول الله ﷺ بحديث فظنوا به الذي هو أهياه، وأهناه، وأتقاه " .

وقال عبد الله بن مسعود ﷺ:" إذا حدّثتم بالحديث عن رسول الله ﷺ، فظنوا به الذي هو أهيأ، والذي هو أهدى، والذي هو أتقى " .

سنن ابن ماجه [١/٧]، وسنن الترمذي [١/١٤٥]، والأسماء والصفات للبيهقي [٢/٢٣] .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: ترك الاحترام للرسول ﷺ، وسوء الأدب معه مما يخاف معه الكفر المحيط .

الصارم المسلول على شاتم الرسول [٥٧] .

تَوَجُّهٌ ودُعَاءٌ

اللهم إن كثيراً من الناس يتقربون بإهداء جهودهم العلمية، وثمـــراتهم الفكرية إلى ذوي الجاه، والسلطان الدنيوي طلباً لنوالهم، والتماساً لعوائد جاههم، أويهدونها إلى من يرون تكريمه بإهداء عملهم العلمي إليه أداءً لما يرون له عليهم من حق لازم ينبغي أن يُشْكَرَ، وسعي لابد أن يُذْكَرَ .

ألا إني أتوجه إليك يا ربي، وأتقرب منك يا إلهي بكل مـــا أقـــول، أو أعمل، أو أكتب طلباً لنوالك، ورغبة في عطائك، ولجوءاً إلى كنـــف عزك الدائم، والتماساً لهداك المأمول الذي تطمئن به القلوب، وتطيب بـــه الأنفس .

اللهم فاجعل كُلَّ ذلك مني خالصاً لوجهك الكريم، ثم حباً لرسولك العظيم ﷺ وعلى آله وصحبه أجمعين .

اللهم هيء لي من أمري يسراً، ومن همي فرجاً، ومن ضيقي مخرجـــاً ومُتَّسَعَاً، واشرح لي صدري، واجعلني في عبادك الصالحين .

رب أوزعني أن اشكر نعمتك التي أنعمت عليّ وعلـــى والـــديّ وأن أعمل صالحاً ترضاه وأصلح لي في ذريتي إني تبت إليك وإني من المسلمين .

عويد بن عياد بن عايد الحربي الكُحَيْلي المطرفي
مكة المشرفة
ص . ب ٨٥١٥
هاتف المنزل / ٥٦٠٢٠٠٢

مقدمة الطبعة الثالثة

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد عبد الله، ورسوله الأمين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، وزوجاته أمهات المؤمنين، وأصحابه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

وبعد فهذه هي الطبعة الثالثة من كتابي [آيات عتاب المصطفى ﷺ في ضوء العصمة والاجتهاد] الذي كنت قد نلت به درجة الماجستير في تخصص الكتاب والسنة من كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بجامعة الملك عبد العزيز- رحمه الله- شطر مكة المكرمة عام ١٣٩٨هـ، وصدرت طبعته الأولى عام ١٤٠٢هـ حين كنت رئيساً لقسم القضاء في الكلية التي تخرّجت فيها .

وقد تلقاه شيوخنا الأزهريون، وغيرهم من شيوخنا الأفاضل الذين تلقيت العلم على أيديهم جميعاً في مكة المشرفة بجامعتنا الكريمة، وغيرهم ممن سعدت بأخذ العلم عنهم قبل ذلك في بلادنا الطيبة تلقّوه جميعاً بالقبول الجميل والذكر الحسن .

وبمثل ذلك – أيضاً – تلقّاه من سواهم من أهل العلم والفضل، ورجال الفكر، والأدب، وسدنة الكلمة، وأرباب الأقلام السيّالة برحيق الحكمة، وسلسبيل البيان .

وقد عرفني به ذوو علم وفضل لم يكن لي بهم لقاء وقرّبني إلى قوم آخرين ما كان ليتهيأ لي ذلك من أحد منهم لولا ما حمله كتابي هذا إليهم من صِدْقٍ وأدبٍ في بيان المراد بالخطاب لرسول الله ﷺ في القرآن العظيم

نبّأت به عباراته، ونطقت به كلماته إلتزاماً بقول الله تعالى: ﴿ لَّا تَجْعَلُوا دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًا ﴾ (١) .

ولما ورد عن ابن مسعودﷺ أنه قال:"إذا حُدِّثتم بالحديث عن رسول الله ﷺ فظنُّوا به الذي هو أهيأ، والذي هو أهدى، والذي هو أتقى "(٢) فالتقت على حب رسول الله ﷺ قلوبنا، وتآلفت على توقيره قبل أن تتراءى أشخاصنا رجاء أن ننال بحبنا لرسول الله ﷺ واتّباعنا له كمال الإيمان الذي أخبرنا ﷺ بأن أحداً لا يتحقق له الإيمان حتى يتحقق منه الحب الصادق لرسول الله ﷺ حين قال: « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده، ووالده، والناس أجمعين »(٣) .

وقد تلقيت من كثير ممن قرأ كتابي هذا كلمات الودّ، والثناء الجميل، وطلب مواصلة الكتابة عن أحوال رسول الله ﷺ بمثل هذا الأسلوب الذي يعرف لرسول الله ﷺ حقه، وينزله المنزلة السامية التي أنزله الله إياها من بين سائر خلقه .

أسأل الله الكريم أن يجزيهم، وكلّ من دعا لي بظهر الغيب خير ما يجزي به عباده الصالحين .

وحين نفدت طبعته الأولى والثانية توالت عليّ طلبات الرغبة في إعادة طبعه، أو الإسراع بقيامي بذلك .

---

(١) سورة النور: آية ٦٣ .

(٢) سنن ابن ماجه: [١/٧]، سنن الدارمي: [١/١٤٥]، الأسماء والصفات للبيهقي: [٢/٢٣] .

(٣) صحيح مسلم: [١/٦٧] رقم ٧٠ واللفظ له، صحيح البخاري: رقم ١٥ .

وها قد شاء الله اليوم ذلك بعد لأي من الزمن .

وإني أتوجه إلى إخواني القراء الكرام راجياً دعاءهم الصالح في كـــل زمان، ومكان، فإني محتاج إلى دعوات صادقة تقربني إلى ربي، وتحبّبني إليه، وترضيه عني، وإني إلى ما منحني ربي من خير فقير .

سترنا الله وإياكم في الدنيا والآخرة، وآخر دعوانا أن الحمـــد لله رب العالمين .

*****

المؤلف
الدكتور/ عويد بن عياد بن عايد المطرفي
مكة المكرمة
ليلة الخميس ١٤٢٥/٣/١٠هـ
ص . ب / ٨٥١٥
هاتف المنزل/ ٥٦٠٢٠٠٢

شكر ودعاء

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: « من آتى إليكم معروفاً فكافئوه، فإن لم تجدوا، فادعوا له حتى تعلموا أن قد كافأتموه »[١] .

واسترشاداً بهذا التوجيه النبوي الكريم فإني أخص بالشكر الجزيل أستاذي ومعلمي الأول فضيلة الشيخ العلامة الفرضي/ صالح بن أحمد الميرابي إمام وخطيب مسجد حي التيسير بمكة المكرمة الذي أخذت عنه علوم الشريعة الإسلامية واللغة العربية في المسجد المذكور آنفاً في أول عهدي بالطلب، وكان لي أباً ومعلماً ومرشداً، جزاه الله عني وعن العلم وطلابه خير ما يجزي به عباده الصالحين .

رحمه الله وأسكنه الفردوس الأعلى بمنه وفضله .

وأرفع أكف الضراعة إلى الله تعالى مستمطراً شآبيب رحمته وبرد مغفرته على شيخنا الأستاذ المذكور/ محمد الصادق إبراهيم عرجون طيب الله ثراه وأسكنه فسيح جناته فهو الذي أشرف على كتابتي لهذه الرسالة المباركة في كلية الشريعة والدراسات الإسلامية بمكة المكرمة بجامعة الملك عبد العزيز رحمه الله تعالى .

---

[١] سنن النسائي (٥/ ٨٣) واللفظ له، سنن أبي داود (٤/٣٢٩) بتحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، حديث رقم ٥١٠٩، مسند الإمام أحمد بشرح أحمد شاكر (٨/١١٦) .

خطبة الكتاب

الحمد لله الذي أنزل الكتاب على عبده، ورسوله محمد ﷺ، تبـــصرة وذكرى لأولي الألباب، وهدى به الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه إلى سواء الصراط، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شـــهادة أرجو بها النجاة يوم لا ينفع مال، ولا بنون إلا من أتى الله بقلب ســـليم، وأشهد أن سيدنا محمداً عبده ورسوله، أشرف الأنبياء، وسيد المرســـلين، صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، أرسله الله رحمة للعالمين، بـــشيراً ونذيراً، وهادياً إلى الله بإذنه، وسراجاً منيراً، أدبه ربه فأحـــسن تأديبـــه، وكمله بأفضل الصفات، والخلق العظيم، وشرفه ﷺ بإنزال أفضل الكتب عليه، وعلّمه ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيماً .

*****

المقـدمــة

خطر المناهج الأجنبية على المسلمين

وبعد .. فمن المؤسف حقاً أن المسلمين – اليوم – يقلدون غيرهم من أعداء الإسلام والمسلمين في مناهج التعليم وسبله ويأخذون عنهم أساليبهم التربوية والفكرية مأسورين بوطأة التقدم المادي الذي حققه أولئك الأعداء الذي يعلمون به ظاهراً من الحياة الدنيا، وهم عن الآخرة هـم غـافلون – غافلين عما يدسه أولئك الأعداء الالداء في منـاهجهم المـصدرة إلى المسلمين من سموم ينفثونها في قلوب وعقول الذين يأخذون عنهم – ممن لم يكونوا في درع من الإيمان، أو يتقبلون مناهجهم مغترين بمعسول القـول وبهرج الكلام، الذي يكسون به طرائقهم التعليميـة الدينيـة والتاريخيـة والنفسية والاجتماعية، باسم المنهجية والموضوعية، والبحث العلمي مما هو في الواقع هدم للحقائق العلمية في أكثره، وإبطال للموازين الدينية العادلة وتشكيك للمسلمين في دينهم، لإخراجهم منه، أو صرفهم عنه .

وبهذا التقليد يتأثر شباب الإسلام، فتسري إلى نفوسهم بعض الشبـه التي لا تمكنهم دراستهم الإسلامية من دفعها، وإبطالها، ومن ثَمَّ ترسـخ تلك الشبه في نفوسهم فيخشى عليهم منها في عقائدهم وسلوكهم ويخشى منها على من تنتقل إليه من عامة المسلمين .

من مفتريات أعداء الله ورسوله

ومن هذه الشبه شبه يقيمونها على ما يتعلق بالقرآن الكريم، ومنـها شبه يثيرونها حول الرسول ﷺ لخطابه عليه الصلاة والسلام ببعض الآيات القرآنية الكريمة التي جاءت لتعليمه، وتوجيهه، وتربيته، أو جاءت لإبطال عادة جاهلية بشرع حُكمٍ لها، وأجراه الله على يديه الشريفة ليكون ذلك أوقع في نفوس المؤمنين وأثبت لقلوبهم في اجتثاث العادة الجاهليـة مـن أفئدتهم بوصفه ﷺ قدوة الأمة الإسلامية في جميع أحوالها وأمورها الدينية

والدنيوية كإبطال الله تعالى عادة التبني الجاهلية بتزويجه ﷺ زينب بنت جحش التي كانت زوجة لمولاه زيد بن حارثة رضي الله عنه، الذي كان قد تبناه قبل إكرام الله له بالنبوة .

وقد بنى أولئك الأعداء الحاقدون على هذه الشبه التي افتروها وغيرها طعونهم الظالمة وباطلهم المظلم، واستعانوا على غوايتهم وإغوائهم بما يوجد في بعض كتب التفسير من إسرائيليات، وقصص وروايات باطلة سنداً ومعنى، أو بنوها على فهوم لبعض من علماء المسلمين لم توافق الصواب لبعض مما خوطب به رسول الله ﷺ من آيات كريمة بنوا عليها ترهاتهم، وأكاذيبهم، وعززوا بها تشكيكهم في قلوب الذين يقعون تحت تأثيرهم، وجعلوها متكأ لما يزعمونه من طعون ظالمة على النبي ﷺ وعلى بعض من إخوانه الأنبياء والمرسلين عليهم الصلاة والسلام ممن وردت آيات كريمة في خطابهم تشير إلى لون من التربية الإلهية لأولئك المصطفين الأخيار – مع ما هم عليه من كمال في الخلق وإخلاص في العمل – لرفعة شأنهم وعظيم مترلتهم عند الله تعالى لكونهم قدوة البشر فيما يراد لهم من أمور يحسنون السمت فيها لنيل عظيم الدرجات عند الله تعالى .

انسياق وغفلة

وسار في هذا الطريق قوم من المسلمين اعتماداً على تلك الروايات الباطلة التي يتوسع فيها رواتها بذكر قصص لا تصح أسانيدها، ولا تقبل متونها لما فيها من مساس بعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، ولما فيها من سوء أدب في التعبير ناشئ عن تهاون وغفلة، أو عن قصور في التفكير، وعدم تنبه لما تحمله تلك الروايات من إساءات إلى مقام أولئك الأنبياء الأطهار عليهم الصلاة والسلام .

أسباب كتابة هذا البحث

وقد أفزعني تهاون هؤلاء، وتقحم وتجرؤ أولئك على القول في الأنبياء عليهم الصلاة والسلام بما ذكروا في تلك الروايات الباطلة، واعتبارهم ما جاء فيها من سيئ القول أمراً مقبولاً عندهم فحزمت أمري ونهضت للرد عليها وخصصت هذه الرسالة بالرد على ما قيل في آيات عتاب المصطفى ﷺ وأخذت أجيل النظر والفكر قارئاً وباحثاً فيما كتب عنه ﷺ من كتابات ودراسات وبحوث تفوق العد علّني أجد من تناول ما قيل في هذه الآيات الكريمة بالبحث والتحقيق مستضيئاً بما فيها من نور الحق لرد ما نسج حولها من روايات وقصص باطلة فلم أر بحثاً مستوعباً لمسائل هذا الموضوع لأحد من العلماء المتقدمين، أو المتأخرين في رسالة، أو كتاب مخصوص به، وإنما الذي ذكره العلماء – رحمهم الله تعالى – مسائل حول بعض هذه الآيات الكريمة والرد على ما قيل فيها من سقيم القول، هذه الردود منثورة في ثنايا الحديث عن سيدنا رسول الله ﷺ فيما كتبوا عن حياته المباركة الشريفة ﷺ وأشهر من كتب في هذا القاضي عياض[٤] في الشفاء، والقسطلاني[٥] في المواهب .

منهجية البحث والتناول

وقد تناولت هذه الآيات الكريمة بالبحث والتحقيق، لبيان المراد بها – في سياقاتها من السور التي هي فيها – خطاباً لسيدنا رسول الله ﷺ، رفعاً لما تجده الكثرة الغالبة من الناس من توقف في فهمها، ودفعاً لكيد

---

[٤] هو عياض بن موسى [٤٧٦هـ - ٥٤٤هـ] بن عياض اليحصبي عالم المغرب وإمام أهل الحديث في وقته .

[٥] هو أحمد بن محمد [٨٥١هـ- ٩٢٣هـ] بن أبي بكر من علماء الحديث .

وحقد أعداء الله تعالى وأعداء رسوله ﷺ، من المستشرقين والمنصرين - المبشرين بزعمهم- الذين يقلدهم كثير من المسلمين اليوم، ويعجبون بكتاباتهم دون وعي لما تحمله من سموم .

وأرجو أن أكون قد وفقني الله تعالى لما قصدته من وضع الأمور في هذه الآيات الكريمة موضعها على ميزان الحق حباً في الله تعالى وفي رسوله ﷺ، وحباً للحق، وتثبيتاً للمؤمنين الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

وقد سميت رسالتي هذه [**آيات عتاب المصطفى ﷺ في ضوء العصمة والاجتهاد**] .

وإنما سميتها بهذا لقيام العصمة في حق النبي ﷺ وثبوت الإذن له بالاجتهاد، فيما لم ينزل عليه فيه وحي من الله تعالى، وهما يرفعان الحرج عن رسول الله ﷺ فكيف جاء العتاب، وهو ﷺ معصوم مأذون له في الاجتهاد ؟

هذا ما ستوضحه أبواب هذه الرسالة، وبحوثها إن شاء الله تعالى .

وهي تتكون من خطبة، ومقدمة، وثلاثة أبواب، وخاتمة.

أما الخطبة ففيها الثناء على الله بما ألهمني مما هو أهله من الحمد والثناء، والصلاة على النبي صلى الله عليه وآله وسلم .

وأما المقدمة فقد ذكرت فيها سبب اختياري لهذا الموضوع كما ذكرت آنفاً .

وأما الباب الأول ففي عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ويشمل:

١- تعريف العصمة لغة واصطلاحاً .

٢- مواقع العصمة من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:-

(أ) عصمتهم في فترة ما قبل النبوة .

(ب) عصمتهم بعد النبوة:

١- عصمتهم من الكفر .

٢- عصمتهم في التبليغ .

(ج) تنوع الذنوب إلى صغائر وكبائر .

(د) عصمتهم عليهم الصلاة والسلام من صغائر الذنوب وكبائرها في هذه الفترة .

وأما الباب الثاني ففيه بحث الاجتهاد ويشمل:

١- تعريف الاجتهاد لغة واصطلاحاً .

٢- عرض آراء العلماء في: هل كان للرسول ﷺ حق الاجتهاد فيما لم يترل عليه فيه وحي أو ليس له ذلك ؟ وترجيح ما يؤيده الدليل، وتعضده الوقائع .

أما الباب الثالث ففيه:

١- بيان معنى العتاب وحقيقته .

٢- بيان معنى الذنب، وتحليل الآيات القرآنية الكريمة التي ورد فيها ذكر الذنب مضافاً إلى ضمير خطاب رسول الله ﷺ في سياقها توصلاً لمعرفة المراد به فيها.

٣- بيان معنى التوبة واختلافها باختلاف التائبين .

٤- ويشمل بيان معنى العتاب بيان أنواعه في الآيات التي وقع فيها البحث، وهو- فيما تبين لنا من البحث- يتنوع إلى ثلاثة أنواع:-

النوع الأول: وسميناه عتاب التوجيه وهو ينقسم إلى فرعين:

الفرع الأول : عتاب الدفع وتقوية العزيمة للنهوض بأعباء الدعوة إلى الله وتبليغ الرسالة .

الفرع الثاني: عتاب الإقصار .

النوع الثاني: وسميناه عتاب التنبيه .

النوع الثالث: وسميناه عتاب التحذير .

ثم أجرينا البحث في الآيات التي قيل إن فيها عتاباً لسيدنا رسول الله ﷺ على أساس هذا التنويع فكان في النوع الأول بفرعيه: خمس آيات .

وفي النوع الثاني: ست آيات في خمسة مواضع .

وفي النوع الثالث: عشرون آية في ثمانية مواضع .

وأما الخاتمة: فهي إجمال موجز لموضوع هذه الرسالة وبيان لفائدة هذا البحث .

عويد بن عياد بن عايد المطرفي
مكة المكرمة
ص . ب ٨٥١٥



الباب الأول

عصمة الأنبياء

عليهم الصلاة والسلام

١- تعريف العصمة لغة وشرعاً .

٢- مواقع العصمة من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام:

(أ) عصمتهم في فترة ما قبل النبوة .

(ب) عصمتهم بعد النبوة:-

١- عصمتهم من الكفر ٢- عصمتهم في التبليغ

(ج) تنوع الذنوب إلى صغائر وكبائر .

(د) عصمتهم عليهم الصلاة والسلام من صغائر الذنوب وكبائرها في هذه الفترة





العصمة في اللغة

يحسن بنا قبل الخوض في معنى العصمة في اصطلاح أهل الاختصاص من العلماء أن نحدد معناها في اللغة، إذ الاصطلاح مرتبط بالوضع اللغوي وناشئ منه .

وهأنذا أعرض تعريفات أئمة اللغة ليتضح الغرض ويستبين الأمر .

١- قال الخليل بن أحمد[١] – في كتاب العين-: " العصمة أن يعصمك الله من الشر، أي: يدفع عنك، واعتصمت بالله أي: امتنعت به من الشر واستعصمت أي: أبيت " .[٢]

٢- وقال ابن السكيت[٣]:" عصمه يعصمه عصماً وعِصْمةً إذا منعه، وقد عصمه الطعام أي: منعه من الجوع " .[٤]

٣- وقال ابن الأنباري[٥] في شرحه لقول زهير بن أبي سلمى:[٦]

---

[١] هو الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠- ١٧٥هـ) صاحب كتاب العين أصل المعاجم العربية .

[٢] كتاب العين: للخليل بن أحمد [١: ٣٦٩]، تحقيق د/ عبد الله درويش، مطبعة العاني بغداد عام ١٣٨٦هـ .

[٣] هو أبو يوسف يعقوب بن إسحاق (١٨٦- ٢٤٤هـ) .

[٤] إصلاح المنطق: لابن السكيت [ص٢٤٨]، شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، ط/دار المعارف بمصر عام ١٩٧٠م .

[٥] هو أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري (٢٧١- ٣٢٨هـ) .

[٦] هو زهير بن أبي سلمى المزني شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات مات سنة ١٤ قبل الهجرة .

لحي حلال يعصم الناس أمرهم

إذا نزلت احدى الليالي بمعظم[٧]

قال: " ... ومعنى يعصم: يمنع، كما قال الله ﷻ: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾[٨] أي: لا مانع "[٩] .

وقال في شرحه لقول عمرو بن كلثوم[١٠]:

بأنا العاصمون بكل كحل[١١]

وأنا الباذلون لمجتدينا

" العاصمون: المانعون، يقال: عصم الله سبحانه وتعـالى فلانـاً أي: منعه من التعرض لما لا يحل له، وقال جل ذكـره: ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ فمعناه: لا مانع .

---

(٧) الحلال: الكثير . الحلة: مائتا بيت تكون في موضع واحد .
ومعنى البيت: أن هذه الإبل التي في الدية لحي كثير إذا ائتمروا أمراً كان عصمة للناس لما لهم من عزة ومنعة يمنعون بها من تنزل به عظائم الأمور . شـرح القصائد السبع الطوال الجاهليات (ص٢٧٢) بتصرف .

(٨) سورة هود: الآية ٤٣ .

(٩) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات: لابن الأنباري (ص٢٧٢)، تحقيـق وتعليق عبد السلام هارون، ط/دار المعارف بمصر عام ١٩٦٩م . الطبعـة الثانية .

(١٠) هو عمرو بن كلثوم بن مالك شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات، مات سنة ٥٢ قبل الهجرة .

(١١) كحل: سنة شديدة .

قال الشاعر:

وقلت عليكم مالكاً إن مالكاً

سيعصمكم إن كان في الناس عاصم[١٢]

معناه: سيمنعكم[١٣] .

٤- قال الأزهري[١٤]- في تهذيب اللغة-: " العصمة في كلام العرب: المنع، وعصمة الله عبده: أن يعصمه مما يوبقه، واعتصم فلان بالله إذا امتنع به، واستعصم إذا امتنع وتأبّى . قال الله تعالى حكاية عن امرأة العزيز في أمر يوسف عليه السلام حين راودته عن نفسه: ﴿ فَٱسْتَعْصَمَ ﴾[١٥] أي: تأبّى عليها، ولم يجبها إلى طلبها "[١٦] .

إن تفسير الأزهري (استعصم) بـ(تأبّى) يشعر بمقاومة النفس ومنعها مما هي متمكنة منه إذ التأبّي هو أشد الامتناع .

---

[١٢] لم أهتد لقائل هذا البيت، ولم ينسبه ابن الأنباري، وقد استشهد به الطبري في تفسيره (٦: ٣٠٩) وقال مصححه مصطفى السقا رحمه الله: لم نقف على قائله

[١٣] شرح القصائد السبع الطوال: لابن الأنباري (ص٤١٨) .

[١٤] هو محمد بن أحمد الأزهري الهروي (٢٨٢- ٣٧٠هـ) صاحب كتاب تهذيب اللغة .

[١٥] سورة يوسف: الآية ٣٢ .

[١٦] تهذيب اللغة: للأزهري، مادة عصم [٢: ٥٧] .

ثم قال الأزهري: " قال الزجاج في قوله تعالى ﴿ سَآوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ ﴾[(١٧)] أي: يمنعني من الماء، قال: " والحذاق من النحويين اتفقوا على أن قوله (لا عاصم) بمعنى: لا مانع[(١٨)] .

٥- قال ابن فارس[(١٩)]- في معجم مقاييس اللغة -: " عصم: العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة والمعنى في ذلك كله معنى واحد، ومن ذلك العصمة: أن يعصم الله تعالى عبده من سوء يقع فيه . واعتصم العبد بالله تعالى إذا امتنع واستعصم: التجأ، تقول العرب: اعصمت فلاناً: أي هيأت له شيئاً يعتصم بما نالته يده أي يلتجئ ويتمسك به .

قال النابغة[(٢٠)]:

يظل من خوفه الملاح معتصماً

بالخيزرانة من خوف ومن رعد[(٢١)]

قال ابن السكيت- في تعليقه على هذا البيت في ديوان النابغة-: " قال

---

(١٧) سورة هود: الآية ٤٣ .

(١٨) تهذيب اللغة: للأزهري [٢: ٥٧] .

(١٩) هو أحمد بن فارس بن زكريا (٣٢٩- ٣٩٥هـ) صاحب كتاب معجم مقاييس اللغة .

(٢٠) هو زياد بن معاوية شاعر جاهلي من أصحاب المعلقات كان يتحاكم إليه الشعراء بسوق عكاظ، مات سنة ١٨ ق.هـ .

(٢١) معجم مقاييس اللغة: لابن فارس[٤: ٣٣١] ورواية البيت في ديوان النابغة (بالخيزرانة بعد الأين والنجد) (ص٢٣)، وكذلك هو في معلقته (المعلقات العشر وأخبار شعرائها) (ص١٦٩)، وله في ديوانه روايات أخرى .

الأصمعي[٢٢]: معنى معتصماً: مستمسكاً[٢٣].

٦- وقال الجوهري[٢٤]- في الصحاح-:" العصمة: المنع. يقال: عصمه الطعام: أي منعه من الجوع. والعصمة: الحفظ يقال: عصمته فانعصم. واعتصمت بالله: أي امتنعت بلطفه من المعصية[٢٥].

٧- وقال ابن منظور[٢٦]- في لسان العرب-:" العصمة في كلام العرب: المنع ".

وقال:" عصمه يعصمه عصماً: منعه ووقاه. وفي التنزيل ﴿قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.. واعتصم فلان بالله إذا امتنع به، والعصمة: الحفظ، يقال: عصمته فانعصم. ثم قال:" والعصمة: المنعة، والعاصم: المانع الحامي، والاعتصام: الامتساك بالشيء افتعال منه. ومنه شعر أبي طالب[٢٧] ثمال اليتامى عصمة للأرامل[٢٨] أي يمنعهم من الضياع والحاجة. وفي

---

[٢٢] هو عبد الملك بن قريب الباهلي (١٢٢- ٢١٦هـ) راوية العرب وأحد أئمة العلم باللغة والشعر.

[٢٣] ديوان النابغة (ص٢٣) ومعناه: مستمسكاً بالمانع من الغرق.

[٢٤] هو إسماعيل بن حماد (٣٣٢- ٣٩٣هـ).

[٢٥] الصحاح: للجوهري [٥: ١٨٩٦] تحقيق عبد الغفور عطار.

[٢٦] هو محمد بن مكرم الأنصاري(٦٣٠- ٧١١هـ) صاحب لسان العرب الذي جمع فيه أمهات كتب اللغة.

[٢٧] هو عم رسول الله ﷺ واسمه عبد مناف، مات على دين قومه في السنة العاشرة من البعثة.

[٢٨] هذا عجز بيت: وصدره (وأبيض يستسقى الغمام بوجهه) كما في =

الحديث[٢٩]: « فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم »[٣٠] .

وذكر الزبيدي[٣١] هذا المعنى في تاج العروس، وقد سبقهما إلى هـذا ابن الأثير[٣٢] في النهاية[٣٣] .

حاصل ما تدل عليه أقوال أهل اللغة

ومن النظر في هذه الأقوال التي سقناها يظهر أن معـنى العـصمة في اللغة- أعني الاستعمال في الوضع عند خُلّص العرب- يدور على معنى المنع والامتناع .

ويدل على ذلك صراحة كلام ابن فارس الذي سبق أن عرضناه في أن حروف (عصم) وهي العين والصاد والميم أصل واحد صحيح يدل على إمساك ومنع وملازمة، وما نص عليه الأزهري في التهذيب وابن منظور في اللسان من أن المنع أصل معنى العصمة في كلام العرب .

= سيرة ابن هشام [١: ٢٩١] بتعليق محمد محيى الدين عبد الحميد، مطبعة حجازي بالقاهرة .

[٢٩] رواه البخاري [١: ١٣] طبع دار مطابع الشعب، ورواه مسلم [١: ٥٢] بتحقيق محمد عبد الباقي .

[٣٠] لسان العرب: لابن منظور، مادة عصم .

[٣١] هو محمد بن محمد الحسيني الزبيدي (١١٤٥- ١٢٠٥هـ) صاحب كتاب تاج العروس في شرح القاموس .

[٣٢] هو مجد الدين المبارك بن محمد الجزري (٥٤٤- ٦٠٦هـ) صاحب كتاب النهاية في غريب الحديث وغيره .

[٣٣] النهاية في غريب الحديث: لابن الأثير [٣: ٢٤٩] تحقيق طاهر الزاوي ومحمود الطناحي، ط/ إحياء الكتب العربية عام ١٣٨٣هـ بالقاهرة .

وعلى هذا المعنى دار كلام حذاق المفسرين، والأثريين .

قال الإمام الطبري[٣٤]- رحمه الله تعالى- في تفسيره لقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يَعْتَصِم بِٱللَّهِ فَقَدْ هُدِىَ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾[٣٥] قال: " وأصل العصم: المنع، فكل مانع شيئاً فهو عاصمه، والممتنع به معتصم به "، ومنه قول الفرزدق[٣٦]:

أنا ابن العاصمين بني تميم

إذا ما أعظم الحدثان نابا[٣٧]

وقال في تفسيره لقول الله تعالى ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾[٣٨]: " أي يمنعك من أن ينالوك بسوء، وأصله من عصام القربة وهو ما توكأ به من سير وخيط، ومنه قول الشاعر:

وقلت عليكم مالكا ان مالكا

سيعصمكم إن كان في الناس عاصم

أي يمنعكم "[٣٩] .

---

[٣٤] هو محمد بن جرير الطبري(٢٢٥- ٣١٠هـ) المفسر والمؤرخ والفقيه المعروف، شيخ المفسرين والمؤرخين رحمه الله .

[٣٥] سورة آل عمران: آية ١٠١ .

[٣٦] هو همام بن غالب التميمي (٠٠- ١٠٠هـ) الشاعر المعروف .

[٣٧] جامع البيان عن تأويل آي القرآن: للطبري [٤: ٢٦] ط/ الحلبي، الطبعة الثانية عام ١٣٧٧هـ .

[٣٨] سورة المائدة: آية ٦٧ .

[٣٩] جامع البيان: للطبري [٦: ٣٠٩] .

وقال تفسيراً لقوله تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٖ يَعۡصِمُنِي مِنَ ٱلۡمَآءِۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾: " يقول سأصير إلى جبل أتحصن به من المـــاء فيمنعني منه أن يغرقني . ويعني بقوله (يَعْصِمُنِي) يمنعني مثل عصام القربة الذي يشد به رأسها فيمنع الماء أن يسيل منها "[٤٠] .

وفي قول الله تعالى: ﴿قُلۡ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعۡصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنۡ أَرَادَ بِكُمۡ سُوٓءًا أَوۡ أَرَادَ بِكُمۡ رَحۡمَةٗۚ﴾[٤١] قال: " من ذا الذي يمنعكم من الله إن هو أراد بكم سوءاً في أنفسكم .. "[٤٢] .

وفسر (العاصم) بالمانع في قوله تعالى: ﴿مَّا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۖ﴾[٤٣] وقوله تعالى ﴿لَا عَاصِمَ ٱلۡيَوۡمَ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَۚ﴾[٤٤] وقوله تعالى ﴿مَا لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِنۡ عَاصِمٖۗ﴾[٤٥] .

فكلام هذا الإمام- رحمه الله تعالى- يدل على أن مادة (عصم) في القرآن الكريم حيثما وردت بشتى تصريفاتها تدور على المنع والامتناع وهو أصلها في الوضع اللغوي .

---

[٤٠] نفس المرجع [١٢: ٤٥] .

[٤١] سورة الأحزاب: آية ١٧ .

[٤٢] جامع البيان: للطبري [٢١: ١٣٨] .

[٤٣] سورة يونس: آية ٢٧، وانظر جامع البيان للطبري [١١: ١٠٩] .

[٤٤] سورة هود: آية ٤٣، وانظر جامع البيان للطبري [١٢: ٤٥] .

[٤٥] سورة غافر: آية ٣٣، وانظر جامع البيان للطبري [٢٤: ٦٢] .

وما قيل في بعض المعاجم- ضمن المعاني اللغوية- من تفسير العصمة بالحفظ والوقاية ليس معنى لغوياً أصيلاً لها، بل سرى إليها لشدة المقاربـــة والتلازم بين معنى الحفظ والوقاية ومعنى المنع والامتناع وكأنهما متلازمان.

وهذا ما يعتذر به عمن ذكر الحفظ على أنه معنى لغوي للعصمة .

*****

العصمة في الاصطلاح

أما العصمة في الاصطلاح، فقد ذكر العلماء فيها كلاماً كثيراً يشعر بعضه بتعريفها، ويشعر بعضه بثمرتها ومواطنها، بيد أن المتقدمين منهم لم يتعرضوا لتعريفها تعريفاً اصطلاحياً ولكنهم ذكروا كلاماً في ثبوتها، وثمرتها ومواطنها، حيث كانوا يعنون بثمرات المسائل، ولا يعولون على التفاصيل التي لا تفيد إلا ذوي العمق من أهل الاختصاص، وإن كان البعض من متأخري المتقدمين يعرفون الشيء بتقسيمه[٤٦]، أو بطريق السبر[٤٧] والاستقراء[٤٨] .

نشأة التعريف الاصطلاحي

وبعد أن كان التلاقي بين الفكر الإسلامي، والفكر غير الإسلامي وظهور علماء الكلام من المسلمين، عرّفوا العصمة تعريفاً اصطلاحياً- وشاركوا من قبلهم في ذكر ثمرتها ومواطنها- في عبارات تختلف في الأداء، إلا أنهم متفقون جميعاً في قصد الوصول إلى تحديد معناها، ومحاولة الوقوف على المراد منها .

ونبدأ بأقوال من عرّفها تعريفاً اصطلاحياً، وسنحاول أن نجمع بين المتوافقات سلباً وإيجاباً حتى يتم تصورها، والحكم عليها تحقيقاً للقول المشهور بين العلماء:" الحكم على الشيء فرع تصوره " .

---

[٤٦] تعريف الشيء بتقسيمه يكون بذكر الأقسام التي ينقسم إليها ذلك الشيء.

[٤٧] السبر: هو تتبع جزئيات الموضوع للوصول لتصور صحيح لكامل عناصر ذلك الموضوع أو معظمها .

[٤٨] الاستقراء: هو تتبع الجزئيات كلها أو بعضها للوصول إلى حكم عام يشملها جميعاً .

تعريف الراغب ودلالته

١- وأول من وقفت على تعريف اصطلاحي لـه- بعـد البحـث والتقصي على قدر عطاء المصادر المتيسرة لنـا- الراغـب[٤٩] الأصفهاني حيث قال في مفرداته: " عصمة الله تعالى الأنبياء حفظه إياهم أولاً بما خصهم به من صفاء الجواهر، ثم بما أولاهـم مـن الفضائل الجسمية والنفسية ثم بالنصرة، وتثبيت أقدامهم، ثم بإنزال السكينة عليهم وبحفظ قلوبهم وبالتوفيق "[٥٠] .

وتعريف الراغب هذا صريح في أن العصمة أمر وجودي حيث فسرها بحفظ الله إياهم، وذكر لهذا الحفظ أسباباً، وجعل لكل سبب منها مكانة في حياة الأنبياء منذ ولادتهم إلى بعثهم إلى وفاتهم وهذه الأسباب هي:

(أ) ما خصهم الله به من صفاء الجواهر . وهـذا يقتـضي أن الحفظ المتسبب عن صفاء الجواهر قد خصهم الله به منذ كـانوا وهو يشعر بأن العصمة بهذا المعنى ثابتة لهم قبل النبوة.

(ب) أما السبب الثاني لعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- في تعريف الراغب-: فهو ما أولاهم الله مـن الفـضائل الجـسمية والنفسية، وهذا يعني أنهم في اكتمال الخلقة البشرية جسماً وصفاء روح ونضج عقل على خلاف سـائر الأجـسام البـشرية والنفوس الإنسانية .

---

[٤٩] هو الحسين بن محمد بن المفضل(٠٠- ٥٠٢هـ) المعـروف بالراغـب الأصفهاني .

[٥٠] المفردات في غريب القرآن: للراغب (ص٣٣٧)، تحقيق محمد سيد الكيلاني ط/ الحلبي عام ١٣٨١هـ بالقاهرة .

وهذا السبب لا يكون إلا بعد السبب الأول المختص بصفاء منشأ خلقتهم الطاهرة. وهو مشعر بما أشعر به السبب الأول في أن العصمة- بما أولاهم من الفضائل الخلقية والخُلقية- ثابتة لهم قبل النبوة .

(ج) والسبب الثالث: نصرهم وتثبيت أقدامهم وهذا إنما يكون بعد أن يبعثوا، ويكلفوا بما يوحى إليهم . وهو ظاهر في استمرار حفظ الله لهم أن ينالهم أعداؤهم بضرر يحول بينهم وبين أداء مقصد بعثتهم .

(د) السبب الرابع: إنزال السكينة عليهم، وحفظ قلوبهم وتوفيقهم وهو مرتبط بالسبب الثالث ونتيجة له، لأن الله تعالى إذا نصرهم على أعدائهم وثبت أقدامهم في المضي بتحقيق ما كلفوه من الوحي يستلزم اطمئنانهم وسكون نفوسهم وحفظ قلوبهم أن ينالها ما يتنافى مع ما كلفوه من تبليغ رسالات الله إلى من أرسلوا إليهم، وهذا إنما يكون بتوفيق الله ولطفه .

تعريف الحافظ ابن حجر

وقد أخذ الحافظ ابن حجر[٥١] تعريف الراغب بشيء من التصرف فقال في الفتح:" وعصمة الله الأنبياء- على نبينا وعليهم الصلاة والسلام- حفظهم من النقائص، وتخصيصهم بالكمالات النفسية والنصرة والثبات في الأمور وإنزال السكينة عليهم "[٥٢] .

---

[٥١] هو أحمد بن علي بن حجر العسقلاني (٧٧٣- ٨٥٢هـ) صاحب كتاب فتح الباري بشرح صحيح البخاري .

[٥٢] فتح الباري شرح صحيح البخاري: لابن حجر [١١: ٥٠١-٥٠٢]، المطبعة السلفية بمصر رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه واستقصى أطرافه =

فقوله " وتخصيصهم بالكمالات النفسية ... الخ " هو في المعنى عين قول الراغب " بما خصهم به من صفاء الجواهر ... الخ " والفرق بين القولين أن صياغة الراغب جعلت التخصيص بالأمور المذكورة أسباباً للحفظ الذي جعله تعريفاً للعصمة .

وصياغة الحافظ ابن حجر جعلت التخصيص بالأمور المذكورة تفصيلاً وبياناً للحفظ عن النقائص، وأن صياغة الراغب تقتضي ثبوت العصمة بمعنى الحفظ- للأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل البعثة - وأما صياغة الحافظ ابن حجر فلا تقتضي ذلك .

وهذا مبني على الخلاف القائم بين العلماء- رحمهم الله تعالى- هل العصمة ثابتة للأنبياء عليهم الصلاة والسلام قبل البعثة وبعدها ؟ أو هي ثابتة لهم بعد البعثة فقط ؟ .

وهذا خلاف سنأتي على تفصيله عند الكلام على مواطن العصمة من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام إن شاء الله.

تعريف السعد

٢- وعرف السعد[٥٣] العصمة- في شرح العقائد- فقال: " وحقيقة العصمة ألا يخلق الله تعالى في العبد الذنب مع بقاء قدرته واختياره"[٥٤] وعرفها في المقاصد- كما ذكر السيلكوتي[٥٥] في

= محمد فؤاد عبد الباقي .

[٥٣] هو مسعود بن عمر بن عبد الله (٧١٢- ٧٩٣هـ) وهو من أئمة العربية والبيان والمنطق .

[٥٤] شرح العقائد: للسعد [١: ٢٠٠] .

[٥٥] هو عبد الحكيم بن شمس الدين الهندي (٠٠- ١٠٦٧هـ) .

حاشيته على حاشية الخيالي[٥٦] على العقائد- بأنها " ملكة اجتناب المعاصي مع التمكن منها " .

اتفاق التعريفين في المآل والثمرة

وليس بين التعريفين خلاف، إذ تعريفه في العقائد تعريف للعصمة بثمرتها ومآلها وغايتها ، وتعريفه إياها في المقاصد بيان لحقيقة العصمة بخواصها كما قال السيلكوتي .

غير أن تعريف المقاصد ظاهر في أن العصمة أمر وجودي وتعريف العقائد ظاهر في أنها أمر عدمي، لكنه ليس عدماً مطلقاً وهو الذي يقابل الوجود المطلق فيتنافى معه، وإنما هو من قبيل العدم المقيد بقيد وجودي - وهو بقاء القدرة والاختيار- فلا ينافي الأمر الوجودي، ومن هنا لا تنافي بين التعريفين .

ثم استطرد السعد- في شرح العقائد- فقال:" وهذا معنى قولهم هي لطف من الله يحمله على فعل الخير ويزجره عن الشر مع بقاء الاختيار تحقيقاً للابتلاء "[٥٧] .

واللطف أمر وجودي، إذ هو مفسر بالتوفيق فلا يسلب اختيار العبد ولا يقيد قدرته ، ومن ثم نقل السعد قول أبي منصور[٥٨]- رحمه الله - أن " العصمة لا تزيل المحنة "[٥٩] .

---

(٥٦) هو أحمد بن موسى الخيالي (٨٢٩- ٨٦٢هـ) .
(٥٧) شرح العقائد: للسعد [١: ٢٠٠] .
(٥٨) هو محمد بن محمد بن منصور السمرقندي (٠٠- ٣٣٣هـ) .
(٥٩) شرح العقائد: للسعد [١: ٢٠٠] وانظر تأويلات أهل السنة لأبي منصور بن محمد الماتريدي [١: ٢٧٤] تحقيق وتعليق الدكتور =

وهذا يؤكد أن السعد يرى أن العصمة أمر وجودي سواء فسرت بملكة اجتناب المعاصي مع القدرة والاختيار أم فسرت بأنها عدم خلق الذنب في العبد المفسر باللطف .

وقد وافق السعد الايجي[٦٠] في أن العصمة " ألا يخلق الله فيهم ذنباً "[٦١] غير أن السعد زاد قيد بقاء القدرة على فعل الذنب والاختيار .

تعريف ابن الهمام

٣-وعرف الكمال ابن الهمام[٦٢] العصمة- في المسايرة- بأنها " تخصيص القدرة بالطاعة، فلا يخلق له قدرة على المعصية "[٦٣] وذكر هذا المعنى في التحرير ملخصاً فقال:" وهي (أي العصمة) عدم القدرة على المعصية "[٦٤]

= إبراهيم عوضين والسيد عوضين، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة عام ١٣٩١هـ .

[٦٠] هو عضد الدين عبد الرحمن بن أحمد (٠٠- ٧٥٦هـ) عالم بالأصول والمعاني العربية .

[٦١] شرح المواقف: للجرجاني [٨: ٢٨٠، ٢٨١] ط/ السعادة بمصر عام ١٣٢٥هـ

[٦٢] هو كمال الدين محمد بن عبد الواحد- بن عبد الحميد (٧٩٠-٨٦١هـ)

[٦٣] المسامرة بشرح المسايرة (ص٢٢٧) .

[٦٤] تيسير التحرير: لمحمد أمير بادشاه[٣: ٢٠]ط/ الحلبي عام١٣٥١هـ بمصر .

ومال إلى هذا ابن النجار[٦٥]- من الحنابلة- فقال: " هي (أي العصمة) سلب القدرة على المعصية "[٦٦]، وأضاف ابن الهمام إلى تعريفه في التحرير تعريفاً آخر فقال: " أو هي خلق مانع غير ملجئ "[٦٧] وهذا التعريف الأخير لا ينافي التعريف الأول، لأنهما في نتيجتهما يستويان في عدم القدرة على المعصية .

تعريف الحكماء

٤- وعرف الحكماء[٦٨] العصمة بأنها " ملكة تمنع عن الفجور، وتحصل بالعلم بمثالب المعاصي ومناقب الطاعات، وتتأكد بتتابع الوحي بالأوامر والنواهي "[٦٩] .

ويظهر من تعريفهم هذا للعصمة أنهم يعتبرونها أمراً يرجع إلى قوى النفس المفكرة بدليل قولهم " وتحصل بالعلم بمثالب المعاصي ... الخ " فليست العصمة عندهم أمراً إلهياً وإنما هي أثر من آثار قوى النفس الإنسانية، أما المتكلمون فيرونها أمراً إلهياً كما يظهر من تعريفاتهم إياها .

جمع اللّقاني معاني التعريفات

٥- وقد جمع عبد السلام اللقاني[٧٠] معاني التعريفات المتقدمة

---

[٦٥] هو محمد بن أحمد الفتوحي (٨٩٨- ٩٧٢هـ) صاحب كتاب منتهى الإرادات .

[٦٦] مختصر التحرير في أصول فقه السادة الحنابلة: لابن النجار (ص٣١) ط/ الحلبي عام ١٣٦٧هـ .

[٦٧] تيسير التحرير: لمحمد أمير بادشاه [٣: ٢٠] .

[٦٨] هم الفلاسفة .

[٦٩] شرح المواقف: للجرجاني [٨: ٢٨١] .

[٧٠] هو عبد السلام بن إبراهيم المصري (٩٧١- ١٠٧٨هـ) .

للعصمة وحقائقها في تعريف جامع مفيد في شرحه على جوهرة التوحيد فقال : " هي (أي العصمة) اتصافهم بحفظ الله سبحانه ظواهرهم وبواطنهم- ولو في حال الصغر- من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة "[٧١] .

وأورد الشيخ حسن الشطي[٧٢]- شيخ الحنابلة في عصره- تعريف اللقاني في مختصره للوامع الأنوار، وحذف منه قيد: " ولو في حال الصغر "[٧٣]

ويظهر من حذفه لهذا القيد أنه نظر إلى أن الصغر ليس محلاً للمؤاخذة، ثم فسر التعريف بقوله:" أي كونهم لا يتصور أن يكونوا إلا كذلك "[٧٤]

وجاء الدردير[٧٥] فصاغ تعريف اللقاني ومن سبقه للعصمة في عبارة أوضح فقال: " هي حفظ الله تعالى بواطنهم وظواهرهم من التلبس بمنهي عنه ولو نهي كراهة ولو في حال الطفولية "[٧٦] .

---

[٧١] اتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد: للقاني، بهامش حاشية محمد الأمير على جوهرة التوحيد (ص١١٤) مطبعة الحلبي عام ١٣٦٨هـ بمصر .

[٧٢] هو حسن بن عمر بن معروف الشطي الدمشقي (١٢٠٥- ١٢٧٤هـ) .

[٧٣] مختصر لوامع الأنوار البهية: لحسن الشطي(ص١٦٥) مطبعة الترقي بدمشق عام ١٣٥٠هـ .

[٧٤] نفس المرجع .

[٧٥] هو أحمد بن محمد العدوي (١١٢٧- ١٢٠١هـ) .

[٧٦] شرح الخريدة مع حاشية الصاوي: للدردير (ص١٠٤) .

ما تنتهي إليه تعريفات العلماء للعصمة اصطلاحاً

ويظهر من التعريفات التي أوردناها، والمذاهب، والآراء التي عرضناها في تعريف العصمة اصطلاحاً أن هذه التعريفات وإن اختلفت مناحيها في التعبير وتنوعت جوانب تناولها لمعنى عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، فإنها جميعها تنتهي إلى تتريه الله تعالى لهم،وحفظه إياهم من مواقعة الذنوب والمخالفات بعد البعثة باتفاق المحققين المحقين، وقبل البعثة على التحقيـــق واليقين عندنا .

*****

مواقع العصمة من حياة الأنبياء
عليهم الصلاة والسلام

بعد أن عرضنا معنى العصمة لغة، واصطلاحاً، وبان لنا المـراد بهـا، فالبحث يدعونا إلى تحديد زمنها، وبيان مواقعها من حياة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام .

وحيث إن لعمر كل نبي أو رسول إلى الخلق فترتين، فتـرة تسبق الإصطفاء، وأخرى تبدأ بالوحي إليه، وتنتهي بلحاقه بربه فقد بحث العلماء - رحمهم الله تعالى- عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في هـاتين الفترتين، واختلفت وجهات نظرهم هل هي ثابتة لهم قبل البعثة وبعدها ؟ أو هي ثابتة لهم بعد البعثة ليس إلا ؟ .

(١) عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - قبل البعثة

وقد تناول بحث العلماء عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في هذه الفترة من ناحية الاعتقاد وغيره .

أما الاعتقاد فقد أجمعت الأمة على عصمتهم من وقوع الكفر منـهم قبل البعثة، وحكى هذا الإجماع صاحب المواقف وقـال شـارحه: " ولا خلاف لأحد منهم في ذلك "(٧٧)، وقال الكمال ابن الهمام- في المسايرة نقلاً عن القاضي الباقلاني-: " إنهم معصومون من وقوع الكفر، لأن الذي

---

(٧٧) شرح المواقف: للجرجاني [٨: ٢٦٤] .

صح عند أهل الأخبار والتواريخ أنه لم يبعث من أشرك بالله طرفة عين وإنما بعث من كان تقياً نقياً زكياً أميناً مشهور النسب حسن التربية "[٧٨].

وقال القاضي عياض- في الشفاء- : " ولم ينقل أحد من أهل الأخبار أن أحداً نبئ واصطفي ممن عرف بكفر وإشراك قبل ذلك "[٧٩] .

وقال القرطبي[٨٠] عند تفسيره لقول الله تعالى ﴿ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَٰذَا رَبِّي فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْأَفِلِينَ ﴾[٨١] وحكاية تبري إبراهيم عليه الصلاة والسلام مما كان يشرك به قومه بقوله: ﴿ إِنِّي بَرِيٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴾[٨٢] قال:" غير جائز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله موحد وبه عارف ومن كل معبود سواه برئ "[٨٣] .

وقال الألوسي[٨٤]- في تفسيره لهذه الآية أيضاً-:" وزعم أنه عليه السلام قال ما قال إذ لم يكن عارفاً بربه سبحانه- والجهل حال الطفولية قبل قيام الحجة لا يضر ولا يعد ذلك كفراً- مما لا يلتفت إليه أصلاً " فقد قال

---

[٧٨] المسامرة بشرح المسايرة (ص٢٢٩- ٢٣٠) .

[٧٩] الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ: للقاضي عياض (٢: ٩٣)، ط/ الحلبي بمصر عام ١٣٦٩هـ .

[٨٠] هو محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري (٠٠- ٦٧١هـ) .

[٨١] سورة الأنعام: آية ٧٦ .

[٨٢] سورة الأنعام: آية ٧٨ .

[٨٣] الجامع لأحكام القرآن: للقرطبي [٧: ٢٥] نشر دار الكتب العربي بمصر عام ١٣٨٧هـ .

[٨٤] هو محمود بن عبد الله الحسيني (١٢١٧- ١٢٧٠هـ) .

المحققون المحقون: إنه لا يجوز أن يكون لله تعالى رسول يأتي عليه وقت من الأوقات إلا وهو لله تعالى موحد وبه عارف ومن كل معبود سواه بريء "[٨٥] .

وعبارة الألوسي- وإن كان الشطر الأخير منها هو عبارة القرطبي إلا أنه رد بها زعماً باطلاً- ذكر فيها أن هذا هو قول المحققين المحقين مما يدل على أن القائل بهذا القول كثير من حذاق العلماء ومحققيهم وهو ما يطمئن إليه القلب وتستريح إليه النفس .

أما غير الاعتقاد- وهو يشمل القول والعمل- فجمهور أهل السنة على جواز وقوع الصغائر والكبائر منهم قبل البعثة إذ لا دليل من العقل أو السمع على امتناعها منهم.[٨٦]

ومنع جمهور المعتزلة صدور الكبائر وصغائر الخسة منهم قبل البعثة لأنها تؤدي إلى النفرة عنهم وعدم الانقياد لهم[٨٧]، قال القاضي عبد الجبار[٨٨]: " ... وقوع ذلك منهم ينفر عن القبول، وتنزيههم عنه يقتضي سكون النفس إليهم، وأن يقوّي الدواعي في القبول منهم "[٨٩] .

---

[٨٥] روح المعاني: للألوسي [٧: ١١٩]، ط/ المطبعة المنيرية .

[٨٦] انظر في ذلك مثلاً: المواقف وشرحه [٨: ٢٦٥]، شرح العقائد: للسعد [١: ١٩١]، إرشاد الفحول (ص٣٥)، الأحكام للآمدي [١: ١٦٩] تعليق عبد الرزاق عفيفي عام ١٣٨٧هـ، حاشية الرهاوي على المنار (ص٧٢٥) وغيرها.

[٨٧] نفس المراجع السابقة .

[٨٨] هو عبد الجبار بن أحمد (٠٠- ٤١٥هـ) قاض، أصولي كان شيخ المعتزلة في زمانه .

[٨٩] المغني في أبواب التوحيد والعدل[١٥: ٣٠٤]، ط/ الحلبي عام ١٣٨٥هـ

اعتراض وجوابه

واعترض على هذا فقيل: " ومن أين تأتي النفرة من إقـــدامهم علـــى الكبائر، وصغائر الخسة قبل البعثة ؟ "[٩٠] .

وأجاب عبد الجبار على هذا بأن " العلم بأن مثل ذلك ينفّـــر ممـــا لا يكتسب بالأدلة العقلية .. وإنما يرجع في ذلك إلى العادات والمتعالم مـــن أحوال الناس في العادة الجارية أن ذلك ينفرهم، كما ينفرهم الإقدام على الأمور المستخفة، ومنكر هذا كالذي يقول: بأنه لا فعل في العالم ينفّـــر، وهذا واضح الفساد "[٩١] .

وذهب قوم منهم القاضي عياض، وابن حـــزم[٩٢]، والقسطـــلاني في المواهب[٩٣]، والزرقاني[٩٤] في شرحها[٩٥] إلى أن الأنبياء معصومون قبـــل النبوة من الصغائر والكبائر، قال ابن حزم- في الفصل-:" فبيقين ندري أن الله تعالى عصمهم قبل النبوة من كل ما يؤذون به بعد النبوة ... " .

الاستدلال رواية على عصمة الأنبياء قبل النبوة

واستدل على هذا بحديث قال: إنه صحيح ورواه بسنده عن الحـــسن ابن محمد بن علي بن أبي طالب أنه قال: سمعت رســـول الله ﷺ يقـــول:

---

(٩٠) نفس المرجع .

(٩١) نفس المرجع .

(٩٢) هو علي بن أحمد بن سعيد الظاهري (٣٨٤- ٣٥٦هـ) .

(٩٣) شرح المواهب اللدنية: للزرقاني [٥: ٣١٤]، ط/ دار المعرفة، لبنان، عـــام ١٣٩٣هـ .

(٩٤) هو محمد بن عبد الباقي (١٠٥٥- ١١٢٢هـ) من أعيان المحدثين .

(٩٥) شرح المواهب اللدنية: للزرقاني [٥: ٣١٤]، ط/ دار المعرفة، لبنان، عـــام ١٣٩٣هـ .

« ما هممت بقبيح مما كان أهل الجاهلية يهمون به إلا مرتين من الدهر كلتاهما يعصمني الله منها،قلت لفتى معي من قريش بأعلى مكة في أغنام لها ترعى: أبصر لي غنمي حتى أسمر هذه الليلة بمكة كما يسمر الفتيان قال: نعم . فلما خرجت فجئت أدنى دار من دور مكة سمعت غناء وصوت دفوف وزميراً فقلت: ما هذا ؟ قالوا: فلان تزوج فلانه لرجل من قريش، فلهوت بذلك الغناء، وبذلك الصوت حتى غلبتني عيني فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت إلى صاحبي، فقال لي: ما فعلت ؟ فأخبرته . ثم قلت له ليلة أخرى مثل ذلك . ففعل فخرجت فسمعت مثل ذلك، فقيل لي مثل ما قيل لي، فلهوت بما سمعت حتى غلبتني عيني، فما أيقظني إلا مس الشمس فرجعت إلى صاحبي فقال لي: ما فعلت ؟ قلت: ما فعلت شيئاً . فوالله ما هممت بعدها بسوء مما يعمل أهل الجاهلية حتى أكرمني الله بنبوته »[٩٦] .

وعقب ابن حزم عليه بقوله: " فصح أنه عليه السلام لم يعص بكبيرة ولا بصغيرة لا قبل النبوة ولا بعدها، ولا هم بمعصية صغرت أو كبرت لا قبل النبوة ولا بعدها ... "[٩٧] .

وهذا الحديث رواه ابن حزم بسنده هو إلى الحسن بن محمد بن علي ابن أبي طالب، ونسب السماع فيه إليه من رسول الله ﷺ كما هو ظاهر من سياقه حسبما هو موجود في النسخ المطبوعة من كتاب الفصل التي بين أيدينا اليوم . والحسن هذا هو ابن محمد المعروف بابن الحنفية، ومحمد هذا

---

[٩٦] الفصل: لابن حزم [٤: ٣١] وبهامشه الملل والنحل للشهرستاني، الطبعة الثانية، دار المعرفة، لبنان، عام ١٣٩٥هـ .

[٩٧] نفس المرجع .

لم يدرك رسول الله ﷺ، إذ كانت ولادته في خلافة عمر بن الخطاب رضي الله عنه[٩٨] فلا يكون له، ولا لابنه الحسن هذا سماع من رسول الله ﷺ .

الانتصار لصحة هذا الحديث

وهذا الحديث مروي عنه عن أبيه محمد بن علي بن أبي طالب رضي الله عنه عن جده علي بن أبي طالب مرفوعاً إلى رسول الله ﷺ كما رواه أبو نعيم في الدلائل[٩٩]، والبيهقي في الدلائل[١٠٠] أيضاً، وابن سيد الناس في عيون الأثر[١٠١]، والماوردي في أعلام النبوة[١٠٢]، والحاكم في المستدرك وقال: " هذا حديث صحيح على شرط مسلم و لم يخرجاه "[١٠٣]، ووافقه الذهبي في التلخيص[١٠٤] ورمز له بحرف (م)، وأخرجه البزار عنه أيضاً مرفوعاً بلفظ « وما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بعدها بشيء حتى أكرمني الله برسالته »[١٠٥] .

---

(٩٨) البداية والنهاية: لابن كثير [٩: ٣٨] نشر مكتبة المعارف- لبنان، ومكتبة النصر، الرياض، عام ١٩٦٦م .

(٩٩) دلائل النبوة: لأبي نعيم (ص١٤٣)، ط/ الهند، الطبعة الثانية، عام ١٣٦٩هـ .

(١٠٠) دلائل النبوة: البيهقي [١: ٣١٥- ٣١٦] .

(١٠١) عيون الأثر: لابن سيد الناس [١: ٤٤- ٤٥] .

(١٠٢) أعلام النبوة: للماوردي (ص١٨٩) .

(١٠٣) المستدرك على الصحيحين: للحاكم [٤: ٢٤٥]، ط/ النصر الحديثة- الرياض .

(١٠٤) نفس المرجع .

(١٠٥) مسند البزار، ورقة (١٥٨) الجزء الأول، مصور بمكتبة الدكتور أحمد محمد نور سيف .

وقد صحح علي القاري هذا الحديث في شرح الشفاء[١٠٦]، كما صححه الشهاب الخفاجي في نسيم الرياض[١٠٧]، وقال السيوطي في الخصائص الكبرى: أخرجه ابن راهويه في مسنده وابن إسحاق والبزار والبيهقي وأبو نعيم في الدلائل وابن عساكر عن علي بن أبي طالب قال: " سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ماهممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يهمون به .. »[١٠٨] فذكر الحديث ثم قال:" قال ابن حجر: إسناده حسن ورجاله ثقات "[١٠٩] .

ونقله ابن كثير في البداية والنهاية عن البيهقي وعقب عليه بقوله: " وهذا حديث غريب جداً وقد يكون عن علي نفسه ويكون قوله في آخره « حتى أكرمني الله ﷻ بنبوته مقحماً » والله أعلم "[١١٠] .

وجوه صحة هذا الحديث

مما سلف يظهر ما يلي:

١- أن هذا الحديث مروي عن علي بن أبي طالب ﷺ عن رسول الله ﷺ،فهو متصل الإسناد مرفوع إليهﷺولعله قد سقط من ابن حزم، أو من الناسخ بعده قوله(عن أبيه عن جده) وإلا لما حكم عليه بالصحة في كتابه .

٢- أن هذا الحديث صحيح لما قاله الحاكم، ولموافقة الذهبي له على ذلك

[١٠٦] شرح الشفاء لعلي القاري بهامش نسيم الرياض [١: ٤٨٣] .
[١٠٧] نسيم الرياض: للشهاب الخفاجي [١: ٤٨٣] .
[١٠٨] الخصائص الكبرى: للسيوطي [١: ٢١٩] تحقيق د/ محمد خليل هراسي .
[١٠٩] نفس المرجع .
[١١٠] البداية والنهاية: لابن كثير [٢: ٢٨٨] .

ولتصحيح القاري والشهاب لرواية البزار لهذا الحديث .

٣- أن كلا ممن ذكرنا من الأئمة الحفاظ أورد هذا الحديث مستدلاً به على عصمة الله تعالى لنبيه ﷺ قبل النبوة وحفظه إياه من جميع أعمال الجاهلية .

وأما قول الحافظ ابن كثير الذي سبق إيراده عنه في هذا الحديث فمردود من وجهين:

الوجه الأول: أن وصف الحديث بالغرابة ليس معناه رده في جميع الأحوال إذ من الغريب[١١١] ماهو في الصحيح،[١١٢] ومتفق عليه كما هو معروف لأهل هذا الشأن .

وهذا الحديث الذي نحن بسبيل الكلام عليه حديث صحيح كما سبق أن بينا، فلا يسوؤه الوصف بالغرابة ما دام رجاله ثقات، ومتنه صحيحاً مقبولاً .

---

[١١١] الغريب من الحديث هو" ما تفرد به راو واحد، وقد يكون ثقة وقد يكون ضعيفاً ولكل حكمه " الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير تأليف أحمد محمد شاكر (ص١٦٧)، وانظر التقييد والإيضاح للعراقي (ص٢٦٨- ٢٧١)، تدريب الراوي للسيوطي (ص٣٧٥- ٣٧٧) .

[١١٢] من أمثلته ما رواه البخاري عن أبي هريرة قال قال رسول الله ﷺ: « كلمتان حبيبتان إلى الرحمن خفيفتان على اللسان ثقيلتان في الميزان: سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم » صحيح البخاري [٩: ١٩٩]، رواه مسلم [٤: ٢٠٧٢] قال الحافظ ابن حجر- في الفتح-[١٣: ٥٤٠]: " وجه الغرابة فيه ما ذكرته من تفرد محمد بن فضيل وشيخه وشيخ شيخه وصحابيه " .

الوجه الثاني: أن قوله (وقد يكون عن علي نفسه) حكم بالحدس لا يقوم على دليل، فلا تقوم به حجة، إذ أن رد الأحاديث- وبخاصة الصحيحة منها- لا يكون بفرض الاحتمالات، واتباع الرأي، بل لا بد أن يبنى على دليل قائم، وقاعدة مسلمة .

ثم أن كلمات الحديث ولفظه وعبارته تدل على أنه من كلام رسول الله ﷺ، إذ أن الجملة التي استنكرها ابن كثير –رحمه الله تعالى- ورأى أنها مقحمة، مروية عند جميع الذين رووا الحديث- وهو واحد منهم- مضافة إلى رسول الله ﷺ، قولاً منه مؤكداً بالقسم عليه منه ﷺ، بعدم الهم بشيء من أفعال الجاهلية، وقد أضاف رسول الله ﷺ إكرام الله ﷻ له بالنبوة، في روايات وبالرسالة كما في رواية البزار إلى ضمير المتكلم في قوله ﷺ « حتى أكرمني الله برسالته » وما كان لعلي رضي الله عنه أن يضيف إلى رسول الله ﷺ ما لم يقله، لو لم يكن ينقل اللفظ النبوي الشريف، ويؤده كما سمعه من رسول الله ﷺ .

وقد صرح الراوي في رواية الحاكم(١١٣) وأبي نعيم(١١٤) وابن سيد الناس(١١٥) عند ذكره لهذه العبارة بقوله: قال رسول الله ﷺ: « فوالله ما هممت بعدها أبداً ... الخ » وتصريح الراوي وإعادته لجملة (قال رسول الله ﷺ) يدفع أيضاً ما قاله ابن كثير، ويؤكد أنها من قول رسول الله ﷺ وليست إقحاماً، ولا هي تحدثاً من علي رضي الله عنه كما دخل على ابن كثير

---

(١١٣) المستدرك [٤: ٢٤٥] .

(١١٤) دلائل النبوة [ص١٤٣] .

(١١٥) عيون الأثر [١: ٤٥] . .

رحمه الله تعالى .

أما القاضي عياض- وهو ممن يقول بعصمتهم قبل النبوة وبعدها من الصغائر والكبائر- فنقل الأبي[١١٦] عنه- في إكمال المُعْلِم- قوله: " وفي حشو قلبه ﷺ حكمة وإيماناً في الصغر دليل على ما يقوله المحققون من أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من الصغر "[١١٧] .

وقال القسطلاني في المواهب والزرقاني في شرحها:" أنه ﷺ معصوم من الذنوب بعد النبوة وقبلها، كبيرها وصغيرها، عمدها وسهوها على الأصح في ظاهره وباطنه، سره وجهره، جده ومزحه، رضاه وغضبه"[١١٨]

ويفهم من صريح قولهم أن القول بعصمتهم من الكبائر والصغائر قبل البعثة هو مذهب المحققين من العلماء .

والحديث السابق برواياته ، يشهد لقول القاضي عياض رحمه الله تعالى أن القول بعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن الصغائر والكبائر قبل النبوة هو مذهب المحققين.

---

[١١٦] هو محمد بن خلفة بن عمر (٠٠- ٨٢٧هـ) من علماء الحديث من أهل تونس .

[١١٧] إكمال إكمال المعلم شرح صحيح مسلم [١: ٣١٥] مطبعة السعادة بمصر عام ١٣٢٧هـ، والقاضي عياض يشير بقوله هذا إلى قصة شق صدر رسول الله ﷺ في صغره وقد رواها أئمة المحدثين وكتاب المغازي والسير .

[١١٨] شرح الزرقاني على المواهب اللدنية [٥: ٣١٤] .

(٢) عصمة الأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - بعد البعثة

قدمنا حكاية الإجماع على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الكفر قبل البعثة، وهو- بلا شك- منسحب على عصمتهم منه بعدها .

فيبقى الكلام في عصمتهم بعد البعثة عن سائر الذنوب كبائرها وصغائرها .

ومن هذا ما يتعلق بإبلاغ الشرع، وتقريره، وبيان الأحكام عن الله تعالى .

عصمة الأنبياء من الكذب

وقد حكى صاحب المواقف وشارحه الإجماع من " أهل الملل والشرائع كلها على وجوب عصمتهم عن تعمد الكذب فيما دل المعجز القاطع على صدقهم فيه "[١١٩] .

واستدلوا لذلك بأنه لو جاز عليهم التقول والافتراء في ذلك عقلاً لأدى إلى إبطال المعجزة القاطعة بصدقهم، وإبطال المعجزة محال فالكذب في ذلك محال أيضاً .[١٢٠]

وقال المازري[١٢١]- في المعلم-: " الأنبياء عليهم السلام معصومون من الكذب فيما طريقه التبليغ عن الله تعالى لدلالة المعجزة على صدقهم فيه "[١٢٢] .

---

[١١٩] المواقف وشرحه[٨: ٢٦٣]، وانظر: الإرشاد لإمام الحرمين (ص٣٥٧) .
[١٢٠] نفس المرجعين السابقين، الشفا [٢: ١٠٥] .
[١٢١] هو محمد بن علي التميمي محدث من فقهاء المالكية (٤٥٣- ٥٣٦هـ).
[١٢٢] إكمال إكمال المعلم: للأبي [٦: ١٥٩] .

وأجاز أبو بكر الباقلاني[١٢٣] دخول السهو[١٢٤] عليهم في ذلك، مصيراً منه إلى أن" ذهول النفس وطريان النسيان[١٢٥] "، وبوادر اللسان لا يدخل تحت الصدق الذي هو مدلول المعجزة[١٢٦] لأن صدق المعجزة إنما يدل على ما قصدوه في التبليغ .

والقاضي أبو بكر، وإن كان يرى أن المعجزة لا تدل " دلالة التزامية عقلية "[١٢٧] على منع دخول النسيان عليهم في التبليغ فإنه يرى أنهم معصومون عن ذلك بورود الشرع، وإجماع الأمة على عصمتهم في ذلك[١٢٨] .

---

(١٢٣) هو محمد بن الطيب (٣٣٨- ٤٠٣هـ) من كبار علماء الكلام، ومن كتبه إعجاز القرآن .

(١٢٤) السهو خطأ عن غفلة . وقيل" السهو زوال الصورة من النفس بحيث يتمكن من ملاحظتها من غير تجشم إدراك جديد " . مفردات الراغب (ص٢٤٦)، التعريف الثاني من كتاب جامع العلوم الملقب بدستور العلماء [٢: ١٩٣] .

(١٢٥) قال الراغب:" النسيان ترك الإنسان ضبط ما استودع، إما لضعف قلبه وإما عن غفلة وإما عن قصد حتى ينحذف عن القلب ذكره "، المفردات (ص٤٩١) .

(١٢٦) نسيم الرياض: للشهاب الخفاجي [٤: ١١٧]، شرح المواقف [٨: ٢٦٣]، حاشية الرهاوي على المنار (ص٧٢٥) .

(١٢٧) نسيم الرياض [٤: ٨٠] .

(١٢٨) نفس المرجع .

منع السهو والنسيان على الأنبياء في التبليغ

ومنع أبو إسحاق الإسفرائيني[١٢٩] - وكثير من الأئمة الأعـــلام[١٣٠] - ومنهم الفخر الرازي[١٣١] دخول ذلك عليهم، ورأوا أن المعجزة كما تدل على صدقهم فيما يعمدون تبليغه، تدل على أنهم لا يسهون، ولا ينـــسون في ذلك إذ " لو جاز الخُلْف في ذلك لكان نقضاً لدلالة المعجـــزة، وهـــو ممتنع[١٣٢] و " لم يبق الاعتماد على شيء من الشرائع "[١٣٣] و " لما تميز لنا الغلط، والسهو من غيره ولاختلط الحق بالباطل "[١٣٤] .

وقال صاحب المعتمد[١٣٥] في أصول الفقه: " لا يجوز عليهم الكذب فيما يؤدونه ولا الكتمان، ولا السهو في حال الأداء لأن تلك الحال حال تلقي الفروض، فوقوع السهو فيها يغري باعتقاد كون العبادة لا على مـــا أوردوها "[١٣٦] .

وقال أبو الحسين الخياط[١٣٧]: " ... النبي ﷺ إذا قصد إلى الأداء عن الله ﷻ والإخبار عنه بما أمره بأدائه إلى خلقه وبإخبارهم إياه، فليس يجوز

---

[١٢٩] هو إبراهيم بن محمد (٠٠-٤١٨هـ) ابن إبراهيم عالم بالفقه والأصول .

[١٣٠] المواقف وشرحه [٨: ٢٦٣] .

[١٣١] هو محمد بن عمر بن حسين القرشي (٠٠- ٦٠٦هـ) .

[١٣٢] المواقف وشرحه [٨: ٢٦٣] .

[١٣٣] عصمة الأنبياء: للرازي (ص٢) .

[١٣٤] الشفاء: للقاضي عياض [٢: ١٠٦] بتصرف .

[١٣٥] هو محمد بن علي بن الطيب (٠٠- ٤٣٦هـ) البصري المعتزلي .

[١٣٦] المعتمد في أصول الفقه: لأبي الحسين البصري [١: ٣٧١] .

[١٣٧] هو عبد الرحيم بن محمد الخياط المعتزلي (٠٠- ٣٠٠هـ) .

عليه الغلط، والخطأ في ذلك، لأن الله قد أوجب على الخلق طاعته فيما يأمرهم به، وتصديقه فيما أخبرهم به عن ربهم، فلم يكن جل ثناؤه ليأمرهم بتصديق من يجوز عليه خطأ، ولا بطاعة من لا يؤمن منه الغلط "[١٣٨] .

وقال القاضي عياض: " .. لا خلاف أنهم معصومون من كتمان الرسالة والتقصير في التبليغ، لأن ذلك يقتضي العصمة منه المعجزة، مع الإجماع على ذلك من الكافة .. "[١٣٩] .

ونقل ابن عطية[١٤٠]- في تفسيره- إجماع الأمة على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في معنى التبليغ[١٤١] .

انتصار ابن تيمية للقول بعصمة الأنبياء في التبليغ

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية- رحمه الله-[١٤٢] في كتاب النبوات-: "وما أنبأ به النبي عن الله لا يكون يطابق كذباً، لا خطأً ولا عمداً، فلا بد أن يكون صادقاً فيما يخبر به عن الله يطابق خبره مخبره لا تكون فيه مخالفة لا عمداً ولا خطأً . وهذا معنى قول من قال: " هم معصومون فيما يبلغونه

---

[١٣٨] الانتصار والرد على ابن الراوندي: لعبد الرحيم الخياط (ص٩٤)، ط/ دار الكتب المصرية عام ١٣٤٤هـ، تحقيق د/ نيبرج .

[١٣٩] الشفاء: للقاضي عياض [٢: ١٢٥] .

[١٤٠] هو عبد الحق بن غالب المحاربي مفسر فقيه أندلسي (٤٨١- ٥٤٢هـ) .

[١٤١] الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: لابن عطية [١: ٣٦١] تحقيق المجلس العلمي بفاس . نشر وزارة الأوقاف المغربية عام ١٣٩٥هـ .

[١٤٢] هو أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام الحراني (٦٦١- ٧٢٨هـ) .

عن الله "[١٤٣] ثم قال: " .. فهو (أي النبي ﷺ) المؤيد المعصوم بما يحفظه الله من الإنس والجن حتى يبلغ رسالات ربه كما أمر فلا يكون فيها كذب ولا كتمان "[١٤٤] .

إجماع العلماء على القول بوجوب عصمة الأنبياء في التبليغ

وحاصل القول أن الجميع متفقون مطبقون على وجوب عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، من السهو والنسيان في التبليغ عن الله تعالى، وإنما حصل الاختلاف في مقتضى دلالة المعجزة، أهي دالة على صدقهم في جميع ما يبلغون عن الله تعالى- كما هو رأي الجمهور- أم فيما يقصدون تبليغه، ويعمدونه على قول أبي بكر الباقلاني ومن وافقه ؟ .

---

[١٤٣] النبوات: لابن تيمية (ص٢٣٥) طبع المطبعة السلفية بالقاهرة عام ١٣٨٦هـ .

[١٤٤] نفس المرجع (ص٢٣٦) .

تنوع الذنوب إلى صغائر وكبائر

تردد ذكر الكبائر والصغائر فيما سبق من بحثنا هذا، وإتماماً لما قدمنا نرى البحث يدعونا- قبل الكلام على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب صغائرها وكبائرها- إلى توضيح المراد من الكبائر والصغائر .

مسالك التكليف

أقام الله تعالى تكليف العباد على الأمر والنهي، فأمرهم بطاعته ونهاهم عن مخالفة أمره، فطاعتهم إياه لازمة لهم بأمره إياهم بالطاعة ونهيهم عن المعصية . فدواعي الإلزام بالطاعة لله تعالى تقتضي أن يكون العبد بين الرجاء لثواب الله تعالى، والخوف من عقابه .

وشدة عقابه تجعل الإقدام على المعصية أمراً مستفظعاً عند ذوي النهى.

ومن ثم اختلف العلماء في تقسيم الذنوب والمخالفات إلى صغائر وكبائر .

وجه القول بأن جميع الذنوب كبائر

فذهب بعض العلماء من السلف والخلف إلى أنه لا صغيرة في الذنوب، فكل الذنوب عند هؤلاء كبائر، ولكن كبيرة دون كبيرة لتفاوت المخالفات في ذاتها، وفي آثارها فـ" يقال لبعضها صغيرة بالإضافة إلى ما هو أكبر منها، كما يقال: القُبلة المحرمة صغيرة بإضافتها إلى الزنى وكلها كبائر "[١٤٥] .

---

(١٤٥) فتح الباري: للحافظ ابن حجر [١٠: ٤٠٩]، الشفاء: للقاضي عياض [٢: ١٢٥]، الزواجر عن اقتراف الكبائر: لابن حجر المكي [١: ٥] .

فهؤلاء نظروا في المعاصي بالنسبة للمعصي بها وهو الله تعالى، ولذلك قال إمام الحرمين[١٤٦]: " المرضي عندنا أن كل ذنب كبيرة إذ لا تراعى أقدار الذنوب حتى تضاف إلى المعصي بها، فرب شيء يعد صغيرة بالإضافة إلى الأقران، ولو صور في حق ملك لكان كبيرة يضرب بها الرقاب "[١٤٧].

وكلام إمام الحرمين هذا يشعر بأن من الذنوب كبائر ومنها صغائر ولكنه لا يسمي الصغائر باسمها إجلالاً لحق المعصي بها .

ونسب القاضي عياض- في الشفاء[١٤٨] والنووي في شرح مسلم[١٤٩] والحافظ ابن حجر في الفتح[١٥٠]- القول بهذا إلى طائفة من العلماء .

والقول بأن جميع الذنوب كبائر موافق لظاهر ما رواه الطبري عن ابن عباس ﷺ أنه قال: " كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة "[١٥١]، ورواه عنه أيضاً من طريق آخر بلفظ " كل شيء عصي الله فيه فهو كبيرة "[١٥٢] .

وقد توقف القرطبي في التسليم بصحة ذلك عن ابن عباس فقال: " ما أظنه يصح عن ابن عباس أن كل ما نهى الله ﷻ عنه كبيرة، لأنه مخالف

---

[١٤٦] هو عبد الملك بن عبد الله (٤١٩- ٤٧٨هـ) فقيه شافعي .

[١٤٧] الإرشاد إلى قواطع أدلة أصول الاعتقاد: لامام الحرمين (ص٣٩١) .

[١٤٨] الشفاء: القاضي عياض [٢: ١٢٥] .

[١٤٩] شرح مسلم: للنووي [٢: ٨٤] .

[١٥٠] فتح الباري: للحافظ ابن حجر [١٠: ٤٠٩] .

[١٥١] جامع البيان: للطبري [٥: ٤٠] .

[١٥٢] نفس المرجع [٥: ٤١] .

لظاهر القرآن في الفرق بين الصغائر والكبائر في قوله ﴿ ٱلَّذِينَ يَجۡتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَۚ ﴾[١٥٣] وقوله ﴿ إِن تَجۡتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنۡهَوۡنَ عَنۡهُ نُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ ﴾[١٥٤] فجعل في المنهيات صغائر وكبائر وفرق بينهما في الحكم إذ جعل تكفير السيئات في الآية مشروطاً باجتناب الكبائر، واستثنى اللمم من الكبائر والفواحش، فكيف يخفى ذلك على حبر القرآن "[١٥٥] .

قال الحافظ ابن حجر: " ويؤيده (أي ما ذهب إليه القرطبي) ما ورد عن ابن عباس في تفسير اللمم "[١٥٦] وهو ما أخرجه البخاري عنه أنه قال: " ما رأيت شيئاً أشبه باللمم مما قال أبو هريرة عن النبي ﷺ: « إن الله كتب على ابن آدم حظه من الزنى أدرك ذلك لا محالة، فزنى العين النظر، وزنى اللسان المنطق، والنفس تمنى وتشتهي، والفرج يصدق ذلك ويكذبه »[١٥٧].

جمع الحافظ ابن حجر بين قولي ابن عباس في الكبائر

وقد رد الحافظ ابن حجر على القرطبي توقفه في نسبة الرواية لابن عباس بهذا القول فقال:".. ولكن النقل المذكور عنه أخرجه إسماعيل القاضي، والطبري بسند صحيح على شرط الشيخين إلى ابن عباس، فالأولى أن يكون المراد بقوله (نهى الله عنه) محمولا على نهي خاص وهو الذي قرن به وعيد كما قيد في الرواية الأخرى عن ابن عباس فيحمل

---

[١٥٣] سورة النجم: آية ٣٢ .

[١٥٤] سورة النساء: آية ٣١ .

[١٥٥] فتح الباري: للحافظ ابن حجر [١٠: ٤١٠] .

[١٥٦] فتح الباري: للحافظ ابن حجر [١١: ٥٠٢، ٥٠٣] .

[١٥٧] صحيح البخاري [٨: ٦٧، ١٥٦]، صحيح مسلم [٤: ٢٠٤٦] .

مطلقه على مقيده جمعاً بين كلاميه "(١٥٨) .

وبهذا التخريج- من الحافظ ابن حجر- يكون الحبر ابن عبـــاس ﷺ قائلاً بأن الذنوب تتنوع إلى صغائر وكبائر، ولكنها تتفاوت فيما بينها ذاتاً وأثراً .

أما الرواية المقيدة التي حمل عليها الحافظ هذه الرواية المطلقة توحيـــداً لكلام ابن عباس ﷺ فهي ما رواه الطبري عنه بسنده إليـــه أنـــه قـــال: " الكبائر كل ذنب ختمه الله بنار، أو غضب، أو لعنة، أو عذاب "(١٥٩) .

الاستدلال بالقرآن والسنة على تنوع الذنوب إلى صغائر وكبائر

وهذا هو الذي يتمشى مع مقتضى ظاهر الآيات القرآنية، وما ورد في السنة المطهرة الصحيحة، فالآيات القرآنية الكريمـــة صـــريحة في انقـــسام الذنوب إلى صغائر، وكبائر، ومن أصرح الآيات في ذلك ما يلي:

١- قول الله تعالى: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾(١٦٠) يدل بمقتضى المقابلة أن من الذنوب صغائر وكبائر، وأن اجتناب الكبائر مكفر للصغائر التي سميت في الآية سيئات، ولا شك في أن تسميتها بذلك يعطيها وصف الذنب وحقيقته، فتكفير السيئات المشروط باجتناب كبائر ما نُهُو عنه يقتضي أنها ليست من الكبائر، وقد سماها الله تعالى سيئات، فهي ذنوب وليست بكبائر قطعاً .

---

(١٥٨) فتح الباري: للحافظ ابن حجر [١٠: ٤١٠] .

(١٥٩) جامع البيان: للطبري [٥: ٤١]، تفسير ابن كـــثير [١: ٤٨٦]، الـــدر المنثور: للسيوطي [٢: ١٤٦] .

(١٦٠) سورة النساء: آية ٣١ .

وقد ورد هذا التفسير عن النبي ﷺ فيما رواه السيوطي إذ يقول:

" أخرج النسائي[١٦١]، وابن ماجه، وابن جرير، وابن خزيمة، وابن حبان، والحاكم وصححه، والبيهقي في سننه عن أبي هريرة وأبي سعيد رضي الله عنهما أن النبي ﷺ جلس على المنبر ثم قال: « والذي نفسي بيده ما من عبد يصلي الصلوات الخمس، ويصوم رمضان، ويؤدي الزكاة، ويجتنب الكبائر السبع إلا فتحت له أبواب الجنة الثمانية، يوم القيامة حتى أنها لتصطفق، ثم تلا: ﴿ إِن تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا ﴾ » .

فهذا تفسير منه ﷺ للآية الكريمة وتبيين للمراد منها من أن من الذنوب صغائر يكفرها الله تعالى باجتناب الكبائر وليس بعد تفسير رسول الله ﷺ تفسير، ولا بعد قوله قول لقائل .

٢- قول الله تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴾[١٦٢] ذكرها الله تعالى في سياق مدح المؤمنين المتصفين باجتناب كبائر الإثم والفواحش، وهي تدل بمفهومها على أن هناك صغائر لا تمنع المدح، كما تدل هذه الآية- أيضاً على أن من الذنوب فواحش- هي أكبر من الكبائر بدليل عطف الفواحش على كبائر الإثم، وهو دليل قاطع على تفاوت الكبائر فيما بينها .

---

[١٦١] سنن النسائي: [٥: ٨-٩] .

[١٦٢] سورة الشورى: آية ٣٧ .

٣- قول الله تعالى ﴿ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ ﴾[١٦٣] وهو يدل بذكر الأمور الثلاثة (الكفر والفسوق والعصيان) على أن الذنوب تتنوع إلى كفر وهو أعظمها وأغلظها، وإلى فسوق وهو أقل من الكفر، فيكون المراد به كبائر الذنوب، مع وجود أصل الإيمان . والعصيان ويراد به مطلق المعصية بعد الفسوق وليس ذلك إلا صغائر الذنوب .

فالآية الكريمة بمنطوقها صريحة في تقسيم الذنوب إلى صغائر وكبائر مع الإشارة إلى تفاوت الكبائر فيما بينها .

ويؤكد هذا قول النبي ﷺ: « ألا أنبئكم بأكبر الكبائر - ثلاثاً - ؟ قالوا: بلى يا رسول الله . قال: الإشراك بالله »[١٦٤] فعد الإشراك بالله أكبر الكبائر، ثم ذكر بعده من الكبائر أشياء أخرى تدخل في الفسوق وهي « عقوق الوالدين وقول الزور »[١٦٥] .

٤- قول الله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾[١٦٦] يدل بمقتضى بيان قوله ﴿ وَيَجْزِيَ ٱلَّذِينَ أَحْسَنُواْ بِٱلْحُسْنَى ﴾[١٦٧] في الآية قبلها على أن المحسنين بأعمالهم من المكلفين هم ﴿ ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ ﴾ فاستثناء اللمم من كبائر الإثم والفواحش

---

[١٦٣] سورة الحجرات: آية ٧ .

[١٦٤] رواه البخاري في صحيحه [٣: ٢٢٥]، ومسلم [١: ٩١] .

[١٦٥] نفس المرجعين السابقين .

[١٦٦] سورة النجم: آية ٣٢ .

[١٦٧] سورة النجم: آية ٣١ .

يدل بمقتضى قاعدة الاستثناء- وهي أنه يخرج من سابقه ما لولاه لدخل فيه- على أن اللمم ليس من كبائر الإثم والفواحش، فهو من الصغائر، وقد جاء تفسيره بذلك عن ابن عباس فيما رواه البخاري وقد أوردناه فيما سبق .

وقد نبه الله تعالى في هذه الآية الكريمة بقوله: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ ﴾ [١٦٨] على أن إخراج اللمم واستثناءه من" حكم المؤاخذة ليس لخلوه من الذنب في نفسه بل لسعة المغفرة الربانية "[١٦٩] وفي عطف الفواحش هنا على كبائر الإثم ما في نظيره في آية الشورى .

الأدلة من السنة على تنوع الذنوب إلى صغائر وكبائر

وقد فرقت السنة النبوية المطهرة الصحيحة بين الصغائر والكبائر بطريقين:

١- أن بعض الأحاديث ذكر فيها عدد من الذنوب سماها النبي ﷺ كبائر جواباً عن سؤال سائل، أو تعليماً منه ﷺ لأصحابه الكرام من غير أن يسأله عنها أحد .

فمن الأول ما رواه البخاري ومسلم- واللفظ للبخاري- عن أنس ابن مالك ﷺ قال: " سئل النبي ﷺ عن الكبائر فقال: « الإشراك بالله، وعقوق الوالدين، وقتل النفس[١٧٠] وشهادة الزور »[١٧١] .

---

[١٦٨] سورة النجم: آية ٣٢ .

[١٦٩] إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم: لأبي السعود [٥: ١١٤] .

[١٧٠] أي النفس (التي حرم الله إلا بالحق) كما ورد مقيداً بذلك في رواية أبي هريرة من كتاب الحدود في صحيح البخاري [٨: ٢١٨] وكما ورد عنه في الحديث الآتي بعده من هذه الرسالة .

[١٧١] صحيح البخاري [٣: ٢٢٤] .

ومن الثاني ما أورده السيوطي- في الدر- حيث قال:" وأخرج البزار، وابن المنذر، وابن أبي حاتم عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: « الكبائر سبع أولها الإشراك بالله، ثم قتل النفس بغير حقها، وأكل الربا، وأكل مال اليتيم إلى أن يكبر، والفرار من الزحف، ورمي المحصنات، والانقلاب إلى الأعراب[١٧٢] بعد الهجرة »[١٧٣] .

واختلاف العدد في الروايات من قبيل أن العدد لا مفهوم له، أو أنه من باب تجدد العلم للنبي ﷺ، أو أنه من باب مناسبة حال السائل .[١٧٤]

٢- ما جاء عن رسول الله ﷺ من أن بعض أعمال البر والصلاة تكفر الذنوب ما اجتنبت الكبائر فمن ذلك ما رواه مسلم والترمذي وابن ماجه- واللفظ لمسلم- عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ كان يقول: « الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات ما بينهن إذا اجتنبت الكبائر »[١٧٥] وأخرج مسلم أن عثمان

---

[١٧٢] أي الرجوع إلى البادية بعد الهجرة مع رسول الله ﷺ وترك الجهاد معه .

[١٧٣] الدر المنثور: للسيوطي [٢: ٤٦] وهذه الرواية في البخاري [٨: ٢١٨] إلا أنه قال: الموبقات بدل الكبائر وذكر السحر بدل التعرب بعد الهجرة . وفسر الحافظ ابن حجر الموبقة بالكبيرة أخذاً من حديث البزار وابن المنذر. الفتح [١٢: ١٨٢] .

[١٧٤] فتح الباري: للحافظ ابن حجر [١٢: ١٨٣]، إكمال إكمال المعلم: للأبي [١: ١٩٧] .

[١٧٥] صحيح مسلم [١: ٢٠٩]، سنن الترمذي [١: ٤١٨] بتحقيق وشرح أحمد شاكر، سنن ابن ماجه مع حاشية السندي [١: ٣٣٧] .

ابن عفان ﷺ دعا بطهور فقال:" سمعت رسول الله ﷺ يقول: « ما من أمرئ مسلم تحضره صلاة مكتوبة فيحسن وضوءها وخشوعها وركوعها إلا كانت كفارة لما قبلها من الذنوب ما لم يؤت كبيرة وذلك الدهر كله » "(١٧٦) .

ولا شك أن هذا في الصغائر، وغير حقوق العباد .

الأدلة من أقوال الصحابة والتابعين على انقسام الذنوب إلى كبائر وصغائر

وفي الآثار عن الصحابة ﷺ ما يؤيد التفرقة بين الذنوب فجعل منها صغائر وكبائر، فعن أنس ﷺ قال:" لم نر مثل الذي بلغنا عن ربنا ﷻ ثم لم نخرج له عن كل أهل ومال أن تجاوز لنا عما دون الكبائر، فما لنا ولها، يقول الله: ﴿إِن تَجْتَنِبُواْ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلاً كَرِيمًا﴾ "(١٧٧) . وذكره ابن كثير- في تفسيره- مرفوعاً عند البزار .(١٧٨)

وعنه قال: "ما لكم والكبائر وقد وعدتم المغفرة فيما دون الكبائر "(١٧٩) .

وقد عددت بعض الآثار عن الصحابة رضوان الله عليهم الكبائر، فعن علي ﷺ قال: " الكبائر الإشراك بالله، وقتل النفس، وأكل مال اليتيم، وقذف المحصنة، والفرار من الزحف، والتعرب بعد الهجرة، والسحر ،

---

(١٧٦) صحيح مسلم [١: ٢٠٦] .

(١٧٧) الدر المنثور: للسيوطي [٢: ١٤٥] .

(١٧٨) تفسير القرآن العظيم: لابن كثير [١: ٤٨٠] .

(١٧٩) الدر المنثور: للسيوطي [٢: ١٤٥] .

وعقوق الوالدين، وأكل الربا، وفراق الجماعة، ونكث الصفقة "[١٨٠]:

وقد روي مرفوعاً في عدد مما ذكره .

وعن ابن مسعود ﷺ قال: " الكبائر الإشراك بالله، والقنوط من رحمة الله، والاياس من روح الله، والأمن من مكر الله "[١٨١] .

والآثار في ذلك عن الصحابة والتابعين كثيرة تفوق الحصر، وما أوردناه أمثلة لبعض ما ورد عنهم في ذلك فلا يمكن العدول عن هذه النصوص الصريحة من القرآن الكريم والسنة المطهرة، وأقوال السلف في التفرقة بين الذنوب بجعل بعضها صغائر، وبعضها كبائر وتأويلها بالتعسف إلى ما يفيد أنه لا صغيرة من الذنوب إذ الأخذ بصريح الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الصحيحة وآثار جمهور الصحابة والتابعين الدالة على انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر خير من تأويلها بما ينبو عنه ظاهرها وأسلم من ثنيها عن دلالتها .

قال النووي[١٨٢]: " وذهب الجماهير من السلف، والخلف من جميع الطوائف إلى انقسام المعاصي إلى صغائر وكبائر، وهو مروي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقد تظاهر على ذلك دلائل من الكتاب والسنة

---

[١٨٠] تفسير القرآن العظيم: لابن كثير [١: ٤٨٥] .

[١٨١] تفسير الطبري [٥: ٤٠] وعزا السيوطي في الدر [٢: ١٤٧] إخراجه إلى عبد الرزاق وعبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وغيرهم .

[١٨٢] هو يحيى بن شرف الخزامي (٦٣١- ٦٧٦هـ) صاحب شرح مسلم المشهور .

واستعمال سلف الأمة وخلفها "[١٨٣] .

ونقل الحافظ ابن حجر عن ابن بطال[١٨٤] قوله:" انقسام الذنوب إلى صغائر وكبائر هو قول عامة الفقهاء "[١٨٥] .

وقال الغزالي[١٨٦]: " إنكار الفرق بين الصغيرة والكبيرة لا يليق بالفقيه وقد عرفتا من مدارك الشرع "[١٨٧] .

خطر القول بأن جميع الذنوب كبائر

ومهما بلغ المرء منا من التقى والذل لله تعالى والخشوع له والانقطاع لعبادته تعالى، فلن يستطيع التتره من لمم الذنوب، وهنالها فلو أجزنا القول بأن جميع معاصي الله تعالى كبائر لحكمنا على جميع المؤمنين باقتراف الكبائر، واستباحة حمى الله تعالى، وانتهاك محارمه فضلاً عن تركنا صريح النصوص سيراً مع تأويلات لا يعضدها دليل .

---

(١٨٣) شرح صحيح مسلم: للنووي [٢: ٨٥] .

(١٨٤) هو علي بن خلف (٠٠- ٤٤٩هـ) .

(١٨٥) فتح الباري [١٠: ٩؛٤] .

(١٨٦) هو محمد بن محمد أبو حامد (٤٥٠- ٥٠٥هـ) .

(١٨٧) شرح النووي على مسلم [٢: ٨٥]، فتح الباري [١٠: ٤٠٩]، الزواجر: لابن حجر المكي [١: ٥]، روح المعاني [٥: ١٨] .

عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب صغائرها وكبائرها

بعد أن حققنا القول في وجوب عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام في التبليغ وتنوع الذنوب إلى صغائر وكبائر، وبان لنا أن جميع أهل الشرائع والملل مجمعون على وجوب عصمتهم فيما يبلغونه عن الله تعالى من الأحكام والشرائع، ننتقل إلى الكلام في سائر الذنوب والمعاصي، وهل هي جائزة عليهم- عليهم الصلاة والسلام- ؟ .

وهنا نجد العلماء قد قسموا الذنوب- ما خلا الكفر، وقد سبق التدليل على عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام منه قبل البعثة وبعدها بإجماع الأمة كافة- إلى صغائر وكبائر .

أما الكبائر فقال القاضي عياض: " أجمع المسلمون على عصمة الأنبياء من الفواحش، والكبائر الموبقات "[١٨٨] . وقد صرح بهذا الإجماع المازري[١٨٩]- فيما نقله عنه النووي- في قوله: " فهو ﷺ معصوم من الكبائر بالإجماع "[١٩٠]، وابن عطية - في تفسيره- حيث قال: " وأجمعت الأمة على عصمة الأنبياء.. من الكبائر ومن الصغائر التي فيها رذيلة "[١٩١]

---

[١٨٨] الشفاء [٢: ١٢٥] .

[١٨٩] هو محمد بن علي بن عمر (٤٥٣- ٥٣٦هـ) محدث من علماء المالكية من كتبه المعلم بفوائد مسلم .

[١٩٠] شرح النووي على مسلم[٧: ٥٨]، ط/ المطبعة المصرية، عام ١٣٤٧هـ

[١٩١] المحرر الوجيز: لابن عطية [١: ٣٦١] .

ونقله عنه أبو حيان[١٩٢] في البحر .[١٩٣]

وممن صرح بعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب إمـــام الحرمين في الإرشاد حيث قال: " وتجب عصمتهم عن المعاصي والذنوب المؤذنة بالسقوط، وقلة الديانة إجماعاً "[١٩٤] .

وقول إمام الحرمين هذا وإن ظهر أنه أعم من الدعوى فهو منتج لهـــا لأن العام يدل على الخاص وغيره، وقد صرح إمام الحرمين عقب ســـوقه هذا الكلام بقوله " أما الذنوب الصغائر .. الخ " مما يشعر بأنه أراد بكلامه هنا عصمتهم من الكبائر وصغائر الخسة، وسنعرض لنصه عـــن الـــذنوب الصغائر في موضعه إن شاء الله تعالى .

وقد اختلفوا في مستند هذا الإجماع[١٩٥]، فالجمهور على أن مستنده نفس الإجماع، وذهب القاضي الباقلاني إلى أن مستند عصمتهم من الكبائر السمع مضافاً إلى الإجماع نفسه " قبل ظهور المخالفين في ذلك "[١٩٦] .

---

[١٩٢] هو محمد بن يوسف بن علي (٦٤٥- ٧٤٥هـــ) من أئمة العلماء .

[١٩٣] البحر المحيط [٧: ٥٧] .

[١٩٤] الإرشاد إلى قواطع أدلة أصول الاعتقاد: لامام الحرمين (ص٣٥٦) تحقيق د/ محمد يوسف موسى، علي عبد المنعم . مطبعة الـــسعاد بمـــصر، عـــام ١٣٦٩هـــ .

[١٩٥] الشفاء: للقاضي عياض [٢: ١٢٥] .

[١٩٦] شرح المواقف [٨: ٢٦٤] .

ويرى أبو إسحاق الاسفرائيني أن مستنده العقل مضافاً إلى الإجماع[١٩٧] قال القاضي عياض: " وهو قول الكافة "[١٩٨] .

وفي عموم الكافة دخل المعتزلة القائلون بهذا الإجماع[١٩٩]، وأن مستنده العقل[٢٠٠]، قال القاضي عبد الجبار: " يبين ذلك أنهم لو بعثوا للمنع من الكبائر، والمعاصي بالمنع والردع، والتخويف، فلا يجوز أن يكونوا مقدمين على مثل ذلك لأن المنعالم أن المقدم على الشيء لا يقبل منه منع الغير منه "[٢٠١] .

ظهر لنا مما سبق أن الإجماع منعقد على القول بعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من كبائر الذنوب، ونأتي الآن إلى الكلام عن عصمتهم من صغائرها .

وقد قسم العلماء صغائر الذنوب إلى صغائر خسة، وصغائر غير خسة.

فصغائر الخسة هي التي ينسلك بها فاعلها مع الأراذل والسفلة لإشعارها بدناءة الهمة، ووضاعة النفس، ومن أمثلتهم لها سرقة شيء تافه أو تطفيف القليل .

---

(١٩٧) الشفاء [٢: ١٢٥] .

(١٩٨) نفس المرجع السابق . .

(١٩٩) أبو الحسن الأشعري، علي بن إسماعيل، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين [١: ٢٩٦] تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد طبع مكتبة النهضة المصرية، الطبعة الثانية، عام ١٣٨٩هـ .

(٢٠٠) المواقف وشرحه [٨: ٢٦٤] .

(٢٠١) المغني في أبواب التوحيد والعدل: للقاضي عبد الجبار [١٥: ٣٠٢] .

وقد نقل الشوكاني- في إرشاد الفحول- عن الأصوليين أهم " حكوا الإجماع على عصمتهم بعد النبوة مما يزري بمناصبهم كرذائل الأخـلاق والدناءات، وسائر ما ينفر عنهم، وهي التي يقال لها صغائر الخسة كسرقة لقمة أو التطفيف بحبة "[٢٠٢] .

ونقل ابن عطية- في تفسيره- إجماع العلماء على عصمة الأنبياء " من الصغائر التي هي رذائل "[٢٠٣]، ومنع المتكلمون صدورها من الأنبياء مطلقاً ولو سهواً[٢٠٤] .

ونقل القاضي عياض عن بعض الأئمة قوله " أن الأنبياء معـصومون عن الصغائر المؤدية إلى إزالة الحشمة، والمسقطة للمروءة، والموجبة الإزراء والخساسة "[٢٠٥] قال: " فهذا مما يعصم عنه الأنبياء إجماعاً، لأن مثل هذا يحط منصب المتسم به ويزري بصاحبه، وينفر القلوب عنـه، والأنبيـاء مترهون عن ذلك "[٢٠٦] .

أما صغائر غير الخسة، فقالوا إنها التي لا تشعر بنقـص، ولا تلحـق بفاعلها معرة .

---

[٢٠٢] إرشاد الفحول: للشوكاني (ص٣٤) .

[٢٠٣] المحرر الوجيز: لابن عطية [١: ٣٦١]، أبو حيان، البحر المحيط [٧: ٥٧].

[٢٠٤] شرح المواقف [٨: ٢٦٥]، شرح العقائد [١: ١٩١]، المسامرة بـشرح المسايرة (ص٢٣٣-٢٣٤)، كليات أبي البقاء (ص٤٧٠) .

[٢٠٥] الشفاء: للقاضي عياض [٢: ١٢٦] (بتصرف) .

[٢٠٦] نفس المرجع السابق .

ومما لا ريب فيه أن كل ذنب مهما صغر لا بد من إشعاره بـــنقص، ويلحق صاحبه المعرة عند أهل التقوى لوجوب التوبة منه، وهي ندم يشعر بالنقص والمعرة فلا يصح القول بنسبة الصغائر إلى الأنبياء عليهم الـــصلاة والسلام .

وقد ذكر القاضي عياض أن العلماء إزاء تجويز هذا النوع من الصغائر على الأنبياء ثلاث فئات:

الفئة الأولى أجازت صدور هذه الصغائر عن الأنبياء ووقوعها منهم، وقد نسب هذا المذهب إلى" جماعة من السلف وغيرهـــم مـــن الفقهـــاء والمحدثين والمتكلمين "[٢٠٧] وذكر منهم أبا جعفر الطبري .

ونسب ابن حزم هذا القول- في الفصل[٢٠٨]- إلى ابن فـــورك[٢٠٩]، ونسبه السعد- في شرح المقاصد- لإمام الحرمين مـــن الأشـــعرية، وأبي هاشم[٢١٠] من المعتزلة[٢١١] .

وذكر الشوكاني أن العلماء اختلفوا في تجويز الصغائر غير الخسية على الأنبياء، وإذا جاز وقوعها عليهم، فهل وقعت منهم أو لا ؟ .

---

(٢٠٧) الشفاء: للقاضي عياض [٢: ١٢٥] .

(٢٠٨) الفصل: لابن حزم [٤: ٢] .

(٢٠٩) هو محمد بن الحسن الأنصاري (٠٠- ٤٠٦هـــ) عالم بالأصول والكلام من فقهاء الشافعية .

(٢١٠) هو عبد السلام بن محمد الجبائي (٢٤٧- ٣٢١هـــ) من كبار المعتزلـــة ومن علماء الكلام .

(٢١١) شرح المقاصد [٢: ١٤٣] .

فذكر أن إمام الحرمين، والكياالهراسي[٢١٢]، وابن الحاجب[٢١٣] نقلوا القول بالجواز العقلي عن الأكثرية، وأن إمام الحرمين، وابن القشيري[٢١٤] نقلا القول بعدم الوقوع عن الأكثرين كذلك[٢١٥] .

وقال إمام الحرمين: " وأما الذنوب الصغائر فلا تنفيها العقول و لم يقم عندي دليل قاطع على نفيها، ولا على إثباتها، إذ القواطع نصوص أو إجماع، ولا إجماع، إذ العلماء مختلفون في تجويز الصغائر على الأنبياء، والنصوص التي تثبت أصولها قطعاً، ولا يقبل فحواها التأويل غير موجودة والأغلب على الظن عندنا جوازها "[٢١٦] .

وقد تمسك القائلون بوقوع الصغائر منهم بظواهر من القرآن الكريم وبعض الأحاديث الصحاح التي ذكر فيها ما يشعر بوقوع الخطيئة من بعض الأنبياء كحديث الشفاعة الذي جاء فيه أن كل نبي " يذكر خطيئته التي أصاب "[٢١٧] وبورود طلب الاستغفار منهم وطلبهم التوبة عليهم .

ولا نطيل بذكر ما استدلوا به لئلا يَندّ بنا البحث عما رسم من أجله وقد وفت مطولات كتب الكلام، والعقائد هذا الموضوع حقه من بسط

---

[٢١٢] هو علي بن محمد بن علي (٤٥٠- ٥٠٤هـ) فقيه شافعي .

[٢١٣] هو عثمان بن عمر (٥٧٠- ٦٤٦هـ) فقيه مالكي من كبار علماء العربية .

[٢١٤] هو هبة الرحمن (٤٦٠- ٥٤٦هـ) بن عبد الواحد .

[٢١٥] إرشاد الفحول (ص٣٤) .

[٢١٦] الإرشاد: لإمام الحرمين (ص٣٥٦) .

[٢١٧] رواه مسلم في صحيحه [١: ١٨٠، ١٨٤] تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي.

القول فيه .[٢١٨]

أما الفئة الثانية فتقول بالجواز العقلي، لأن العقل لا يحيل صدور الصغائر غير الخسية عنهم، ولكنهم توقفوا عن القول بالوقوع، فلم يثبتوه، و لم ينفوه لتعارض الأدلة عندهم وعدم وجود قاطع في النصوص بالإثبات أو النفي .

وجوه الاستدلال على عصمة الأنبيا ء من الصغائر والكبائر

أما الفئة الثالثة فتقول بعصمتهم من الصغائر كعصمتهم من الكبائر .

ومن هؤلاء الإمام أبو حنيفة[٢١٩]- رحمه الله تعالى- كما صرح به في الفقه الأكبر إذ قال: " الأنبياء عليهم الصلاة والسلام مترهون عن الصغائر والكبائر .. "[٢٢٠] وأقر ذلك شارحه علي القاري .[٢٢١]

وأسند الشوكاني- في إرشاد الفحول- هذا القول إلى الأستاذ أبي إسحاق الاسفرائيني نقلا عن ابن حزم في الملل والنحل .[٢٢٢]

وبالرجوع إلى الموضع الذي تكلم فيه ابن حزم على عصمة الأنبياء في كتابه الفصل في الملل والأهواء والنحل لم نجد ذكراً لأبي إسحاق

---

[٢١٨] من رغب النظر في ذلك فليراجع: شرح المواقف [٨: ٢٦٥]، المسامرة بشرح المسايرة (ص٢٣٥)، شرح العقائد [١: ١٩١] وغيرها من كتب هذا الفن .

[٢١٩] هو النعمان بن ثابت (٨٠- ١٥٠هـ) أحد الأئمة الأربعة عند أهل السنة .

[٢٢٠] الفقه الأكبر بشرح علي القاري: لأبي حنيفة (ص٥٤) .

[٢٢١] هو علي بن محمد بن سلطان (٠٠- ١٠١٤هـ) فقيه حنفي .

[٢٢٢] إرشاد الفحول (ص٣٤) .

الاسفرائيني فلعله ذكره في موضع آخر استطراداً .

ويصحح إسناد هذا القول إلى أبي إسحاق نقل تاج الدين السبكي[٢٢٣] في جمع الجوامع هذا المذهب عنه .[٢٢٤]

وأسند عبد القاهر البغدادي[٢٢٥] هذا المذهب إلى أهل السنة في كتابه الفرق بين الفرق .[٢٢٦]

وممن قال بهذا القول أيضاً ابن حزم، وحكاه عن سائر الفرق الإسلامية، وعن ابن مجاهد[٢٢٧] شيخ الباقلاني، وابن فورك وقال:" وهذا الذي ندين الله تعالى به "[٢٢٨] .

واستدل على عصمتهم من " جميع المعاصي صغيرها وكبيرها سرها وجهرها "[٢٢٩]بقوله ﷺ: « ما كان لنبي أن تكون له خائنة الأعين »[٢٣٠].

---

[٢٢٣] هو عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي (٧٢٧- ٧٧١هـ) .

[٢٢٤] جمع الجوامع (ضمن مجموع مهمات المتون) (ص١٥٥) .

[٢٢٥] هو عبد القاهر بن طاهر بن محمد (٠٠- ٤٢٩هـ) .

[٢٢٦] الفرق بين الفرق (ص٢٠٧) طبع مكتب نشر الثقافة الإسلامية عام ١٣٦٧هـ .

[٢٢٧] هو أحمد بن موسى بن العباس (٢٤٥- ٣٢٤هـ) كبير العلماء في القراءات في عصره .

[٢٢٨] الفصل: لابن حزم [٤: ٢] .

[٢٢٩] نفس المرجع السابق [٤: ٤٨] .

[٢٣٠] لفظ الحديث كما في أبي داود [٤: ١٢٨]، والنسائي [٧: ١٠٦]:" انه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين " كما ذكره بعد ذلك .

ووجه استدلاله به " أن الإشارة بالعين أخف ما يكون من الـــذنوب ومن خلاف الباطن للظاهر "[٢٣١] ومع ذلك لم يقدم عليها النبي ﷺ، بـــل أنكر ﷺ على من قال له:" ألا أومأت لنا بعينك " بقوله: « أنه لا ينبغـــي لنبي أن تكون له خائنة الأعين » .

وممن صرح بالأخذ بهذا المذهب تاج الدين السبكي في جمع الجوامـــع حيث قال: " الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون لا يصدر عنـــهم ذنب- ولو صغيرة سهواً- وفاقاً للأستاذ[٢٣٢]، والشهرستاني[٢٣٣]، وعياض، والشيخ الإمام "[٢٣٤] .

وأسند السفاريني[٢٣٥]- أحد أئمة الحنابلة- هذا المذهب إلى الحـــافظ العراقي[٢٣٦] إذ نقل قوله " النبي ﷺ معصوم من تعمد الذنوب بعد النبوة بالإجماع .... وإنما اختلفوا في جواز الصغيرة ســـهواً فمنعـــه الأســـتاذ أبو إسحاق الاسفرائيني والقاضي عياض، واختاره تقي الدين السبكي[٢٣٧]

---

[٢٣١] الفصل: لابن حزم [٤: ٤٨] .

[٢٣٢] الأستاذ: هو أبو إسحاق الاسفرائيني .

[٢٣٣] هو محمد بن عبد الكريم بن أحمد (٤٧٩-٥٤٨هـ) من فلاسفة الإسلام.

[٢٣٤] جمع الجوامع (ضمن مجموع مهمات المتون)(ص١٥٥) والشيخ الإمام هـــو والده .

[٢٣٥] هو محمد بن أحمد بن ســـالم (١١١٤- ١١٨٨هـــــ) عـــالم بالحـــديث والأصول والأدب .

[٢٣٦] هو عبد الرحيم بن الحسين (٧٢٥- ٨٠٦هــ) من كبار حفاظ الحديث.

[٢٣٧] هو علي بن عبد الكافي (٦٨٣- ٧٥٦هــ) أحد أئمة علماء الإسلام .

وهو الذي ندين الله تعالى به[٢٣٨] .

قال الشوكاني: " واختاره ابن برهان[٢٣٩]، وحكاه النووي في زوائد الروضة عن المحققين، قال القاضي حسين: وهو الصحيح من مذهب أصحابنا يعني الشافعية "[٢٤٠] .

وقال الفخر الرازي: " والمختار عندنا أنه لم يصدر عنهم الذنب حال النبوة البتة لا الكبيرة، ولا الصغيرة "[٢٤١]، وساق في تفسيره الكبير أدلة عقلية ونقلية على وجوب عصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الذنوب نذكر منها ما يلي:

١- أنه لو صدر الذنب عنهم لكانوا أقل درجة من عصاة الأمة وذلك غير جائز، بيان الملازمة أن درجة الأنبياء ... في غاية الجلال والشرف وكل من كان كذلك، كان صدور الذنب عنه أفحش، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿ يَٰنِسَآءَ ٱلنَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَٰحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَٰعَفْ لَهَا ٱلْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ ﴾[٢٤٢] والمحصن يرجم، وغيره يحد، وحد العبد نصف حد الحر، وأما أنه لا يجوز أن يكون النبي أقل حالاً من الأمة فذلك بالإجماع .

---

[٢٣٨] لوامع الأنوار البهية: للسفاريني [٢: ٣٠٥] .

[٢٣٩] هو أحمد بن علي بن برهان (٤٧٩- ٥١٨هـ) فقيه بغدادي درس بالمدرسة النظامية .

[٢٤٠] ارشاد الفحول: للشوكاني (ص٣٤) .

[٢٤١] التفسير الكبير: للفخر الرازي [٣: ٨] .

[٢٤٢] سورة الأحزاب: آية ٣٠ .

٢- أن محمداً ﷺ لو أتى بالمعصية لوجب علينا الاقتداء به فيها لقوله تعالى: ﴿ فَٱتَّبِعُونِى ﴾[٢٤٣] فيفضي إلى الجمع بين الحرمة والوجوب وهو محال .

" وإذا ثبت ذلك في حق محمد ﷺ، ثبت في سائر الأنبياء، ضرورة أنه لا قائل بالفرق "[٢٤٤] .

وهؤلاء العلماء الأجلاء- رحمهم الله تعالى- يحملون ما تفيده ظواهر النصوص من الكتاب والسنة من وقوع بعض الصغائر من الأنبياء عليهم الصلاة والسلام- مما تمسك به القائلون بجواز الصغائر على الأنبياء- إما على صدوره منهم بتأويل قائم على الاجتهاد، فلا يكون ذنباً أو أنه من قبيل خلاف الأولى .

والقائلون بعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الصغائر كعصمتهم من الكبائر أعيان وكثيرون، ولا يتسع المجال لذكرهم وإيراد أقوالهم ، وإنما رمنا ذكر أقوال طائفة منهم إشارة إلى القائلين بذلك .

وقد أورد القاضي عياض أدلة على القول بعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من الصغائر نسوق أهمها وأقواها:

قال: " واستدل بعض الأئمة على عصمتهم من الصغائر بالمصير إلى (وجوب)[٢٤٥] امتثال أفعالهم واتباع آثارهم، وسيرهم مطلقاً، وجمهور

---

[٢٤٣] سورة آل عمران: آية ٣١ .

[٢٤٤] التفسير الكبير: للفخر الرازي [٣: ٨] .

[٢٤٥] كما هو مذهب الإمام مالك وأتباعه ومن قال بقوله، الشفاء [٢: ١٢٦].

الفقهاء على ذلك من أصحاب مالك والشافعي وأبي حنيفة .. فقد علم من دين الصحابة- قطعاً- الاقتداء بأفعال النبي ﷺ، كيف توجهت، وفي كل فن كالاقتداء بأقواله، فقد نبذوا خواتيمهم حين نبذ خاتمه وخلعوا نعالهم حين خلع[٢٤٦] .. واحتج غير واحد في غير شيء[٢٤٧] مما بابه العبادة، أو العادة بقوله: رأيت رسول الله ﷺ يفعله، والآثار في هذا أعظم من أن نحيط بها، لكنه يعلم من مجموعها على القطع اتباعهم أفعاله واقتداؤهم بها، ولو جوزوا عليه المخالفة في شيء منها لما اتسق هذا، ولنقل عنهم، وظهر بحثهم عن ذلك "[٢٤٨] .

لا جرم أن الصغائر- غير الخسية تختلف في أعيانها، وأشخاصها، وتتفاوت مراتبها بحسب ما يستتبعها من ملامة ونقص، فليس النقص الذي يلحق بالقبلة- مثلاً- كالنقص الذي يلحق بالنظرة- وحاشا الأنبياء من ذلك كله- ولا واحدة منهما كخطرة تمر بالقلب، لا يصدقها القول أو الفعل، بل تجفل النفس عنها قبل أن تظلها، وينفر القلب منها قبل أن تترل بساحته فيبقى القلب الشريف الطاهر بعيداً عنها مترهاً منها، طاهراً نقياً لم تترل به دغادغ اللمم ولا رفت عليه هبات الهنات .

توافر وسائل الرواية على عصمة النبي ﷺ من جميع الذنوب

وحيث لم يعلم عنه ﷺ الإلمام بصغيرة ولا الدنو من شيء منها، مع أن سبل النقل عنه ﷺ أحصت كل حركة من حركاته، وكل قول من أقواله،

---

[٢٤٦] أي أنهم- ﷺ- لا يفرقون بين أقواله، وأفعاله في الاتباع فهي كلها محل قربة لله تعالى .

[٢٤٧] أي في أشياء كثيرة .

[٢٤٨] الشفاء: للقاضي عياض [٢: ١٢٦، ١٢٧] .

فما ترك الصحابة- ﷺ- فعلا من أفعاله ولا قولا من أقواله دق أو جل إلا نقلوه إلينا عنه، حتى إنهم وصفوا يقظته ونومه،كما وصفوا حديثه وصمته، وقيامه وجلوسه، وسيره وركوبه وترجله، وجميع شمائله إلى غير ذلك مما هو مدون في كتب الحديث والشمائل والمغازي والسير لأنهم كانوا يرون ذلك تبليغاً عنه، وقد أمرهم ﷺ بالتبليغ عنه بقوله ﷺ « ليبلغ الشاهد الغائب فإن الشاهد عسى أن يبلّغ من هو أوعى له منه »[٢٤٩]، وبقوله ﷺ لعبد الله ابن عمرو: « اكتب فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه[٢٥٠] إلا حق »[٢٥١].

فلو رأى الصحابة- ﷺ- أو سمعوا منه شيئاً مما أجازه عليه بعض أهل العلم- عليه الصلاة والسلام- من قربه الصغائر، وحاشاه من ذلك- لما فاتهم نقل ذلك عنه ضمن ما نقلوا من أقواله، وأفعاله، وتقريراته، وصفاته.

ولكنهم- ﷺ- لم ينقلوا عنه شيئاً من ذلك- فيما علمنا- ولو رأوا منه شيئاً من ذلك أو علموه عنه لنقلوه إلينا، وعلم عنهم لتوافر دواعي النقل عليه .

---

[٢٤٩] رواه البخاري في صحيحه [١: ٢٦]، ومسلم [٢: ٩٨٨] وأصحاب السنن .

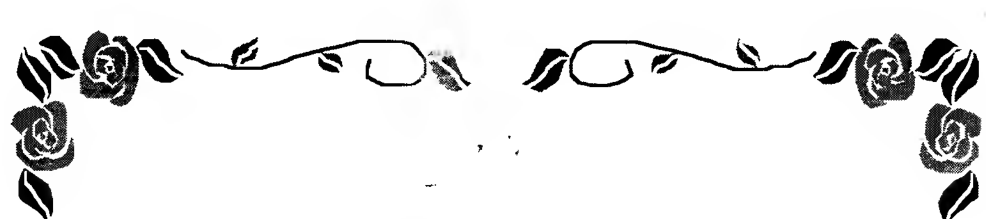
[٢٥٠] الضمير في قوله (منه) يعود على الفم الطاهر فم رسول الله ﷺ، وقد سبق في الحديث « فأومأ بأصبعه إلى فيه فقال اكتب ... الخ » .

[٢٥١] سنن أبي داود [٣: ٣١٨]، سنن الدارمي [١: ١٢٥]، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر [١: ٨٥] .

فالقول بعصمة الأنبياء عليهم الصلاة والسلام من جميــع الــذنوب كبيرها وصغيرها، سرها وجهرها، عمدها وسهوها، هو مــا نــدين الله تعــالى بــه، ونرجو مثوبته من الله ﷻ .

وما ثبت في حق نبينا محمد ﷺ من العصمة عن صغائر الذنوب عمداً وسهواً يثبت لغيره من الأنبياء والمرسلين إذ لا قائل بالفرق .

*****

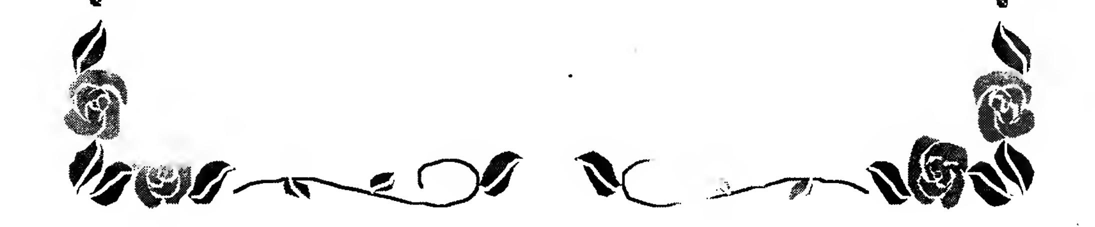


الباب الثاني

الاجتهاد

١- تعريفه لغة واصطلاحاً .

٢- اجتهاد النبي ﷺ . وعرض أقوال العلماء في هل كان للرسول ﷺ - وهو الذي يتلقى الوحي من الله تعالى - حق الاجتهاد فيما لم ينزل عليه فيه وحي أو ليس له ذلك ؟



تعريف الاجتهاد لغة

أصل مادة (جهد) ترجع إلى المشقة، قال الأزهري في تهذيب اللغة: " الجهد: بلوغك غاية الأمر الذي لا تألو عن الجهد فيه تقول: جهدت جهدي، واجتهدت رأيي ونفسي حتى بلغت مجهودي "[١] .

وعلى ذلك يكون معنى الاجتهاد لغة هو " بذل الوسع في طلب الأمر، وهو افتعال من الجهد- أي- الطاقة[٢] . ومنه حديث معاذ ﷺ حين بعثه رسول الله ﷺ إلى اليمن فقال: « كيف تقضي ؟ » فقال: اقضي بما في كتاب الله، قال: « فإن لم يكن في كتاب الله ؟ » قال: فبسنة رسول الله ﷺ، قال: « فإن لم يكن في سنة رسول الله ﷺ ؟ » قال: اجتهد رأيي - وفي رواية أبي داود « اجتهد رأيي ولا آلو »- قال: « الحمد لله الذي وفق رسول رسول الله ﷺ »[٣].

[١] تهذيب اللغة: للأزهري [٦: ٣٧] مطابع سجل العرب .

[٢] النهاية: لابن الأثير [١: ٣١٩] لسان العرب مادة (جهد) .

[٣] سنن الترمذي [٣: ٦٠٧] تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، سنن أبي داود [٣: ٣٠٣] تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد . الفقيه والمتفقه لأحمد بن علي الخطيب البغدادي، المجلد الأول (ص١٨٨- ١٨٩) دار إحياء السنة النبوية، ط/عام ١٣٩٥هـ.

تعريف الاجتهاد اصطلاحا

أما الاجتهاد في الاصطلاح فقد اختلفت عبارات الأصوليين في تعريف الاجتهاد اصطلاحاً اختلافاً يرجع إلى معنى واحد، هو ما قاله ابن الحاجب في مختصره، وقاربه الكمال بن الهمام في التحرير .

ونص عبارة ابن الحاجب التي نرى أنها أدت حق التعريف باعتباره تعريفاً جامعاً مانعاً هو قوله: " الاجتهاد: بذل الفقيه الوسع في تحصيل ظن بحكم شرعي "[٤] .

وبهذا تظهر نسبة التعريف الاصطلاحي للتعريف اللغوي والعلاقة بينهما من جهة عموم التعريف اللغوي، وخصوص التعريف الاصطلاحي وجهة العموم الجامعة بينهما هي استفراغ الوسع في تحصيل شيء .

وإذا نظرنا في المعنى الاصطلاحي رأيناه ينصب على اجتهادات فقهاء الأمة بجميع مداركها من النظر في النصوص كتاباً وسنة ، وفي القياس

---

[٤] مختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب بشرح العضد [٢: ٢٨٩]، المطبعة الكبرى عام ١٣١٧هـ، وانظر أيضاً في تعريف الاجتهاد التحرير لابن الهمام (ص٥٢٣)، مسلم الثبوت وشرحه [٢: ٣٦٢]، اللمع: للشيرازي (ص٩٠)، جمع الجوامع (ضمن مجموع مهمات المتون)(ص١٩٢)، المستصفى: للغزالي [٢: ٣٥٠]، كشف الأسرار [٤: ١٤]، الأحكام: للآمدي [٤: ١٤١]، شرح تنقيح الأصول (ص٤٢٩)، روضة الناظر وشرحها نزهة الخاطر (ص٤٠١)، إرشاد الفحول (ص٢٥٠)، شرح الأسنوي على المنهاج [٣: ١٩١]، البدخشي على المنهاج [٣: ١٩١]، المدخل إلى مذهب الإمام أحمد (ص١٧٩) .

والإجماع وغيرهما من مدارك الاجتهاد .

فهل هذا المعنى ينطبق على اجتهادات الرسول ﷺ ؟

والجواب عن هذا السؤال يتطلب الرجوع إلى النظر في الحوادث والوقائع التي ثبت فيها اجتهاد للنبي ﷺ .

وهذه الوقائع مرجعها إلى بذل الجهد الخاص منه ﷺ فيما تقتضيه المصلحة في دائرة النصوص العامة .

الفرق بين اجتهاد النبي ﷺ واجتهاد علماء أمته

والفرق بين اجتهاد النبي ﷺ، واجتهاد علماء أمته أن اجتهاد علماء الأمة يعتمد على:

١- النظر في النصوص من جهة الخصوص والعموم، والإطلاق والتقييد، والإبهام والتفسير، والإجمال والتفصيل، والناسخ والمنسوخ، والظاهر وغير الظاهر، والحقيقة والمجاز ... الخ .

٢- وجود أصل منصوص عليه، فيه علة جامعة غير معارضة، وهذه العلة موجودة في محل غير منصوص عليه، فيحمل غير المنصوص عليه، على المنصوص عليه في حكمه الشرعي بهذه العلة الجامعة، وهو المعروف عندهم بالقياس .

أما الإجماع- وهو اتفاق المجتهدين من أمة محمد ﷺ بعد وفاته في عصر من العصور على حكم شرعي في أمر من الأمور- فهو أصل لإدراك الأحكام في اجتهادات علماء الأمة يعتمد على دليل قد يظهر، وقد يخفى .

أما اجتهاد الرسول ﷺ فلا يحتاج إلى النظر في النصوص من الجهات التي احتاج إليها علماء أمته، لأن النصوص جميعها بينة له ﷺ من جميع هذه

الجهات وغيرها .

وأما ما يظهر- في بعض اجتهاداته ﷺ- أنه من قبيل القياس فالحمل فيه لتقريب فهم الحادثة المسئول عنها أو المخبر بها ولفتح باب الاجتـــهاد لعلماء أمته ﷺ- المؤهلين له، لا لاستنباط الحكم بالنظر في النصوص .

*****

اجتهاد النبي ﷺ

اختار الله سيدنا محمداً ﷺ رسولاً إلى خلقه ختم به الرسالات الإلهية، وكلفه تبليغ شرعه إلى عباده، وعهد إليه بتبيين ما نزل إلى الناس من ربهم فهو ﷺ المبلغ عن الله تعالى وإليه- في حياته المباركة- يتوجه المسلمون طالبين معرفة حكم ما ينوبهم من أمر سواء كان أمراً يتعلق بالعبادات وكيفياتها، أم كان مما يعرض لهم في حياتهم اليومية من مسالك ينظمون بها مصالحهم، وتعاملهم، فيما بينهم وبين غيرهم، أم فيما يحتكمون إليه ﷺ فيما قد ينشأ بين بعضهم من منازعات، فهو ﷺ المرجع لهم في الأمر كله بعد الله تعالى، وعنه تؤخذ جميع الأحكام والشرائع، إذ هو وحده مصدر العلم بأحكام الله تعالى ومقاصد الشريعة ومصالح العباد .

وكانت الوقائع والحوادث بين الناس تتوالى، وكانت الأحكام تترل على حسب الحاجة، والمصالح والحكمة الإلهية، فهل كانت الأحكام التي تترل على رسول الله ﷺ بطريق الوحي رداً على سؤال سئله رسول الله ﷺ أو تأسيساً لحكم من أحكام الشريعة سادة للحاجة الوقتية التي يتطلبها جو الوقائع ؟ أو كان الرسول ﷺ يرى أن يجيب سائلاً عن سؤاله أو يخبر بحكم اجتهاداً منه ﷺ ؟

من هنا يبرز سؤال هو: هل كان يجوز للرسول ﷺ- وهو الذي يتلقى الوحي من الله تعالى- أن يجتهد فيما لم يترل عليه به وحي أو ليس له ذلك ؟ .

اختلف العلماء في جواب هذا السؤال اختلافاً منتشراً ..

فقالت طائفة: لا يجوز للرسول ﷺ أن يحكم بالاجتهاد أي أن الله تعالى لم يأذن لرسوله ﷺ في الاجتهاد[٥] في بيان أحكام الحوادث التي لم يترل عليه فيها وحي ولا تعبده الله به .

وهذا القول منسوب إلى بعض الشافعية[٦]،وإلى بعض الحنابلة[٧]ومنهم أبو حفص العكبري[٨]، وإلى الأشاعرة، وأكثر المعتزلة[٩] .

وفي نسبة القول بمنع اجتهاد الرسول ﷺ مطلقا إلى عموم الأشاعرة نظر، وذلك أنا نجد في كتب الأصوليين، والمتكلمين منهم ما هو صريح في إثبات القول بجواز الاجتهاد للرسول ﷺ والدليل على ذلك ما جاء في منهاج البيضاوي وشروحه، وما جاء في جمع الجوامع لابن السبكي وشروحه وحواشيه، وما جاء في كشف الأسرار والتحرير وشرحه، والمسامرة[١٠] بشرح المسايرة، وشرح العقائد للسعد وغيرها من كتب الأشاعرة الأصولية والعقيدية .

---

[٥] شرح الأسنوي على المنهاج [٣: ١٩٤] المسودة: لآل تيمية (ص٥٠٦) اللمع: للشيرازي (ص٩٠) .

[٦] نفس المرجعين السابقين الأخيرين .

[٧] المسودة (ص٥٠٦، ٥٠٧) .

[٨] هو عمر بن إبراهيم بن عبد الله [٠٠ - ٣٨٧هـ] .

[٩] مسلم الثبوت وشرحه [٢: ٣٦٦]، (بهامش المستصفى)، المسودة (٥٠٧)، تيسير التحرير [٤: ١٨٥] .

[١٠] المسامرة (ص٢٣٥) .

وهؤلاء كلهم أشاعرة، وقد أثبتوا جواز الاجتهاد لرسول الله ﷺ ووقوعه منه ودللوا على ذلك في كتبهم، فالظاهر أن نسبة المنع للأشاعرة محمولة على بعضهم

كما أن في نسبة القول بمنع الرسول ﷺ من الاجتهاد فيما يتعلق بأمر الشرع إلى أبي حفص العكبري نوعاً من التجوز إذ أنه قد اختار هو وشيخه ابن بطة[١١]- فيما نقله عنهما ابن أبي يعلى[١٢] في طبقات الحنابلة- أنه " كان يجوز لنبينا صلوات الله وسلامه عليه الاجتهاد فيما يتعلق بأمر الشرع "[١٣] .

قال في المسودة- لآل تيمية- : " قال شيخنا: قال ابن بطة: فيما كتب به إلى ابن شاقلا في جوابات مسائل، وقال: والدليل على أن سننه وأوامره ﷺ قد كان فيها بغير وحي وأنها كانت بآرائه واختياره أنه عوتب على بعضها ولو أُمِر بها لما عوتب عليها، فمن ذلك: حكمه في أسارى بدر وأخذه الفدية، وإذنه في غزوة تبوك للمتخلفين بالعذر حتى تخلّف من لا عذر له، ومنه قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾[١٤] فلو كان وحياً لم يشاورهم فيه "[١٥] .

---

[١١] هو عبيد الله بن محمد (٣٠٤- ٣٨٧هـ) من علماء الحديث وفقهاء الحنابلة .

[١٢] هو محمد بن محمد بن الحسين (٤٥١- ٥٢٦هـ) .

[١٣] طبقات الحنابلة [٢: ١٦٣] .

[١٤] سورة آل عمران: آية ١٥٩ .

[١٥] المسودة في أصول الفقة: لآل تيمية (٥٠٧- ٥٠٨) .

أدلة المانعين لاجتهاد الرسول ﷺ

وقد استدل القائلون بعدم جواز الاجتهاد للرسول ﷺ في بيان أحكام الحوادث التي لم ينزل عليه بها وحي بأدلة نقلية، وأخرى عقلية .

أما الأدلة النقلية فهي:

١- قوله تعالى: ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ ۝ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ﴾[١٦] .

ووجه الاستدلال به هو أن الله تعالى أخبر أن رسول الله ﷺ لا ينطق إلا عن وحي، والحكم الصادر عن اجتهاد لا يكون وحياً- لاحتمال الخطأ فيه- فيكون داخلاً تحت النفي[١٧] .

ورد بأن الآيتين الكريمتين رد وإبطال لما كان يزعمه الكفار من أن محمداً ﷺ كان يفتري القرآن من عند نفسه، وقد حكى الله تعالى قولهم ذلك بقوله: ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ إِفْكٌ ٱفْتَرَىٰهُ وَأَعَانَهُۥ عَلَيْهِ قَوْمٌ ءَاخَرُونَ ﴾[١٨] وليس عاماً في كل ما ينطق به الرسول ﷺ والتخصيص واقع قطعاً بما ينطق به النبي ﷺ في غير الأحكام الشرعية فالعموم باطل .

وعلى فرض أنه عام في جميع ما ينطق به الرسول ﷺ فليس فيه إثبات لدعواهم أيضاً، لأن اجتهاد الرسول ﷺ وما يستند إليه كله وحي وليس

---

(١٦) سورة النجم: آية ٣، ٤ .

(١٧) كشف الأسرار [٣: ... ر التحرير [٤: ١٨٨] وغيرهما من كتب الأصول .

(١٨) سورة الفرقان: آية ٤ .

نطقاً عن الهوى، وإنما هو اتباع للوحي المأذون له فيه بالاجتهاد(١٩) .

٢- واستدلوا أيضاً بقولـــه تعـــالى: ﴿ قُلْ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنْ أُبَدِّلَهُۥ مِن تِلْقَآيِٕ نَفْسِيٓ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾(٢٠) .

ووجه الاستدلال به أن هذه الآية الكريمة نفت عن رسول الله ﷺ أن يكون له حق تبديل ما يلقى إليه من ربه، ونصت على أنه ﷺ لا يتبع إلا ما يوحى إليه" وهذا يدل على أنه لم يحكم قط بالاجتهاد "(٢١)إذ الاجتهاد ليس وحياً، فالأخذ به تبديل لأحكام الله تعالى، واتباع لما لم يوح إليه " .

ورد هذا بأن الآية الكريمة رد على قول الكـــافرين لرســـول الله ﷺ - على سبيل التعجيز له فيما حكاه الله تعالى عنهم وكما هو ظاهر مـــن سياق هذه الآية- ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾(٢٢) فهي ليست في منع الاجتهاد بل في بيان أن ما طلبوه ليس من شأن الرسول ﷺ إجابته، لأنه إن أريد بالتبديل تغيير نظام القرآن الكريم بوضع آية رحمة مكان آية عذاب أو العكس أو إسقاط عيب الآلهة، وذم عبادها منه-كما أراده المتعنتون من المشركين- فهذا افساد لنظام القرآن الكريم، وهو كفر معصوم منه الرسول ﷺ قطعاً .

---

(١٩) الكشاف عن حقائق التتريل: للزمخشري [٤: ٢٨] بتصرف، مطبعة الحلبي بمصر عام ١٣٨٥هـــ

(٢٠) سورة يونس: آية ١٥ .

(٢١) التفسير الكبير: للفخر الرازي [١٧: ٥٦] .

(٢٢) سورة يونس: آية ١٥ .

وإن أريد بالتبديل النسخ فهذا لا يكون باجتهاد الرسول ﷺ، وإنما هو من الله تعالى و" الاجتهاد ليس تبديلاً بل هو اتباع للوحي "[٢٣] .

وأيضاً ليس في قوله تعالى: ﴿ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّ ﴾ دليـــل لهـــم في نفي عمله ﷺ بالاجتهاد، لأن الإذن له ﷺ بالاجتهاد داخل تحت مـــا يوحى إليه .

٣- ومما استدلوا به قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ﴾[٢٤]، ووجه الاستدلال به أنه صريح في نهي الرسول ﷺ أن يقفو ويتبع ما ليس له به علم، والاجتهاد لا يعتمد على يقين الوحي فهو لذلك قفو، واتباع لما ليس له به علم، وهذا خلاف منطوق الآية الكريمة .

ورد هذا بأن اجتهاد الرسول ﷺ مأذون له فيه وما أذن لـــه فيـــه لا يكون قفوا ولا اتباعا لما ليس له به علم .

واستدلوا لما ذهبوا إليه عقلاً فقالوا:

١- أن الاجتهاد عمل بالظن ، والنبي ﷺ قادر على تحصيل الـــيقين مـــن الوحي في الأحكام، ومن كان قادراً على اليقين لا يجوز له المصير إلى الظن[٢٥] .

---

[٢٣] الفكر السامي في تاريخ الفقة الإسلامي: للحجوي [١: ٥٦] .

[٢٤] سورة الإسراء: آية ٣٦ .

[٢٥] الأحكام للآمدى [٤: ١٤٧]، تيسير التحرير [٤: ١٨٩]، إرشاد الفحول (ص٢٥٥)، شرح العضد [٢: ٢٩٢]، المسودة: لآل تيمية (ص٥٠٩) .

ورد هذا بأن الادعاء أن الرسول ﷺ قادر على تحصيل اليقين بالوحي ممنوع لأنه ﷺ، لا يستطيع أن يتحكم في الوحي" باستدعائه "[٢٦]- الذي يكون به اليقين- متى شاء .

٢- لو كان الرسول ﷺ عاملاً بالاجتهاد لما أخر جواباً احتاج الناس إليه، ولما انتظر الوحي، لكنه انتظر الوحي في بعض الوقائع، كما في الظهار، واللعان فدل على أن ليس له حق الاجتهاد[٢٧].

ورد هذا بعدم تسليم أن النبي ﷺ أخر جواباً سئل عنه .

والاستدلال على هذا بدعوى تأخير الجواب في مسألتي اللعان والظهار مردود بما ثبت أنه عليه الصلاة والسلام أجاب على الفور في مسألة الظهار فقال لخولة بنت ثعلبة « ما أراك إلا قد حرمت عليه و لم أومر في شأنك بشيء »[٢٨]. وفي رواية « ما أعلمك إلا قد حرمت عليه »[٢٩].

وقال في مسألة اللعان لهلال بن أمية- كما في الصحيح: « البينة أو حد في ظهرك»[٣٠] فنزل القرآن الكريم بحكمي اللعان والظهار فكان حكم الظهار ناسخاً لحكم الاجتهاد النبوي الشريف في قوله ﷺ: « ما أراك إلا قد حرمت عليه و لم أومر في شأنك بشيء » .

---

[٢٦] روح المعاني: للألوسي [٧: ١٥٦] .
[٢٧] الأحكام: للأمدي [٤: ١٤٧]، تيسير التحرير [٤: ١٨٩]، المستصفى: للغزالي [٢: ٣٥٦]، الأسنوي على المنهاج [٣: ١٩٣] .
[٢٨] بدائع الفوائد: لابن قيم الجوزية [١: ١٣] .
[٢٩] تفسير ابن كثير [٤: ٣٢٠] .
[٣٠] صحيح البخاري [٣: ٢٣٣] .

وكان حكم اللعان مخصصاً لعموم آية حد قذف المحصن الذي جاء في قوله تعالى ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا﴾ بمن عدا رمي الزوج لزوجته الذي شرع له اللعان .

قال ابن قدامة في المغني: " أنه لا لعان بين غير الزوجين.. وذلك لأن الله تعالى قال ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً﴾ ثم خص الزوجات من عموم هذه الآية بقوله ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ﴾ ففيما عداهن يبقى على قضية العموم "[٣١].

ودعوى أن الرسول ﷺ قال لخولة ما قال ".تقريراً لما كان عليه أمر الجاهلية "[٣٢] دعوى باطلة لا يليق أن تذكر في اجتهاد رسول الله ﷺ .

على أنه لو ثبت- جدلاً- أنه عليه الصلاة والسلام أخر الجواب في بعض ما سئل عنه لكان تأخيره من باب الترقب للوحي في جزئيات يرى ﷺ- باجتهاده- أن تأخير الاجتهاد فيها لا يفوت مصلحة كما في مسألتي الظهار واللعان لو صح أنه أخر الجواب فيهما .

وقال جمهور العلماء: يجوز للرسولﷺ أن يحكم باجتهاده فيما لم يوح إليه فيه[٣٣]، بمعنى أن الله تعالى قد أذن للرسول ﷺ في بيان بعض الأحكام

---

[٣١] المغني: لابن قدامة [٨: ٥٣] تحقيق طه الزيني، ط، الفجالة عام١٣٨٩هـ.

[٣٢] الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي: للحجوي، ط، ادارة المعارف بالرباط ومطبعة بلدية فاس عام ١٣٤٥هـ .

[٣٣] المسودة (ص٥٠٧)، كشف الأسرار [٣: ٢٠٥]، التحرير وشرحه =

الشرعية والأمور الدينية وغيرها من المصالح التي لم يترل عليه بها وحي .

بيد أن جمهور الحنفية قيدوا هذا الجواز بانتظار الوحي ما لم يخش فوت الحادثة على غير الوجه الشرعي فإن خاف الفوت فله الاجتهاد فيها[٣٤] وقال الإمام أبو يوسف[٣٥] من الحنفية بقول الجمهور دون اشتراط القيد المذكور في قول الحنفية[٣٦] .

والإطلاق في جواز الاجتهاد للرسول عليه الصلاة والسلام بمعنى الإذن له في بيان حكم بعض الحوادث- التي لم يوح إليه فيها شيء- باجتهاده ﷺ هو مذهب عامة الأصوليين والفقهاء الإمام مالك والشافعي وأحمد وأتباعهم – رحمهم الله تعالى- ومذهب جمهور أهل الحديث[٣٧] .

= [٤: ١٨٥]، شرح النووي على صحيح مسلم [١: ١٤١]، إرشاد الفحول (ص٢٥٦)، المستصفى [٢: ٣٥٥]، مسلم الثبوت وشرحه [٢: ٣٦٦]، الأحكام للأمدي [٤: ١٤٣] .

[٣٤] كشف الأسرار [٣: ٢٠٥]، التحرير وشرحه [٤: ١٨٢]، مسلم الثبوت وشرحه [٢: ٣٦٦] .

[٣٥] هو يعقوب بن إبراهيم (١١٣- ١٨٢هـ) بن حبيب الأنصاري الكوفي صاحب الإمام أبي حنيفة وتلميذه وأول من نشر مذهبه .

[٣٦] كشف الأسرار [٣: ٢٠٥]، تيسير التحرير [٤: ١٨٥] .

[٣٧] كشف الأسرار [٣: ٢٠٥]، تيسير التحرير [٤: ١٨٥]، المسودة (ص٥١٠)، أحكام الأمدي [٤: ١٤٣]، منهاج البيضاوي وشرحه للبدخشي [٣: ١٩٢] وغيرها .

أدلة الجمهور على جواز اجتهاد الرسول ﷺ

وقد استدل الجمهور لجواز عمل الرسول ﷺ بالاجتهاد في الأحكام الشرعية والأمور الدينية والحروب بالكتاب والسنة والمعقول .

أما أدلتهم من الكتاب فنورد منها ما يلي:

١- قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾(٣٨) ووجه الاستدلال به أن المشاورة إنما تكون فيما يحكم فيه بطريق الاجتهاد إذ لا مشاورة فيما نزل به الوحي(٣٩) .

ولا ريب أن الأمر بالمشاورة أمر له بالاجتهاد لاستظهار آراء من معه من المؤمنين ليختار منها باجتهاده ما يراه ﷺ موافقاً للمصلحة وهذا هو الاجتهاد المطلوب .

وقول من قال إن الآية واردة في الحروب لا يمنع من ثبوت الاجتهاد له ﷺ بها إذ الحروب جهاد في سبيل الله وهي أحكام شرعية فالاجتهاد فيها يقتضي جواز الاجتهاد في غيرها إذ لا فارق .

٢- قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنكُمْۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِي شَيْءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأٓخِرِۚ ذَٰلِكَ خَيْرٞ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾(٤٠) ووجه الاستدلال بهذه الآية

---

(٣٨) سورة آل عمران: آية ١٥٩ .

(٣٩) الأحكام للآمدي [٤: ١٤٤]، المسودة (ص٥٠٨) .

(٤٠) سورة النساء: آية ٥٩ .

الكريمة في موضعين:-

أولاً_ أن الله تعالى أمر فيها بطاعته وطاعة رسوله، وطاعة الله تعـالى إنما تكون بامتثال جميع ما نزل به وحيه على الرسول ﷺ .

وطاعة الرسول عليه الصلاة والسلام إنما تكون بامتثال كل حكم يخبر به سواء كان عن وحي أو عن اجتهاد وإلا لم يكن لتخصيـص الأمـر بطاعة الرسول ﷺ بعد الأمر بطاعة الله فائدة في الذكر .

قال ابن قيم الجوزية(٤١)- رحمه الله تعالى- تعليقاً على هـذه الآيـة الكريمة في كتابه أعلام الموقعين: " أمر الله تعالى بطاعته وطاعـة رسـوله وأعاد الفعل إعلاماً بأن طاعة الرسول ﷺ تجب استقلالا من غير عرض ما أمر به على الكتاب، بل إذا أمر وجبت طاعته مطلقاً سواء كان ما أمر به في الكتاب أو لم يكن فيه، فإنه أوتي الكتاب ومثله معه "(٤٢) .

وقال صاحب تفسير المنار(٤٣) في عرضه لهذه الآية الكريمة: " ... إن إعادة كلمة (أطيعوا) تدل على تغاير الطاعتين كأن تجعل الأولى طاعـة ما نزل الله من القرآن، والثانية طاعة الرسول فيما يأمر به باجتهاد "(٤٤) .

---

(٤١) هو محمد بن أبي بكر بن سـعد الدمـشقي (٦٩١- ٧٥١هـ) والجوزيـة مدرسة كان أبوه قيماً عليها .

(٤٢) أعلام الموقعين عن رب العالمين: لابن قيم الجوزيـة [١: ٥٠] تحقيـق عبـد الرحمن الوكيل، مطبعة المدني عام ١٣٨٩هـ .

(٤٣) هو السيد رشيد رضا .

(٤٤) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار: لمحمد رشـيد رضـا [٥: ٢٢٠- ٢٢١] دار المعرفة، بيروت، لبنان .

وتخصيص طاعة الرسول ﷺ فيما يأمر به باجتهاده لا يتم إلا بضميمة طاعته ﷺ فيما أوحي إليه وحياً غير متلو إلى قوله" كأن تجعل طاعة ما نزل من القرآن .. الخ " ليكون شاملاً لجميع أنواع الوحي المتلو وغير المتلو .

ثانياً_ أن الله تعالى أمر في هذه الآية الكريمة المتنازعين في شيء بالرد إلى الله وإلى الرسول . والرد إلى الله رد إلى وحيه المنزل على الرسول ﷺ سواء أكان متلواً- وهو القرآن الكريم- أم غير متلو وهو وحي السنة المطهرة .

والرد إلى الرسول يقتضي أن يكون الأمر المردود إليه غير داخل في الوحي وإلا لزم التكرار، والذي لا يدخل في الوحي وتجب طاعة الرسول ﷺ فيه هو ما أمر به باجتهاده . وهو الاجتهاد المطلوب .

٣- قوله تعالى ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ﴾ ووجه الاستدلال به أن الله تعالى قد سوى بين الرسول ﷺ وبين أولي الأمر- وهم العلماء- في الاستنباط فلو لم يكن الاجتهاد جائزاً للرسول ﷺ لثبت لغيره من مجتهدي أمته فضيلة ليست له وهذا ممنوع .

٤- قوله تعالى ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ وَإِن تُعْرِضْ عَنْهُمْ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيْـًٔا وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾[٤٥] ووجه الاستدلال به من ناحيتين:

---

[٤٥] سورة المائدة: آية ٤٢ .

الأولى: أن الله تعالى جعل الرسول ﷺ بالخيار في الحكم بينهم فإن شاء حكم وإن شاء أعرض و لم يحكم أي أن الأمر مفوض إليه ﷺ فـإن رأى - باجتهاده- مصلحة وحسن قبول منهم لحكمه حكم بينهم وإلا أعرض عنهم ولا ضرر عليه منهم .

الثانية: أن تقييد أمره بالحكم بينهم (بالقسط) يشعر بزيادة تنبيهه ﷺ على تحري الصواب فيما يحكم به وهو دليل على أن الله تعالى أذن له أن يحكم بينهم باجتهاده لأنه لو كان الحكم بالوحي لم يكن لهذا القيد فائدة بالنسبة للرسول ﷺ لأنه لا يحكم إلا بالقسط .

٥- قوله تعالى ﴿فَٱعۡتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَبۡصَٰرِ﴾(٤٦) ووجه الاستدلال به أن الآية الكريمة أمر عام بالاعتباز لأهل البصائر، والنبي ﷺ أعظم الناس بصيرة وأصوبهم رأياً وأحسنهم استنباطاً فكان داخلاً في العمـوم ومـأموراً بالتأمل والاعتبار(٤٧) .

والاعتبار- عند الأصوليين- هو النظر في علة الحكم المنصوص عليـه وتعديتها إلى غير المنصوص عليه للتسوية بينهما في الحكم بمقتضى هـذه العلة، قال الفخر الرازي: قال المفسرون " الاعتبار هو النظر في حقـائق الأشياء وجهات دلالتها ليعرف بالنظر فيها شيء آخر من جنسها "(٤٨)، وهذا النظر هو الاجتهاد .

---

(٤٦) سورة الحشر: آية ٢ .

(٤٧) كشف الأسرار [٣: ٢٠٦]، الأحكام للآمدي [٤: ١٤٤] .

(٤٨) التفسير الكبير [٢٩: ٢٨٢] .

أدلتهم من السنة

وأما ما استدلوا به من السنة المطهرة فوقائع من اجتهاداته ﷺ وهي كثيرة جداً نذكر أمثلة منها .

فمن اجتهاداته ﷺ ما صدر على صورة القياس ومن هذا النوع:

١- ما روى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن امرأة جاءت إلى النبي ﷺ فقالت: إن أمي نذرت أن تحج فماتت قبل أن تحج أفأحج عنها ؟ قال: « نعم حجي عنها، أرأيت لو كان على أمك دين أكنت قاضيته ؟ » قالت: نعم قال: « فاقضوا الذي له، فإن الله أحق بالوفاء »[٤٩] .

ووجه الاستدلال بالحديث أنه" ﷺ اعتبر دين الله بدين العباد وذلك بيان بطريق القياس "[٥٠] أي أنه ﷺ أجابها عما سألت " وضرب لها المثل ليكون أوضح وأوقع في نفسها، وأقرب إلى سرعة فهمها "[٥١] .

٢- ومن هذا النوع أيضاً إجابته ﷺ عمر بن الخطاب حين قبل عمر امرأته وهو صائم فظن أنه فعل أمراً عظيماً . قال عمر بن الخطاب ﷺ: " هششت[٥٢] يوماً فقبلت وأنا صائم فأتيت النبي ﷺ فقلت:

---

[٤٩] صحيح البخاري [٩: ١٢٥- ١٢٦]، وفي مسلم أنها سألته عن قضاء الصوم عن أمها، مسلم [٢: ٨٠٢] .

[٥٠] كشف الأسرار [٣: ٢٠٧] .

[٥١] فتح الباري [٤: ٦] بتصرف .

[٥٢] هششت: نشطت .

صنعت اليوم أمراً عظيماً فقبلت وأنا صائم فقال رسول الله ﷺ: « أرأيت لو تمضمضت بماء وأنت صائم ؟ » قلت:" لا بأس بذلك " فقال رسول الله ﷺ: « ففيم ؟ »[٥٣] .

" أي ففيم تسأل "[٥٤] قال الخطابي:" فإذا كان أحد الأمرين منهما غير مفطر للصائم فالآخر بمثابته "[٥٥]، " فقد اعتبر النبي ﷺ فيه مقدمة الجماع وهي القبلة بمقدمة الشرب وهي المضمضة في عدم فساد الصوم، وهو قياس ظاهر بل عدم الفساد في القبلة أظهر لأنها تهيج الشهوة ولا تسكنها والتمضمض يسكن شيئاً من العطش "[٥٦] .

وفي القول بأن " المضمضة مقدمة الشرب " بعض التجاوز والأحسن في القياس أن يقال القبلة قيست على المضمضة في عدم الأثر على الصوم .

---

[٥٣] رواه أبو داود [٢: ٣١١]، الدارمي [٢: ١٣]، مسند أحمد [١: ٢١٦، ٣١٣]، تحقيق أحمد محمد شاكر، مستدرك الحاكم [١: ٤٣١] وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي، وقال الحافظ في الفتح [٤: ١٥٢-١٥٣] " وصححه ابن خزيمة وابن حبان والحاكم "، الفقيه والمتفقه للبغدادي (ص١٩٢) الجزء الخامس من المجلد الأول، وقال النووي في شرح المهذب [٦: ٣٢١] " وإسناده صحيح على شرط مسلم " .

[٥٤] الفتح الرباني: للساعاتي [١٠: ٥٣] .

[٥٥] معالم السنن مع مختصر وتهذيب سنن أبي داود [٣: ٢٦٤] بتحقيق أحمد شاكر وحامد الفقي .

[٥٦] كشف الأسرار [٣: ٢٠٧] .

ومن اجتهاداته ﷺ ما كان النظر فيه إلى مقاصد الشريعة وتحقيق مصالح العباد، ومن هذا النوع اجتهاداته ﷺ في غزوة بدر الكبرى .

٣- أولاً: قبل المعركة .

(أ) نزوله ﷺ بالجيش في مكان رأى فيه- باجتهاده مصلحة حربية اقتضت عنده عليه الصلاة والسلام النزول بالجيش فيه .

(ب) قبوله ﷺ رأي الحباب بن المنذر أن هذا المكان ليس منزل رأي وحرب ومكيدة .

وذلك بعد أن سأل الحباب رسول الله ﷺ عن منزله الذي هو فيه بقوله:" يا رسول الله أرأيت هذا المنزل أمنزلاً أنزلكه الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه أم هو الرأي والحرب والمكيدة ؟ " قال: « بل هو الرأي والحرب والمكيدة » قال: " يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل فامض بالناس حتى نأتي أدنى ماء من القوم فننزله ثم نغوِّر[٥٧] ما وراءه من القُلُب[٥٨] ثم نبني عليه حوضاً فنملأه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون "، فقال رسول الله ﷺ: « لقد أشرت بالرأي »[٥٩] .

---

[٥٧] نغور: أي ندفن الآبار ونذهب ماءها .

[٥٨] القلب: جمع قليب وهو البئر .

[٥٩] البداية والنهاية [٣: ٢٦٧]، عيون الآثار [١: ٢٥١]، جوامع السيرة لابن حزم (ص١١٢) تحقيق د/ إحسان عباس، د/ناصر الدين الأسد ومراجعة أحمد محمد شاكر، ط/دار المعارف بمصر، سيرة ابن هشام [٢: ٢٥٩] تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

٤- ثانياً: بعد المعركة .

وبعد انتهاء المعركة وإقامته ﷺ بعرصتها[٦٠] ثلاث ليال كما هي عادته عليه الصلاة والسلام حين يظهر على القوم[٦١] " انصرف رسول الله ﷺ وأصحابه مؤيدين منصورين قافلين إلى المدينة المنورة حتى إذا خرج من مضيق الصفراء[٦٢] نزل على كثيب بين المضيق وبين النازية[٦٣] يقال له - سير- إلى سرحة[٦٤] به فقسم هنالك النفل[٦٥] الذي أفاء الله على المسلمين من المشركين على السواء[٦٦]، وشاور رسول الله ﷺ أصحابه في الأسرى فقال: « ما تقولون في هؤلاء الأسرى ؟ »[٦٧] فقال أبو بكر: " يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والاخوان واني أرى أن تأخذ منهم الفدية فيكون ماأخذناه قوة لنا على الكفار وعسى أن يهديهم الله فيكونوا

---

[٦٠] عرصة المعركة: ساحتها وميدانها الذي جرت فيه .

[٦١] البخاري [٤: ٨٩]، [٥: ٩٧] .

[٦٢] قال الحموي في معجم البلدان [٣: ٤١٢]: " وادي الصفراء من ناحية المدينة.. وبينه وبين بدر مرحلة" .

[٦٣] النازية: كما قال الحموي في معجم البلدان [٥: ٢٥١]:" عين ثرة على طريق الآخذ من مكة إلى المدينة قرب الصفراء وهي إلى المدينة أقرب وإليها مضافة.. ونقل عن ابن الفرات: إنها رحبة واسعة فيها عضاة ومروخ "، وتقع اليوم على يمين الداخل إلى المسيجيد للذاهب إلى المدينة النبوية .

[٦٤] سرحة واحدة السرح وهو نوع من الشجر ما يزال يعرف بهذا الاسم .

[٦٥] النفل: بفتح الفاء هو: ما يفصل من المتاع ونحوه بعد ما تقسم الغنائم، مفردات الراغب (ص٥٠٣) .

[٦٦] البداية والنهاية [٣: ٣٠٥] .

[٦٧] صحيح مسلم [٣: ١٣٨٥]، البداية والنهاية [٣: ٢٩٧] .

لنا عضداً "[٦٨]، فقال رسول الله ﷺ: « ما ترى يا ابن الخطاب ؟ » فقال عمر بن الخطاب: " أخرجوك وكذبوك قربهم فاضرب أعناقهم[٦٩] فـإنهم أئمة الكفر[٧٠] وهؤلاء صناديدهم وقادتهم "[٧١] فدخل رسول الله ﷺ و لم يرد عليهم شيئاً .. ثم خرج عليهم فقال:" إن الله ليلين قلوب رجال فيـه حتى تكون ألين من اللبن وأن الله ليشد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وأن مثلك يا أبا بكر كمثل إبراهيم قال: ﴿فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٧٢] ومثلك يا أبا بكر كمثل عيـسى قـال: ﴿إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[٧٣] وأن مثلك يا عمر كمثل نوح قال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[٧٤] وأن مثلك يا عمر كمثل موسى قـال: ﴿رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ﴾[٧٥] ثم قال رسول الله ﷺ: «اليوم أنتم عالة فلا يفلتن أحد منهم إلا بفداء أو ضـرب عنق »[٧٦] .

---

[٦٨] نفس المرجعين السابقين .

[٦٩] البداية والنهاية [٣: ٢٩٧] .

[٧٠] نفس المرجع السابق .

[٧١] نفس المرجع السابق .

[٧٢] سورة إبراهيم: آية ٣٦ .

[٧٣] سورة المائدة: ١١٨ .

[٧٤] سورة نوح: ٢٦ .

[٧٥] سورة يونس: ٨٨ .

[٧٦] تحفة الأحوذي شرح جامع الترمـذي [٥: ٣٧٤]، البدايـة والنهايـة [٣: ٢٩٧] .

ووجه الاستدلال من الحديث على اجتهاد الرسول ﷺ في موضعين:

الموضع الأول: مشاورته أصحابه في شأن الأسرى والمشاورة لا تكون إلا فيما لم ينزل فيه وحي .

الموضع الثاني: حكمه ﷺ بعد استطلاع آراء أصحابه بأخذ الفداء .

والذي يدل على أن هذا الحكم باجتهاد منه ﷺ نزول قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ متضمناً الإخبار بمنع العذاب عنهم لسبق الكتاب بحل الغنائم- ومنها الفداء- لهم ولو كان ما أخذوه من الفداء بوحي من الله تعالى ما نزل ذلك .

على أنه لو نزل وحي- كما في حديث الترمذي وغيره- بإخبار النبي ﷺ بأنهم مخيرون بين أخذ الفداء ويقتل منهم مثلهم من قابل أو يقتل الأسرى ويسلم المسلمون[٧٧]- لا يعارض الاجتهاد لأن الاجتهاد حينئذ يكون في اختيار أحد الرأيين المخير بينهما وهو أخذ الفداء أو قتل الأسرى

٥- ومن اجتهاده ﷺ سوقه الهدي في حجة الوداع ورغبته أن لو لم يكن ساقه ليرفع المشقة عن أصحابه حين علم ما حل بهم من مشقة الاستمرار على الإحرام حتى انتهاء مناسك الحج . روى البخاري وغيره أن رسول الله ﷺ قال: « **لو استقبلت من أمري ما استدبرت ما أهديت** »[٧٨] .

---

[٧٧] سنن الترمذي(٤: ١٣٥) وعزاه الحافظ ابن حجر- في الفتح [٧: ٣٢٤]- إلى الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم وقال:" باسناد صحيح " .

[٧٨] صحيح البخاري [٢: ١٩٦]، صحيح مسلم [٢: ٨٧٩] .

ووجه الاستدلال منه على اجتهاده ﷺ في موضعين:

الموضع الأول: سوقه الهدي وهو قربة من القرب وأقل درجات القربة: الندب[٧٩] فهو حكم شرعي فعله باجتهاده إذ لم يعلم له نص يدل على طلبه .

الموضع الثاني: رغبته ﷺ حين علم ما حل بأصحابه من مشقة استمرارهم على الإحرام حتى انتهائهم من مناسك الحج أن لو لم يكن ساقه فيتمتع ليقتدي به أصحابه لتزول عنهم المشقة .

٦- ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما عن عائشة أم المؤمنين رضي الله تعالى عنها أن رسول الله ﷺ صلى ذات ليلة في المسجد فصلى بصلاته ناس ثم صلى من القابلة فكثر الناس ثم اجتمعوا من الليلة الثالثة أوالرابعة فلم يخرج إليهم رسول الله ﷺ فلما أصبحوا قال: « قد رأيت الذي صنعتم و لم يمنعني من الخروج إليكم إلا أني خشيت أن تفرض عليكم » وذلك في رمضان .[٨٠]

ووجه الاستدلال منه على اجتهاده ﷺ أنه" توقع أن يترتب على المواظبة على صلاة الليل جماعة فرضها عليهم"[٨١] كما هي واجبة عليه ﷺ" لأن الأصل في الشرع المساواة بين النبي ﷺ وبين أمته في العبادة "[٨٢] كما قال ابن بطال ما لم يدل دليل على الخصوصية فأداه اجتهاده عليه

---

[٧٩] تيسير التحرير [٤: ١٨٧] .

[٨٠] رواه البخاري [٢: ٦٣] .

[٨١] فتح الباري [٣: ١٣] بتصرف .

[٨٢] فتح الباري [٣: ١٣] .

الصلاة والسلام بسبب رحمته بهم إلى عدم الخروج إليهم والصلاة بهم خشية أن تفرض عليهم فيعجزوا عنها .

٧- ما رواه البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال:" بعثنا رسول الله ﷺ في بعث فقال: « إن وجدتم فلانا وفلانا فأحرقوهما بالنار » ثم قال رسول الله ﷺ حين أردنا الخروج: « إني أمرتكم أن تحرقوا فلانا وفلانا وإن النار لا يعذب بها إلا الله فإن وجدتموهما فاقتلوهما »(٨٣) .

ووجه الاستدلال منه أنه ﷺ أمرهم أولاً بحرق الرجلين الكافرين ثم عدل عن الأمر بحرقهما إلى الأمر بقتلهما معللاً عدوله عن حرقهما بأن النار لا يعذب بها إلا الله ولو كان ما أمر به أولاً عن وحي لما رجع عنه، ومما يدل على أن أمره الأول كان باجتهاد منها . ما جاء في رواية أخرى بلفظ « ثم رأيت أنه لا ينبغي أن يعذب بالنار إلا الله »(٨٤).

وقد استدل به الحافظ ابن حجر على " جواز الحكم بالشيء اجتهاداً ثم الرجوع عنه "(٨٥) .

وقد جمع بعض الأفاضل من العلماء اجتهادات الرسول ﷺ في مؤلف خاص بها، فذكر من اجتهاداته ﷺ ما ينوف على ثلاثين موضعاً .(٨٦)

---

(٨٣) صحيح البخاري [٤: ٧٥]، أبو داود [٣: ٥٥]، الدارمي [٢: ٢٢٢] ورواه الترمذي [٤: ١٣٧-١٣٨] .

(٨٤) فتح الباري [٦: ١٥٠] .

(٨٥) نفس المرجع السابق .

(٨٦) هو الشيخ عبد الجليل عيسى أبو النصر وكتابه هو" اجتهاد الرسول ﷺ " .

أظهر أدلتهم العقلية

ما قدمنا من الأدلة النقلية هي خلاصة ما يجب الاعتماد عليه في إثبات اجتهاد الرسول ﷺ لأنها وقائع ثبتت بطرق صحيحة متصلة كثيرة لا يمكن العدول عنها وتركها من أجل تخرصات وتخيلات عقلية لا يسندها دليل ثابت، ومع ذلك أورد الجمهور أدلة عقلية لإثبات اجتهاد الرسول ﷺ من أظهرها ما يلي:

١ - أن العمل بالاجتهاد أشق من العمل بالنص، وزيادة المشقة سبب لزيادة الثواب لقوله ﷺ لعائشة في عمرتها فيما يرويه الدارقطني والحاكم: « أن لك من الأجر على قدر نصبك ونفقتك »[(٨٧)] فلو لم يكن الرسول عليه الصلاة والسلام عاملا بالاجتهاد مع عمل أمته به للزم اختصاص أمته بفضيلة ليست له في هذا الشأن . وهو ممنوع فكذلك القول بعدم جواز اجتهاده ممنوع .[(٨٨)]

٢ - أن النبي ﷺ على علم تام بمعاني النصوص وملاحظة إلحاق ما لا نص فيه بما فيه نص لسلامة نظره وبعده عن الخطأ، والإقرار عليه، وهذا يرجح إثبات الحكم في الفرع ضرورة فلو لم يقض به لكان تاركاً لما ظنه حكم الله تعالى على بصيرة منه وهو حرام بالإجماع .[(٨٩)]

---

(٨٧) فتح الباري [٣: ٦١١] .

(٨٨) الأحكام: للأمدي [٤: ١٤٥]، تيسير التحرير [٤: ١٨٧]، كشف الأسرار (٣: ٢٠٨) .

(٨٩) الأحكام: للأمدي [٤: ١٤٥] .

واعترض على هذا بأن عمل الرسول ﷺ بالاجتـــهاد لا يكـــون إلا عند عدم معرفة الحكم بالوحي . وهذا الشرط لا يتبين في حقه ﷺ فـــلا مشروط .[٩٠]

ويجاب عنه بأن هذا الشرط يمكن تبينه بالقرائن والأمارات التي تـــدل على الاجتهاد، كما يمكن تبينه بجواز الخطأ في الحكم بالاجتهاد بخلاف ما كان عن وحي فلا يحتاج إلى قرائن وأمارات ولا يمكن وقوع الخطأ فيه .

وقالت طائفة: يجوز له ﷺ الاجتهاد فيما يتعلق بالحروب دون غيرها من الأحكام الشرعية .[٩١]

ولا شك أن المراد بالحروب هنا الجهاد في سبيل الله تعالى وهو أمـــر ديني قطعاً لأن الرسول ﷺ لم يجاهد الكافرين لطلب شيء من الدنيا وإنما قاتلهم في سبيل الله وإعلاء لدينه فاستثناؤه من الأحكام الشرعية ممـــا لا يظهر له وجه إلا على رأي من يقول: " أن الحروب قائم أمرهـــا علـــى الفورية فلا تحتمل التأخير لما يترتب على التأخير من مفاسد يجب دفعهـــا بالاجتهاد "[٩٢] . وهذا لا يخرجها عن كونها أمراً شرعياً .

---

[٩٠] الأحكام: للآمدي [٤: ١٤٦- ١٤٧] .

[٩١] إرشاد الفحول (ص٢٥٥)، المسودة (ص٥٠٦)، البدخـــشي علـــى المنـــهاج (٣: ١٩٢)، الأسنوي علـــى المنـــهاج [٣: ١٩٤]، كـــشف الأســـرار [٣: ٢٠٦]، شرح تنقيح الفـــصول (ص٤٣٦)، التحريـــر وشـــرحه [٤: ١٨٥]، شرح النووي على صحيح مسلم [١: ٢٤١] .

[٩٢] شرح تنقيح الفصول (ص٤٣٧) بتصرف .

وقد اتفقت جميع الطوائف على جواز الاجتـــهاد لــه ﷺ في أمـــور الدنيا، ونص على هذا الاتفاق النووي في شـــرح صـــحيح مـــسلم[٩٣]، وذكره الشوكاني في إرشاد الفحول بلفظ الإجماع عن ســـليم الـــرازي وابن حزم .[٩٤]

[٩٣] شرح النووي على صحيح مسلم [١: ٢٤١] .

[٩٤] ارشاد الفحول (ص٢٥٥) .

أدلة القائلين بجواز الاجتهاد له ﷺ في الحروب فقط

واستدل هؤلاء بما وقع في كثير من الروايات في عمله بالاجتهاد في الحروب كما في إنزاله الجيش في غزوة بدر الكبرى في مكان قبل المعركة وتحوله منه إلى مكان آخر بإشارة الحباب بن المنذر، وأخذه الفداء من أسرى بدر، وأذنه للمتخلفين عنه في غزوة تبوك وغيرها من وقائع اجتهاده ﷺ في الحروب .

واستدلوا أيضاً بأن أمر الحروب قائم على الفور لدفع ما يتوقع من مفسدة لا تحتمل الانتظار بخلاف الأحكام الشرعية فيمكن الانتظار فيها[٩٥] ما لم يخش الفوت كما هو مذهب الحنفية في تجويز الاجتهاد له ﷺ .

---

[٩٥] شرح تنقيح الفصول (ص٤٣٧) تحقيق طه عبد الرؤوف، الطبعة الأولى عام ١٣٩٣هـ، شركة الطباعة الفنية بمصر .



الباب الثالث

ويشتمل على:

١- بيان معنى العتاب وحقيقته .

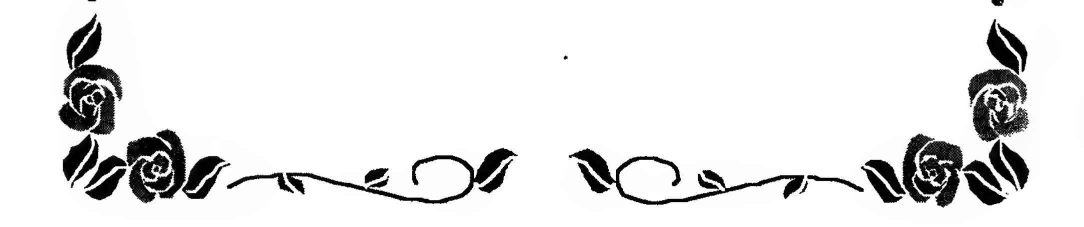
٢- بيان معنى الذنب . وتحليل الآيات القرآنية الكريمة

التي ورد فيها ذكر الذنب

مضافاً إلى ضمير خطاب رسول الله ﷺ .

٣- بيان معنى التوبة واختلافها باختلاف التائبين .

٤- بيان أنواع العتاب في الآيات التي وقع فيها البحث .



معنى العتاب

نظر المعنيون بدراسة البيان العربي وآدابه إلى مناهج التعبير وأساليب التخاطب التي ينقل بها المتكلم ما يروم التحدث به إلى غيره، فوجدوا أن هناك دوافع ومحرضات تحمل المتكلم على إظهار ما لديه من معان في نظم من القول تختلف أساليبه وفنونه بحسب اختلاف الموضوع الذي يراد فهمه وإفهامه طبقاً لمقتضى الحال، فليس مقام أداء الحقائق العلمية كأداء المعاني الأدبية، وليس أداء الحقائق التعبدية كأداء حقائق الترغيب والترهيب، وليس القول في المعاتبة كالقول في التغضب والهجران وهكذا في سائر مقامات الكلام إذ لكل مقام مقال كما يقول أرباب البلاغة .

تباين أسلوب الآيات المكية والمدنية في تربية الله للنبي ﷺ

وقد عالج القرآن الكريم مقامات الكلام وأساليبه بحسب موضوعاتها فنرى اختلاف الأساليب المكية التي جاءت لإثبات العقيدة والبرهنة عليها ومجادلة المخالفين لها- في الأعم الأغلب- عن أساليبه في السور المدنية التي جاءت- في أكثر أحوالها ومناسباتها- لبيان الأحكام الشرعية والآداب الاجتماعية، والصفات الخلقية، وأحوال المجتمع السياسية، وأصول الحكم وغير ذلك .

ففي السور المكية نلمح شدة الأسلوب وقوة الأسر في العبارات وقصر الفقر والآيات، ونزولها على نحو من الاتساق النظمي ليكون مدخلاً لها إلى القلوب .

ونرى في السور المدنية هدوءاً في التعبير، وتفصيلاً في بيان الأحكام والشرائع .

ومن ثم نرى هذا الاختلاف في أسلوب آياتِ التربية الإلهية للنبي ﷺ، فهي في الآيات المكية تحمل في طياتها قوة صارمة وتوجيهاً بليغاً، وذلك لحفز عزيمة النبي ﷺ، وتقوية إرادته أمام مصادمة العناد الكافر ومجادلة الشرك والوثنية .

وفي الآيات المدنية تأتي آيات التربية للنبي ﷺ وادعة هادئة موجهة كأنما هي سلاسل من العطف، والحنو الدافع إلى الامتثال .

وعلى هذا الأساس نجد أن آيات التربية والعتاب للنبي ﷺ وما يجري مجراها مما جاء للنضح عن النبي ﷺ والدفاع عنه تجري في هذا المجرى فنجد مثلاً في سورة الحاقة وهي مكية قوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ﴿٤٤﴾ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ﴿٤٥﴾ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ﴾[1] وفي سورة الإسراء وهي مكية أيضاً نجد قوله تعالى: ﴿إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا﴾[2] ونجد في مفتتح سورة عبس هذا اللون التربوي بأجلى صورة .

بينما نجد في سورة التوبة- وهي مدنية- قوله تعالى": ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ﴾[3] وفي مفتتح سورة التحريم-وهي مدنية أيضاً- نجد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[4].

---

[1] سورة الحاقة: آية ٤٤- ٤٦ .
[2] سورة الإسراء: آية ٧٥ .
[3] سورة التوبة: آية ٤٣ .
[4] سورة التحريم: الآية الأولى

فافتتاح الآية بهذا الاستفهام المتلطف في التقرير وختمها بقوله ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ غاية في التلطف بالنبي ﷺ .

وهذا يدل دلالة قاطعة على أن أسلوب الآيات التربوية يجري في نسق الآيات المكية بما فيها من القوة والشدة، ونجد أسلوب آيات التربية والعتاب يجري في نسق السور المدنية بما فيها من لين الجانب ووداعة الأسلوب والتوجيه .

ما يلمح من شدة العتاب فيراد به تربية المجتمع

وما قد يلمح من شدة في بعض آيات العتاب المدنية مثل قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾(٥) فإنما القصد فيه إلى نوع من تربية المجتمع الإسلامي في أشخاص أصحاب النبي ﷺ لتكون أسساً للتربية العامة في جميع مراحل الحياة، ولهذا عدل عن توجيه الكلام بطريق الإفراد في أول الكلام في قوله ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ .... ﴾ الذي أخرج مخرج الغيبة مع أن المقصود به هو النبي ﷺ إلى الجمع في قوله ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا ﴾ الذي قصد به تربية جماعة المؤمنين .

ولما كان موضوع رسالتنا البحث في آيات عتاب النبي ﷺ كان من اللازم أن نبين المعاني التي استعمل فيها العتاب ونستطرد إلى بيان معنى الذنب كذلك، ثم نبين معنى التوبة مما أسند للنبي ﷺ في بعض الآيات لينصرف الكلام بعد ذلك إلى الحديث عن آيات العتاب التي وقفنا عليها

---

(٥) سورة الأنفال: ٦٧- ٦٨ .

في سور القرآن الكريم .

العتاب في اللغة

ونبدأ بالعتاب فنقول: مادة (عتب) في اللغة تستعمل لمعان كثيرة منها: أن العتاب مخاطبة الإدلال والإشفاق . قال الخليل: " وحقيقة العتاب مخاطبة الإدلال ومذاكرة الموجدة "[٦].

وقد بسط الأزهري في التهذيب عبارة الخليل فقال: " .. والعتاب مخاطبة الإدلال وكلام المدلين أخلاءَهُم طالبين حسن مراجعتهم ومذاكرة بعضهم بعضاً ما كرهوه مما كسبهم الموجدة "[٧] .

وهذا المعنى هو أنسب معاني العتاب وأمسها بموضوعنا.

وعلى ضوئه نفهم أن عتاب الله تعالى لنبيه ﷺ معناه: تذكيره ﷺ- في تلطف وإشفاق- بما يقع من الخطأ في اجتهاده توصلاً إلى تصحيح هذا الخطأ الذي يعود به الرسول ﷺ إلى موافقة مراد الله تعالى، وتحقيق المطلوب منه عليه الصلاة والسلام فينال كامل الرضا .

منهجي في التعرف على آيات العتاب

بعد أن وفقني الله تعالى لاختيار آيات عتاب النبي ﷺ موضوعاً لبحثي عدت إلى القرآن الكريم أتلوه وأتتبع آياته وأقف عند كلماته، أقضي في تلاوته- والحمد لله- ساعات طويلة ليل نهار منفرداً بنفسي منعماً الفكر فيما يوجه فيه الخطاب إلى رسول الله ﷺ محاولاً أن أستخلص آيات عتابه عليه الصلاة والسلام من غيرها .

---

[٦] المصباح المنير مادة (عتب) .

[٧] تهذيب اللغة [٢: ٢٧٨] .

فلما غلب على ظني مواطن العتاب في آيات، وأصبحت ماثلة في ذهني عدت ثانية أعمل الفكر في ترتيبها وأبحث عن نهج يمكنني أن أضبط بــه أنواع العتاب فيها مستهدياً الله تعالى في أن يكون هذا النهج منسجماً مع المقصود من آيات عتاب سيد الخلق سيدنا رســول الله ﷺ، فوجــدت - بحسب ما وصل إليه علمي- أن العتاب في هذه الآيات لا يخرج عــن ثلاثة أنواع رئيسية هي:

أنواع عتاب الله تعالى لنبيه عليه الصلاة والسلام :

١- النوع الأول:-

عتاب التوجيه:

القسم الأول من هذه الأنواع هو ما أطلقنا عليه (عتاب التوجيــه) وهو ما يقصد به توجيه الرسول ﷺ- في مطلع الرسالة والدعوة إليها- إلى ما يراد منه في تبليغ ما أنزله الله عليه من آيات رسالته وتبليــغ ذلــك إلى الأمة مهما لاقى في سبيل ذلك من إعنات وعناد وعقبات وإيذاء، ووقوفه بعزيمة صارمة وقوة إرادة ماضية أمام طغيان الشرك وعناد المشركين وشدة تمسكهم بما ورثوه عن آبائهم وأجدادهم من وثنية ملحدة وكفر عنيد، فلا يبالي بما يلقاه منهم من تكذيب ورد لرسالته، وسخرية به واستهزاء بمــا يلقيه إليهم من آيات الله حتى يخرجهم من ظلمات هذه الجهالة البليدة إلى نور المعرفة والعلم فيعرفوا الحق ويتقلبوه ويهتدوا بهديه .

وهذا النوع ينقسم إلى قسمين فرعيين:

أولهما: عتاب الدفع وتقوية العزيمة لينهض الرسول ﷺ بأبلغ الطاقة البشرية في تبليغ الرسالة ونشر الدعوة وألا يبالي بشيء يقف معوقاً لرسالته وتبليغ دعوته .

ثانيهما: عتاب الإقصار والمقصود منه تخفيف اندفاع النبي ﷺ في التبليغ عما يشق على نفسه من الجهد، وبذل فوق ما يستطيع من طاقته البشرية حتى كاد يبخع نفسه ويضعف قوته لعظم ما كان يكابد مما كاد – لو استمر فيه– أن يؤخر نشر الدعوة .

وهذا القسم كالثمرة للقسم الأول لأن ما جاء في قوة الدفع والإغراء وشدة الخطاب جعل رسول الله ﷺ يندفع بقوة إلى تبليغ ما أنزل عليه ربه من آيات تخاطب الكفار وتجبه المشركين تجبيها يغمزهم من جميع جوانبهم العقدية والعقلية والاجتماعية حتى كان ﷺ يبلغ في ذلك كل مبلغ مما كاد يمس نهوضه بتبليغ رسالته ونشر دعوته كما عبر عنه القرآن الكريم فيما سنسوقه من آيات .

فجاء هذا للرجوع به ﷺ إلى الطريق الوسط السوي الذي يؤدي به إلى تبليغ رسالته تبليغاً بيناً دون أن يلحقه في ذلك إرهاق ربما أخر من سير الرسالة وقوفاً " مع ما أمر به مما هو تسبب والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم "[٨].

---

[٨] الشاطبي: الموافقات في أصول الشريعة [١: ٢٢٤] بشرح عبد الله دراز – رحمه الله تعالى – .

٢- النوع الثاني:

عتاب التنبيه:

القسم الثاني من أقسام العتاب الرئيسية ما سميناه (عتـــاب التنبيـــه) والمقصود منه تنبيه الرسول ﷺ إلى ما يحتمل وقوعه منه لو لم ينبه إلى ذلك لو وقع مثل ذلك الفعل منه مرة أخرى .

٣- النوع الثالث:

عتاب التحذير:

النوع الثالث من أنواع العتاب الرئيسية هو ما سميناه (عتاب التحذير) والمقصود منه تحذير رسول الله ﷺ من عاقبة أمر وقع فيه خطأ في اجتهاد يترتب عليه لو لم يحذر منه – ضرر في التشريع والأحكام وسير الأمة على مقتضى رسالة رسول الله ﷺ ودعوته التي جاء بها من عند الله تعالى .

***

الـــذنــــب

ترجع حقيقة الذنب في اللغة إلى الفعل الذي تستوخم عاقبتــه كمــا فسره الراغب في مفرداته[٩] .

وشرعاً يرجع الذنب إلى مخالفة أمر الله أونهيه .

اختلاف نسبة الذنب باختلاف الفعل والفاعل وقصد الفاعل

وهو أمر نسبي يختلف باختلاف الفعل والفاعل وقصد الفاعل فليست المخالفة من العالم كالمخالفة من الجاهل، وليست المخالفة الواقعــة عــن اجتهاد كالمخالفة التي لا تقع عن اجتهاد، وليست المخالفة الواقعة بالقصد والتعمد كالمخالفة الواقعة بالنسيان .

ومن هنا تختلف الذنوب ومسئولياتها بالنسبة للفاعل، والحوادث .

إسناد الذنب إلى ضمير خطاب رسول الله ﷺ في القرآن الكريم

وعلى ضوء ذلك نفهم معاني الآيات التي ورد فيها إسناد الــذنب إلى رسول الله ﷺ مضافاً إلى ضمير خطابه ﷺ .

وهي في ثلاثة مواضع من القرآن الكريم:

الموضع الأول: جاء في سورة غافر وهو قوله تعالى: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ بِٱلْعَشِيِّ وَٱلْإِبْكَٰرِ ﴾[١٠] .

الموضع الثاني: جاء في سورة القتال- سورة محمد- وهو قوله تعالى: ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾[١١] .

---

[٩] المفردات: (ص١٨١) .

[١٠] سورة غافر: آية ٥٥ .

[١١] سورة محمد: آية ١٩ .

الموضع الثالث: جاء في أول سورة الفتح وهو قوله تعالى: ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ﴾[١٢] .

دلالة أمره تعالى لنبيه ﷺ بالصبر

أما الآية الأولى وهي آية سورة غافر فقد جاءت بعد أن بين الله تعالى لرسوله ﷺ أنه تعالى ينصر رسله وعباده المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، ثم ذكر أن اليوم الآخر لاتنفع الظالمين فيه معذرتهم، ووصمهم بأن لهم اللعنة ولهم سوء الدار، ثم ذكر أنه تعالى آتى موسى الهدى وأورث بني إسرائيل الكتاب وجعله هدى وذكرى لأولي الألباب للتأسي بموسى عليه السلام في صبره على أذى قومه .

ثم وجه الخطاب لنبيه محمدﷺ فقال له ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ ﴾ الآية .

وهذا السياق مشعر بأن المعاندين من الكفرة المشركين كانوا في موقف مع النبي ﷺ يشعر بالشدة وسوء اللقاء فأخبره الله تعالى بأنه سبحانه ناصر رسله وناصر المؤمنين، وأن هؤلاء المعاندين سيلقون جزاءهم في الدار الآخرة، وذكر له بعد ذلك أنه أنزل على عبده موسى التوراة وجعلها هدى وذكرى لأولى الألباب .

وهذا السياق تضمن أن النبي ﷺ كان في حالة من ضيق الصدر والضجر لما يلقاه من أعداء دعوته المعاندين المستكبرين من إعراض ومعوقات يقيموها أمام نشر دعوته وتبليغ رسالته، فكان ما سبق آية

---

[١٢] سورة الفتح: آية ١- ٣ .

﴿فَٱصۡبِرۡ إِنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾ فيه تنبيه إلى التأسي بما كان لأنبياء الله ورسله، وذكر منهم كليمه موسى عليه الصلاة والسلام ووعده إياهم بالنصر .

ففي هذا تسلية للنبي ﷺ وأمر له بالتأسي بإخوانه الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فقال له: ﴿فَٱصۡبِرۡ﴾ ثم عقب ذلك بأن وعد الله المتضمن لنصر الرسل والمؤمنين في الدنيا والآخرة حق ثابت لا ريب فيه آت لا يتخلف .

ثم أمر الله رسوله ﷺ بالاستغفار لما كان منه من الضجر وضيق الصدر.

ثم عقب سبحانه وتعالى الأمر بالاستغفار بطلب التسبيح والتحميد استغراقاً لسائر أوقاته المعبر عنها " بالعشي والإبكار " حتى لا يفرغ لحظة من اللحظات يضيق فيها صدره ويضجر لما كان يلقاه وهو دائب على تبليغ رسالته ونشر دعوته وتحمل ما يلقى في سبيلها" فإن من كان لله كان الله له "[١٣] .

دلالة أمره ﷺ بالاستغفار في سورة محمد

أما الآية الثانية- وهي آية سورة محمد- فقد جاءت عقب بيان حال المنافقين الذين يستمعون إلى الرسول ﷺ فإذا خرجوا من عنده تجاهلوا ما سمعوا، وتغافلوا عنه وقالوا مستهزئين: " ماذا قال آنفاً ؟ " .

وبعد بيان أن هؤلاء المنافقين طبع الله على قلوبهم وسد منها منافذ الهداية أن تدخل إليها، بيّن أن المؤمنين المهتدين يزيدهم ما يسمعون منه ﷺ هدى وتقوى .

---

[١٣] التفسير الكبير: الفخر الرازي [٢٧: ٧٧] .

ثم ذكر عن هؤلاء المنافقين أنهم في حالهم هذا لا ينتظرون إلا الساعة أن تأتيهم بغتة وقد جاءتهم أشراطها وعلاماتها فلن تنفعهم ذكراهم .

ثم قال لرسول الله ﷺ ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ الآية، وهذا السياق مؤذن بأن المنافقين كانوا في نفاقهم معوقين للرسالة مستهزئين بالرسول ﷺ وبما جاء به من الهدى- شأنهم في ذلك شأن المشركين المعاندين المستكبرين الذين ذكروا في آية سورة غافر -وأن المؤمنين هم المستعدون لقبول الهداية، وهم الذين تنفعهم الذكرى إذا ذكّروا .

فأمر الله تعالى لرسوله عليه الصلاة والسلام بعلم ما يعلمه من توحيده وانفراده تعالى بالربوبية، ووجوب تفريده بالعبودية تيئيس له ﷺ من هؤلاء المنافقين الذين طبع الله على قلوبهم وأمر له بالتطهر من أن يسمع لقولهم أو يصغي إلى استهزائهم وسخريتهم .

ولذلك أمر بالاستغفار لما سمى ذنباً مسنداً إليه باعتبار ما يشغل قلبه الطاهر لو لم ينصرف عنهم وييأس منهم .

وطلب منه الاستغفار للمؤمنين المهتدين الذين يزيدهم الهدى هدى وتقوى تشريكاً معه ﷺ في استغفاره لنفسه تشريفاً لهم وتنويهاً بمقامهم من الإيمان .

دلالته في آية سورة الفتح

أما الآية الثالثة- وهي آية سورة الفتح- فقد افتتحت بها أعظم نعمة مَنَّ الله تعالى بها على نبيه ﷺ، تلك النعمة هي البشرى بالفتح المبين، والبشرى بالتطهير الدائم للنبي ﷺ من كل ما كان يعتريه من الضيق والضجر في سبيل تبليغ رسالته لأن هذا الفتح المبين كان أساساً لإتمام النعمة عليه ﷺ، وهدايته الدائمة إلى الصراط المستقيم، ونصر الله له نصراً

عزيزاً أعزه الله به وأعز به دينه وأعز به أصحابه المؤمنين فكان ذلك أعظم نعمة على رسول الله ﷺ، إذ بعد فتح مكة – المبشر به- صارت الدعوة الإسلامية ظاهرة غالبة " وأقبلت وفود العرب إلى رسول الله ﷺ من كل وجه يدخلون في دين الله أفواجاً "[١٤] فزال عن رسول الله ﷺ ما كان يضيق به صدره ويضجره من صد وصدود المشركين عن دعوته وتحقق له النصر المؤزر والظفر القاهر لأعدائه، وفتح أمام دعوته الطريق فانتشرت في العالم وخفق لواؤها على ربوع المعمور من الأرض .

وبهذا تمت نعمة الله على رسوله وعباده المؤمنين، وتتابع النصر في الجهاد وتبليغ الرسالة، فكان نصراً عزيزاً قوياً غالباً لم يتحقق مثله لدعوة من دعوات الأنبياء والمرسلين .

تهنئة وتطلّع

وقد فهم الصحابة- ﷺ- من هذه البشرى قدر ما أنعم الله به على رسوله ﷺ فهنّأوه على هذا الفتح المبين والتطهير العظيم، وإتمام النعمة وتحقق النصر فقالوا له ﷺ فيما رواه البخاري: " هنيئاً مريئاً فما لنا ؟ "[١٥] فأنزل الله تعالى: ﴿ لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ ٱللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾[١٦] .

***

[١٤] الدرر في اختصار المغازي والسير: لابن عبد البر (ص٢٦٩) .

[١٥] رواه البخاري [٥: ١٦٠]، والترمذي [٥: ٣٨٦] .

[١٦] سورة الفتح: آية ٥ .

التوبة

التوبة لغة

ترجع مادة التوبة ومثلها مادة (الإنابة) وما تصرف منهما في الاستعمال اللغوي إلى الرجوع، يقال:" تاب وناب وأناب إذا رجع "[١٧].

اختلاف التوبة باختلاف التائبين

وعلى ذلك تكون التوبة في الاصطلاح الشرعي مختلفة المعنى باختلاف التائبين، فإن كان التائبون ممن يجوز وقوع الذنوب والمخالفات منهم فمعنى التوبة بالنسبة لهم رجوعهم عما وقع منهم بالندم على فعله والعزم على عدم العودة إليه.

وإن كان التائب ممن لا يجوز أن يقع منه ذنب بمخالفة أمر أو نهي كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام فالتوبة منه الرجوع عن حالة في مقام العبودية إلى حالة أرفع منها .

وعلى هذا الأساس تُنَزَّل معاني الآيات التي أسندت فيها التوبة إخباراً عن النبي ﷺ .

***

١- بينا في باب العصمة أن الاتفاق واقع بين سائر الطوائف على أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام معصومون من وقوع الذنوب منهم بعد النبوة عمداً صغائر وكبائر .

٢- اختلف الناس في جواز وقوع الذنوب منهم عليهم الصلاة والسلام بعد النبوة سهواً أو نسياناً .

---

[١٧] لسان العرب مادة (توب، نوب) .

ومذهب جمهور أهل السنة أن هذا لاحق بالقسم الأول لا يجوز عليهم وقوعه منهم .

٣- ذهب فريق من العلماء إلى عدم جواز وقوع الذنوب منهم عمداً قبل النبوة وهي جائزة منهم سهواً أو نسياناً قبلها .

وجمهور العلماء على جواز وقوع الذنوب منهم قبل النبوة عمداً أو نسياناً وهذا في الذنوب التي لا تخدش المروءة ولا تلحق بصاحبها ذلاً أو مهانة أو نقصاً .

على أساس هذا البيان رجحنا مذهب جمهور أهل السنة من أن الأنبياء- عليهم الصلاة والسلام وفي مقدمتهم سيدنا محمد رسول الله ﷺ خاتم النبيين والمرسلين- معصومون من وقوع الذنب منهم عمداً أو نسياناً بعد النبوة باتفاق، وقبلها ترجيحاً .

ثم ذكرنا فصلاً مسهباً في اجتهاد النبي ﷺ بينا فيه حقه عليه الصلاة والسلام في الاجتهاد وأنه مأذون له فيه من الله تعالى فيما لم يترل عليه به وحي .

وهذا الإذن يقتضي جواز اجتهاد النبي ﷺ في كل حادثة تعرض له أو للمسلمين، و لم يترل عليه فيها وحي أن يبذل جهده وتفكيره فيما يحقق صالح الإسلام والمسلمين .

وعلى هذا جرى رسول الله ﷺ في حياته الكريمة يترل عليه الوحي فيتبع أمر ربه بما جاءه به، وتعرض الحادثة من حوادث المجتمع الإسلامي ويتأخر الوحي قليلاً أو كثيراً وتتطلب المصلحة الكشف عن حكم هذه الحادثة فيجتهد النبي ﷺ فيها، ويخبر بالحكم الذي أداه إليه فيها اجتهاده .

وقد يكون هذا الاجتهاد صواباً فيقره الله تعالى عليه فيصبح وحيـاً، وقد يكون هذا الاجتهاد خطأ فيترل عليه الوحي بتصويب ما أخطأ فيـه عليه الصلاة والسلام فيثبت الحكم بالوحي، ويصدق في كلا الحالين أنـه ﷺ اتبع ما يوحى إليه من ربه، وما نطق عن الهوى .

***

آيات عتاب المصطفى ﷺ

بينا- فيما سبق- أن العتاب لرسول الله ﷺ في آيات القرآن- الـتي غلب على ظني أنها موضع عتاب له عليه الصلاة والسلام- لا يخرج عـن ثلاثة أنواع رئيسية، وقد بينت حقيقة هذه الأنواع والمقصود منها .

وآتي الآن إلى تفصيلها، وعرض الآيات التي تمثل كل نوع منها كـل على حدة آملاً من الله تعالى التوفيق والهداية إلى ما فيه السداد وحـسن الأدب في بيان المراد .

النوع الأول

من أنواع عتاب الرسول ﷺ هو ما سميناه (عتاب التوجيه)- كما سبق أن أوضحنا ذلك- وهو يشمل حالين من أحوال رسـول الله ﷺ في دعوته إلى الله .

الحال الأول
من عتاب
التوجيه

الحال الأول: حينما فجاءه ﷺ الوحي بالرسالة والأمر بتبليغها إلى الخلق في قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡمُدَّثِّرُ ۝ قُمۡ فَأَنذِرۡ ﴾[1] وهي أول آية نزلت بالإنذار العام، وقد وجد رسول الله ﷺ نفسه وحيداً في هذا الشأن، وليس معه أحد على مثل ما طلب منه فاستعظم على نفسه إخراج الناس مما هم فيه من كفر وضلال إلى الهدى والنور، فضاق صدره الشريف الطاهر ذرعاً، وتهيب أن يواجه الناس بالتبليغ خشية أن يكذبوه، ويردوا عليه رسالته، فصمت، ولم يسارع إلى أمر الله بالإنذار، فإن ما كلف به من

---

[1] سورة المدثر: آية ١، ٢ .

مواجهة الناس بأن يعبدوا الله إلهاً واحداً ويتركوا ما ألفوه هم وآباؤهم من عبادة الآلهة المتعددة لأمر جلل في معيارهم الفكري، وعرفهم الجاهلي تنخلع له قلوبهم، يهبون لرده عن بكرة أبيهم ذوداً عن كيانهم، وإبقاء على معتقدهم القديم .

فليس من اليسير إذن مواجهتهم حالاً بما يكرهون، إذ الإقدام على ذلك- دون تريث وأعمال فكر في أنجع السبل التي تكفل ولو في ظاهر الحال حسن استجابتهم- قد يكون سبباً لصدودهم عنه وعدم قبولهم منه وذلك معناه الاستهداف لسهامهم، والتعرض لغضبهم، والوقوع في نقمتهم .

في ظل هذا الموقف تريث رسول الله ﷺ في إبلاغ قومه، وصمت، ولعله في ذلك كان يتلمس أفضل السبل التي يمكنه بها إبلاغ ما أمره الله به إليهم بسبيل تكون أقرب إلى الاستجابة فنزل عليه جبريل عليه السلام فأمره أن يسرع إلى تبليغ أمر ربه، وإلا تعرض لعذابه، روى الإمام البخاري- في كتاب" خلق أفعال العباد "- عن أبي الأحوص[١٩] عن أبيه قال: " أتيت النبي ﷺ، فصعد في النظر وصوب، قلت: إلى م تدعو ؟ وعم تنهى ؟ قال: « لا شيء إلا الله والرحم » قال: « أتتني رسالة من ربي فضقت بها ذرعاً، ورأيت أن الناس سيكذبوني فقيل لي: لتفعلن أو ليفعلن بك »[٢٠].

---

[١٩] هو عوف بن مالك بن نضلة الجشمي، روى عن أبيه، وله صحبة، تهذيب التهذيب [٨: ١٦٩] .

[٢٠] خلق أفعال العباد: للبخاري (ص٣٩-٤٠)، فتح الباري شرح صحيح البخاري [١٣: ٥٠٤] .

قال الحافظ ابن حجر- في الفتح-: " وأصله في السنن، وصححه ابن حبان والحاكم "[٢١] .

وفي صحيح مسلم أن رسول الله ﷺ قال : « رب إذاً يثلغوا[٢٢] رأسي فيدعوه خبزة »[٢٣] .

وأخرج ابن راهويه[٢٤] في مسنده- كما ذكره الألوسي في روح المعاني من حديث أبي هريرة ﷺ أن النبي ﷺ قال: « بعثني الله تعالى بالرسالة فضقت بها ذرعاً، فأوحى الله تعالى إن لم تبلغ رسالاتي عذبتك، وضمن لي العصمة فقويت »[٢٥] .

قال القرطبي في تفسيره: " وقال ابن عباس: قال النبي ﷺ: « لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعاً، وعرفت أن من الناس من يكذبني فأنزل الله هذه الآية »[٢٦] أي قوله تعالى﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾[٢٧] " .

قال السيوطي: " وأخرج ابن إسحاق، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وابن مردويه، وأبو نعيم، والبيهقي في الدلائل من طرق عن علي ﷺ قال:

---

[٢١] فتح الباري [١٣: ٥٠٤] .

[٢٢] يثلغوا: أي يشدخوه ويكسروه .

[٢٣] صحيح مسلم [٤: ٢١٩٧] .

[٢٤] هو إسحاق بن إبراهيم بن مخلد (١٦١- ٢٣٨هـ) من أعلام المحدثين والفقهاء.

[٢٥] روح المعاني [٦: ١٨٩] .

[٢٦] الجامع لأحكام القرآن [٦: ٢٤٣- ٢٤٤] .

[٢٧] سورة المائدة: آية ٦٧ .

" لما نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ دعاني رسول الله ﷺ فقال: « يا علي إن الله أمرني أن أنذر عشيرتي الأقربين فضقت بذلك ذرعاً، وعرفت أني مهما أبادئهم بهذا الأمر أرى منهم ما أكره، فصمت عليها حتى جاء جبريل فقال: يا محمد إنك إن لم تفعل ما تؤمر به يعذبك ربك .. »[٢٨] .

وروى البيهقي في الدلائل عن الإمام الشافعي-رحمه الله تعالى- أن الله تعالى لما أمر نبيهﷺ بأن يعلم الناس نزول الوحي عليه ويدعوهم إلى الإيمان به كبر عليه ذلك وخاف التكذيب، وأن يتناول، فنزل عليه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ ﴾ .[٢٩]

وأخرج أبو الشيخ[٣٠] عن الحسن[٣١] أن رسول الله ﷺ قال: « أن الله بعثني برسالة فضقت بها ذرعاً، وعرفت أن الناس مكذبي فوعدني لأبلغن أو ليعذبني » فأنزلت﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ ﴾[٣٢]

---

[٢٨] الدر المنثور [٥: ٩٧] (واللفظ له)، تفسير الطبري [١٩: ١٢١]، تفسير ابن كثير [٣: ٣٥١]، والبداية والنهاية له [٣: ٢٩]، دلائل النبوة لأبي نعيم (ص٣٦٤)، دلائل النبوة للبيهقي [١: ٤٢٨] .

[٢٩] دلائل النبوة: للبيهقي [٢: ٤٣٤]، نهاية الأرب: للنويري [١٦: ١٩٦] .

[٣٠] هو عبد الله بن محمد بن جعفر (٢٧٤- ٣٦٩هـ) من علماء الحديث .

[٣١] هو الحسن بن يسار (٢١-١١٠هـ) تابعي ومن العلماء الفقهاء النساك .

[٣٢] الدر المنثور [٢: ١٩٨]، لباب النقول: للسيوطي (ص٩١)، فتح القدير: للشوكاني [٢: ٦٠] .

وزاد الألوسي- في روح المعاني-[٣٣-٣٤] إسناده إلى ابن حبان في تفسيره .

قال السيوطي:" وأخرج عبد بن حميد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبو الشيخ عن مجاهد"[٣٥] قال: لما نزلت ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ﴾ قال رسول الله ﷺ:« يا رب إنما أنا واحد كيف أصنع ؟ يجتمع عليّ الناس » فنزلت ﴿ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾[٣٦] .

كان نزول هذه الآية ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ باعثاً قوياً في تجديد عزيمة رسول الله ﷺ وتقوية إرادته على تبليغ رسالته، ودافعاً قوياً على الامتثال مهما لاقى في سبيل ذلك من شدائد وأزمات لما في الأمر من وجوب التبليغ ولما في خطاب الآية من الشدة عليه .

من تَلَطُّف الله برسوله في الخطاب

وقد علم الله تعالى ذلك من رسوله ﷺ فتلطف به لتخفيف ما وقع على قلبه الرحيم الطاهر من شدة الخطاب فأنزل عليه بعد ذلك قوله تعالى ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ ليلفت نظره إلى أنه هو في رسالته قوة قاهرة لا تغلبها قوة ولكنه سبحانه وتعالى قد جعل له سبيلاً من الأسباب الظاهرة التي تخفف عنه ﷺ شدائد الخطاب، وتبعث في قلبه الطمأنينة فقال لـه: ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ .

[٣٣-٣٤] روح المعاني [٦: ١٩٨] .

[٣٥] هو مجاهد بن جبر (٢١- ١٠٤هـ) تابعي مفسر من أهل مكة، أخذ التفسير عن ابن عباس .

[٣٦] الدر[٢: ١٩٨]، لباب النقول (ص٩١)، فتح القدير: للشوكاني [٢: ٦٠]

الحال الأولى

فإن الأمر بإنذار عشيرته الأقربين- وهو أمر بالإنذار الخاص بعد تقدم درس التربية بخطاب ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ... ﴾ الآية له حكمته الخاصة، وهو أن يأنس الرسول ﷺ بطبيعته البشرية إلى أنه سيجد بجانبه من يقف معه إيماناً أو حمية فيزيده ذلك إسراعاً في امتثال أمر الله تعالى إلى التبليغ، ولذلك جاء في حديث علي ﷺ- الذي قدمنا صدره ومن خرجه- أن رسول الله ﷺ لما نزلت عليه ﴿ وَأَنذِرۡ عَشِيرَتَكَ ٱلۡأَقۡرَبِينَ ﴾ دعا علياً فقال له: « اصنع لي صاعاً من طعام، واجعل عليه رجل شاة، واجعل لنا عساً[٣٧] من لبن ثم اجمع لي بني عبد المطلب حتى أكلمهم، وأبلّغ ما أُمرت به » قال علي: ففعلت ما أمرني به ثم دعوتهم له وهم يومئذ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصونه فيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب فلما اجتمعوا إليه دعاني بالطعام الذي صنعت لهم فجئت به فلما وضعته تناول النبي ﷺ- بضعة[٣٨] من اللحم فشقها بأسنانه ثم ألقاها في نواحي الصحفة ثم قال: « كلوا بسم الله » فأكل القوم حتى نهلوا عنه ما ترى إلا آثار أصابعهم، والله إن كان الرجل الواحد ليأكل ما قدمت لجميعهم ثم قال: « اسق القوم يا علي » فجئتهم بذلك العس فشربوا منه حتى رووا جميعاً وايم الله أن كان الرجل منهم ليشرب مثله، فلما أراد النبي ﷺ أن يكلمهم بدره أبو لهب إلى الكلام فقال: لقد سحركم صاحبكم . فتفرق القوم و لم يكلمهم النبي ﷺ . فلما كان الغد قال: « يا علي إن هذا الرجل قد سبقني إلى ما سمعت من القول فتفرق

---

[٣٧] العس هو: القدر الكبير .

[٣٨] بضعة: أي قطعة من اللحم .

القوم قبل أن أكلمهم فعد لنا بمثل الذي صنعت بالأمس من الطعام والشراب ثم اجمعهم لي » ففعلت ثم جمعتهم ثم دعاني بالطعام فقربته ففعل كما فعل بالأمس، فأكلوا وشربوا حتى نهلوا، ثم تكلم النبي ﷺ فقال: « يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم أحداً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به إني قد جئتكم بخير الدنيا والآخرة، وقد أمرني الله أن أدعوكم إليه ... »[٣٩] .

وحديث علي هذا مروي مجزأ بطرق ليس فيها طعن فقوله « ضقت بها ذرعاً » موجود في حديث أبي الأحوص، وحديث أبي هريرة، وحديث ابن عباس، وفي مرسل الحسن السابقة، وقصة صنع الطعام ومبادرة أبي لهب لرسول الله ﷺ بما يكره موجودة في حديث البراء عند ابن مردويه[٤٠] . وقصة اجتماع القوم لدعوتهم إلى الله تعالى موجودة في صحيح البخاري[٤١]، وجمع ناس من أهله- ﷺ- في مسند الإمام أحمد[٤٢] .

واعتبر الحافظ ابن كثير- في البداية والنهاية- أن في طريق ابن أبي حاتم شاهداً لحديث علي الذي سقناه آنفاً ثم قال فيها أيضاً: " وقد روى الإمام أحمد في مسنده من حديث عباد بن عبد الله الأسدي[٤٣]، وربيعة بن

---

(٣٩) الدر: للسيوطي [٥: ٩٧]، واللفظ له، تفسير الطبري [١٩: ١٢١، ١٢٢] دلائل أبي نعيم (ص٣٦٤)، دلائل البيهقي [١: ٤٢٨]، تفسير ابن كثير [٣: ٣٥١]، البداية والنهاية له [٣: ٣٩، ٤٠] .

(٤٠) الدر المنثور [٥: ٩٧] .

(٤١) صحيح البخاري [٦: ١٤٠] .

(٤٢) مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر [٢: ١٦٥، ٣٥٢،٣٥٣] .

(٤٣) هما في مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر [٢: ١٦٥، ٣٥٢،٣٥٣] .

ناجذ[٤٤] عن علي أيضاً نحو ما تقدم أو كالشاهد له "[٤٥].

وذكر الحافظ ابن حجر- في الفتح- قطعتين من حديث علي هـــذا وأسند إخراجه إلى ابن إسحاق والطبري والبيهقي في الدلائل و لم يذكر فيه طعناً،وأشار إلى أن حديث علي هذا هو عند" ابن أبي حاتم من وجه آخر" وذكر في إحدى القطعتين ما بين الروايتين من اختلاف في عدد من حضر الطعام الذي دعا رسول الله ﷺ إليه القوم من عشيرته لما نزلت الآية[٤٦] .

الحال الثانية

بعد أن أنذر رسول الله ﷺ عشيرته الأقربين في اجتماعه بهم وبلغهـــم أنه جاءهم بخير الدنيا والآخرة، وأن الله تعالى أمره أن يدعوهم إليه فبدره أبولهب بما بدره به من الإعراض عن الهداية وعدم قبول الإيمان وقام القوم، وتفرقوا عنه، وبلغ هذا الموقف ملأ قريش وطواغيتهم فاشـــتدت عـــداوة قريش لرسول الله ﷺ، واشتد إيذاؤهم له ولأصحابه، فاشـــتدت عزيمـــة رسول الله ﷺ وتعالت في مواجهة التحدي، ومضى قدماً في تبليغ رسالته والدعوة إليها لا يبالي من قريش غضبهم أو سخطهم إذا أسمعهم ما أنزل إليه في شأن آلهتهم، وتسفيه أحلامهم فكان أبو طالب يحرسه ويرسل معه - إذا خرج- بعض بني هاشم ليحرسوه فأنزل الله تعالى عليه قوله عز شأنه ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾ فترك رسول الله ﷺ الحرس .

---

(٤٤) نفس المرجع السابق .

(٤٥) البداية والنهاية [٣: ٤٠] .

(٤٦) فتح الباري [٨: ٥٠٣] .

حراسة فتيان بني هاشم لرسول الله ﷺ

روى ابن كثير عن ابن مردويه والطبراني[٤٧]، وأخرج السيوطي عنهما أيضاً وعن أبي الشيخ وأبي نعيم في الدلائل وابن عساكر[٤٨] وكذلك الألوسي في تفسيره عمن تقدم[٤٩] ما عدا الطبراني عن ابن عباس ﷺ قال: " كان رسول الله ﷺ يحرس فكان أبو طالب يرسل إليه كل يوم رجالاً من بني هاشم يحرسونه حتى نزلت عليه الآية ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ فأراد عمه أن يرسل معه من يحرسه كعادته فقال رسول الله ﷺ: « إن الله قد عصمني من الجن والإنس » .

وروى ابن كثير[٥٠] والسيوطي[٥١] في تفسيريهما عن ابن مردويه عن جابر بن عبد الله قال: " كان رسول الله ﷺ إذا خرج بعث معه أبو طالب من يكلؤه حتى نزلت ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ فذهب ليبعث معه فقال: « يا عم أن الله قد عصمني لا حاجة لي إلى من تبعث » .

ومعنى الآية يقتضي أنها نزلت بمكة أيام الشدائد والأزمات التي كانت تعترض رسول الله ﷺ وهو يدعو قومه ويبلغهم ما أنزل إليه من ربه، وفيه عيب آلهتهم وتسفيه أحلامهم فكانوا ينفرون منه لذلك .

---

[٤٧] تفسير ابن كثير [٢: ٧٨: ٧٩] .

[٤٨] الدر المنثور [١: ٢٩٨]، لباب النقول (ص٩٣)، زاد المسير: لابن الجوزي [٢: ٣٩٦] .

[٤٩] روح المعاني [٦: ١٩٩] .

[٥٠] تفسير ابن كثير [٢: ٧٨] .

[٥١] الدر المنثور [٢: ٢٩٨] .

فحوى الخطاب بهذه الآية

وأسلوبها بما فيه من قوة وتحذير يقتضي أنها واردة على أمر اقتضاه حفزاً لعزيمة رسول الله ﷺ وتقوية لإرادته على التبليغ رغم ما فيه مما ينفرهم فكأنه قيل له: بلغ ما أنزل إليك من ربك غير مبال بهم ولا خائفاً شيئاً من قبلهم أو من غيرهم فقد تكفل الله بعصمتك منهم ومنعهم من أن يقتلوك أو يكفوك عن أداء رسالة ربك فأنت الظاهر عليهم ولك العقبى .

العباس أحد حراس رسول الله ﷺ

روى ابن كثير(٥٢)عن ابن مردويه، والسيوطي في الدر(٥٣) عنه وعن الطبراني عن أبي سعيد الخدري ﷺ قال: " كان العباس عم رسول الله ﷺ فيمن يحرسه فلما نزلت هذه الآية﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ۗ﴾ ترك رسول الله ﷺ الحرس " .

والعباس في حراسته هذه لرسول الله ﷺ هو- بلا شك- أحد فتيان بني هاشم الذين كان يبعثهم أبو طالب كل يوم لحراسة رسول الله ﷺ .

وذهاب الحافظ ابن حجر- في الفتح(٥٤)- إلى أن ملازمة العباس لرسول الله ﷺ إنما كانت بعد فتح مكة عدول منه- رحمه الله تعالى- عما تلهمه الآية ويقتضيه حال الدعوة في مستهلها من حاجة الرسول ﷺ إلى العصمة من الناس ليتمكن من إبلاغهم ما أمره الله بتبليغهم إياه .

واستدلاله على ما ذهب إليه بما ورد في الأخبار من أن رسول الله ﷺ حرس في بدر وفي أحد وفي الخندق وفي رجوعه من خيبر وفي وادي القرى وفي عمرة القضية وفي حنين، وهذا يقتضي عنده نزول الآية متراخية عن

---

(٥٢) تفسير ابن كثير [٢: ٧٨].

(٥٣) الدر المنثور [٢: ٢٩٨] .

(٥٤) فتح الباري [١٣: ٢١٩] .

وقعة حنين[٥٥] غير مسلم من وجهين:

ملازمة العباس لرسول الله ﷺ

الوجه الأول: أن ملازمة العباس للرسول ﷺ ومداومته عليها كانت معلومة للناس بمكة قبل الهجرة، فقد كان من لا يعرف شخص رسول الله ﷺ من العرب، و لم يسبق له أن رآه، ويعرف عمه العباس فإنه يدل على رسول الله ﷺ بأنه الرجل الذي يجلس مع العباس بن عبد المطلب .

قدوم البراء وكعب ابن مالك على رسول الله ﷺ

ومن أمثلة ذلك ما روى ابن سيد الناس[٥٦] في عيون الأثر[٥٧]، وابن كثير في البداية والنهاية[٥٨] من أن البراء بن معرور، وكعب بن مالك الأنصاريين رضي الله عنهما قدما مكة عام بيعة العقبة الكبرى- وكانا قد أسلما في المدينة على يد مصعب ابن عمير ﷺ- فذهبا يسألان أهل مكة عن رسول الله ﷺ و لم يكونا يعرفانه ولا سبق لهما أن رأياه فأخبرهما رجل من أهل مكة بأنه الرجل الذي يجلس مع العباس بن عبد المطلب في المسجد، قال البراء: " خرجنا في حجاج قومنا من المشركين.. حتى قدمنا مكة.. فخرجنا نسأل عن رسول الله ﷺ- وكنا لا نعرفه و لم نره قبل ذلك- فلقينا رجلاً من أهل مكة فسألناه عن رسول الله ﷺ فقال: هل تعرفانه ؟ قلنا: لا . فقال: هل تعرفان العباس بن عبد المطلب عمه ؟ قال:

---

(٥٥) نفس المرجع .

(٥٦) هو أبو الفتح محمد بن محمد بن محمد بن عبد الله الأندلسي الأشبيلي المصري (٦٧١- ٧٣٤هـ) .

(٥٧) عيون الأثر [١: ١٦٢]، والاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء: للكلاعي [١: ٤٢٠] .

(٥٨) البداية والنهاية [٣: ١٥٨]، سيرة ابن هشام [٢: ٤٧، ٤٨] .

قلنا: نعم- وقد كنا نعرف العباس كان لا يزال يقدم علينا تاجراً- قال: فإذا دخلتما المسجد فهو الرجل الجالس مع العباس، قال: فدخلنا المسجد وإذا العباس جالس ورسول الله ﷺ جالس معه، فسلمنا ثم جلسنا إليه، فقال رسول الله ﷺ للعباس: «هل تعرف هذين الرجلين يا أبا الفضل ؟» قال: نعم، هذا البراء بن معرور سيد قومه وهذا كعب بن مالك، قال: «كعب بن مالك» فوالله ما أنسى قول رسول الله ﷺ «الشاعر ؟» قال: نعم " .

حضور العباس بيعة العقبة الكبرى

ومما يؤيد ملازمة العباس لرسول الله ﷺ بمكة قبل الهجرة أيضاً- وهي بلا ريب ذات هدف سام أهم ما فيها حراسة رسول الله ﷺ من أعدائه- أن العباس لم يترك رسول الله عليه الصلاة والسلام وحده حتى في هجوع الليل،وسكون الأرواح فيه فقد حضر العباس مع رسول الله ﷺ بيعة العقبة الكبرى التي تمت بين رسول الله ﷺ وبين الأنصار بعد أن مضى ثلث الليل كما جاءت الروايات بذلك، فقد كان العباس بن عبد المطلب أول متكلّم في اجتماع الأنصار برسول الله ﷺ في تلك الليلة فقال: " يا معشر الخزرج.. إن محمداً منا حيث قد علمتم، وقد منعناه من قومنا ممن هو على مثل رأينا فيه فهو في عزة من قومه، ومنعة في بلده.. فإن كنتم ترون أنكم وافون له بما دعوتموه إليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك، وإن كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج إليكم فمن الآن فدعوه فإنه في عزة ومنعة من قومه وبلده.. "[٥٩] .

---

[٥٩] البداية والنهاية [٣: ١٦٠]، عيون الأثر [١: ١٦٣]، سيرة ابن هشام [٢: ٥٠] .

أسباب حراسته ﷺ بمكة

فحراسات رسول الله ﷺ بمكة من قبل أهله وعشيرته كانت لأسباب عامة، الغرض منها حماية محمد- ﷺ- وهو منهم في الذروة لرد اعتـــداء قريش عنه ومنع طغيانها عليه .

أسباب حراسته ﷺ بالمدينة

الوجه الثاني: إن حراسته ﷺ بعد الهجرة كانت جميعـــها لأسبـــاب خاصة . وباستقصاء الأسباب الخاصة لحراسة رسول الله ﷺ في المدينـــة نراها إمَّا في أول مقدمه المدينة كما في حديث عائشة رضي الله عنها عند البخاري أنها قالت: " أرق النبي ﷺ ذات ليلة فقال: «ليت رجلاً صالحاً من أصحابي يحرسني الليلة » إذ سمعنا صوت السلاح قال: « من هذا ؟ » قال سعد: يا رسول الله جئت أحرسك، فنام النبي ﷺ حتى سمعنا غطيطه "[٦٠] وهو في مسلم عنها بلفظ " سهر رسول الله ﷺ مقدمه المدينة ليلة فقال: .. "[٦١] فذكره .

وهو عند الترمذي عنها أيضاً قالت: " كان النبي ﷺ يحرس حتى نزلت هذه الآية ﴿ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ فأخرج رسول الله ﷺ- رأسه من القبة فقال لهم: « يا أيها الناس انصرفوا فقد عصمني الله »[٦٢] .

حراسة أبي أيوب رسول الله ﷺ ليلة بنائه بصفية

أو أن تكون أسباب حراسته ﷺ أموراً داخلية.خاصـــة به كمـــا في حراسة أبي أيوب ﷺ لرسول الله ﷺ ليلة بنائه عليه الصلاة والسلام بصفية وهو عائد من خيبر فقد بيّن أبو أيوب سبب حراسته لرسول الله ﷺ حين

---

[٦٠] صحيح البخاري [٩: ١٠٣- ١٠٤] .

[٦١] صحيح مسلم [٤: ١٨٧٥] بتحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

[٦٢] سنن الترمذي [٥: ٢٥١] .

سأله رسول الله ﷺ عن حراسته له فقال أبو أيوب: " خفت عليك من هذه المرأة وكانت امرأة قتلت أباها وزوجها وقومها وكانت حديثة عهد بكفر فخفتها عليك "[٦٣] فقال رسول الله ﷺ: « اللهم احفظ أبا أيوب كما بات يحفظني »[٦٤] .

أو أن تكون وقائع حربية كما في حراسته ﷺ في بدر وأحد والخندق وحنين وغيرها من المشاهد الحربية .

مشروعية حراسة ولي الأمر

وهذه جميعها أمور يجب أن يحرس فيها الإمام والقائد، ورسول الله ﷺ كان يعلم قطعاً في هذه الحراسات الخاصة أنه معصوم ولكنه طلبها أو أقرها تشريعاً لأمته وحماية لكيان الجيش من التفرق وفي هذا يقول الحافظ ابن حجر نفسه: " وإنما عانى النبي ﷺ ذلك مع قوة توكله للاستنان به في ذلك، وقد ظاهر بين درعين مع أنهم كانوا إذا اشتد البأس كان أمام الكل وأيضاً فالتوكل لا ينافي تعاطي الأسباب لأن التوكل عمل القلب وهي عمل البدن .. وقد قال عليه الصلاة والسلام: « اعقلها وتوكل ».. قال: وقال القرطبي: ليس في الآية ما ينافي الحراسة كما أنه ليس في إعلام الله نصر دينه وإظهاره ما يمنع الأمر بالقتال وإعداد العدد "[٦٥] .

أما حديث عائشة السابق فاختلاف ألفاظ الروايات فيه تشير إلى أنها حدثت أولاً عن أمر سمعته من غيرها كما في حديث الترمذي- وهذا هو ما ذكرت فيه نزول الآية وهو محتمل احتمالاً قوياً أن يكون في مكة

---

(٦٣) البداية والنهاية [٤: ٢١٢] .

(٦٤) نفس المرجع .

(٦٥) فتح الباري [٦: ٨٢] .

فلا حجة فيه لمن يتمسك بمدنية الآية لأنه كما " لا يخفى ليس بنص في المقصود "(٦٦) كما قال الألوسي في تفسيره .

وهي رضي الله عنها تحدثت مرة أخرى عما رأته وشاهدته وكانت فيه مع رسول الله ﷺ بدليل رواية الإمام أحمد " وهي إلى جنبه "(٦٧).

وثوق الرسول ﷺ بعصمة الله له

ومما يؤيد القول بمكيتها ما كان يجابه الرسول ﷺ به المشركين من شديد القول ومؤلم الزجر والإنذار، وبروزه وتعرضه لهم في ساعات استطارة الشر واستعار الغضب غير هائب ولا خائف منهم ذلاً ولا غلبة، فقد قال ﷺ لابنته زينب رضي الله عنها- لما بكت عليه حين رأت إطباق المشركين على أذاه وتطاولهم عليه في مجمع من الناس بمكة في موسم حج من مواسمها فجاءته مذعورة تحمل إليه ماء وقد بدا نحرها من شدة الخوف عليه- مطمئناً إياها: « يا بنية خمري عليك نحرك ولا تخافي على أبيك غلبة ولا ذلاً »(٦٨) وفي عيون الأثر وسيرة ابن هشام « يا بنية لا تبكي فإن الله مانع أباك »(٦٩) .

فهذا يدل بما لا مجال للريب فيه أنه ﷺ كان على يقين من عصمة الله تعالى له من جميع ما يكيدون ويدبرون .

ظهور القول بمكية ﴿ وَٱللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ ﴾

وأيضاً فإن القول بمدنية هذه الآية مع ما في أسلوبها من شدة الأمر بالتبليغ والتحريض عليه والتوعد على التقصير فيه يتنافى مع ما كان عليه

---

(٦٦) روح المعاني [٦: ١٩٩] .

(٦٧) مسند أحمد [٦: ١٤١] .

(٦٨) كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال [١٢: ٤٥٠] .

(٦٩) عيون الأثر [١: ١٣]، سيرة ابن هشام [٢: ٢٦] .

رسول الله ﷺ في المدينة من عزة ومنعة مكنته من الوفور على التبليغ ونشر الدعوة بقوة ونقلها إلى خارج المدينة التي هو فيها سيد الموقف وبيده المبادأة متى أرادها . بل كيف يتأتى القول أن تنزل عليه آية العصمة من الناس في المدينة وهو للعصمة أحوج في مطلع الرسالة منه إليها في آخرها وسورة " المائدة من آخر القرآن تنزيلاً .. "[٧٠] .

وتأييده ﷺ في المدينة بالمؤمنين ظاهر في قوله تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴾[٧١] فلا معنى لإخباره- على القول بمدنية آية العصمة من الناس- بعصمته من الناس وقد عرفه قبلاً أنه مؤيد بنصره وبالمؤمنين .

وتعليل ابن كثير نكارة حديث جابر بن عبد الله- في بعث أبي طالب حراساً مع رسول الله ﷺ- بأن" هذه الآية مدنية وهذا الحديث يقتضي أنها مكية "[٧٢] غير مسلم لأن دعواه مدنية هذه الآية لم يقم عليها دليلاً سوى ما يظهر من أنها موجودة في نظم التلاوة في سورة مدنية .

ووجود الآية في سورة مدنية لا يستلزم كونها مدنية، لأن كثيراً من الآيات المكية وضعت توقيفاً منه ﷺ في سور مدنية وكثيراً من الآيات المدنية وضعت توقيفاً في سور مكية .

---

[٧٠] فتح القدير: للشوكاني [٢: ٦٢] .
[٧١] سورة الأنفال: آية ٦٢ .
[٧٢] تفسير ابن كثير [٢: ٧٨] .

وبهذا أيضاً يرد على القرطبي فيما ذهب إليه من أن حديث ابن عباس ﷺ- الذي سبق أن سقناه- يقتضي مكية هذه الآية والسورة مدنية بإجماع[٧٣]. فمدنية السورة لا يمنع من وجود آية أو آيات مكيات فيها .

ودعوى أبي حيان في البحر[٧٤] أن مكية هذه الآية يجعلها أجنبية بالنسبة لما قبلها وما بعدها لأنه في قصة اليهود والنصارى- غير مسلمة أيضاً لأن وجود آية بين آيات منسجمة معها في المعنى متسقة في الربط والتناسب لا يلزمه اتحاد زمن نزول هذه الآيات إذ كثيراً ما تكون الآية مكية لكنها مناسبة لمعاني آيات مدنية اقتضت وضعها بينها توقيفاً من رسول الله ﷺ .

وبهذا البيان الذي صور حالة الرسول ﷺ في مطلع رسالته وموقف أعدائه المشركين منه ومن دعوته وانتصابهم لإيذائه وإيذاء أصحابه وإقامة العوائق أمامه في دعوته وما كان يضيق به صدره الشريف- بما يترل عليه من آيات تعيب المشركين وتسفه أحلامهم،وأحلام آبائهم وتعيب آلهتهم- من أمره بتبليغ رسالته مهما يكن فيها من شدة على المشركين يفهم ماجاء في آيات وصفت ضيق صدره ﷺ بما أنزل إليه من ربه ونهيه عن هذا الضيق وهي التي أطلقنا عليها آيات عتاب التوجيه .

---

[٧٣] تفسير القرطبي [٦: ٢٤٤] .

[٧٤] البحر المحيط [٣: ٥٣٠] .

القسم الأول من عتاب التوجيه

بينا- فيما سبق- أن المقصود من الحالة الأولى من حـــالتي عتـــاب التوجيه لسيدنا رسول الله ﷺ هي إشعاره ﷺ بتحميله أمانة القيام بتبليغ رسالته، وتقوية عزيمته في تبليغ ما يترل عليه من آيات القرآن الكريم مهما بلغ ما فيها من شدة الإنذار والزجر والتهديد وعيب الشرك ومعتنقيه، ومن مات عليه .

وبالنظر في آيات القرآن الكريم ومطابقتها لوقـــائع ســـير الرســـالة وتبليغها- مع عدم الجزم بترتيب نزول الآيات- رأينا أن نقـــف في هـــذا الترتيب مع وقائع التبليغ التي وردت بها الأحاديث الثابتة في بيان اختلاف مواطن التبليغ، ونشر الدعوة .

فكانت الآيات التي تعبر عن ضيق صدر النبي ﷺ في مطلع الرســـالة ومباديها، هي المقصودة بالحديث عن توضيح هذه الحالة، وما جاء فيها من عتاب .

وأبين موضع يمثل هذه الحالة- في نظرنا- صدر سورة الأعراف وهو قوله تعالى: ﴿ الٓمٓصٓ ۝ كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ لِتُنذِرَ بِهِۦ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾[٧٥] .

فالكتاب في أسلوب الآية الكريمة هو القرآن الكريم، لأن المخاطب هو المترل إليه الكتاب، وهو سيدنا رسول الله ﷺ خاتم النبيين والمرسلين .

---

[٧٥] سورة الأعراف: آية ١- ٢ .

فالكتاب بنص الآية هو القرآن الكريم، وعلى ذلك أجمع المفسرون وتفريع النهي عن أن يحرج صدر رسول الله ﷺ بهذا المنزل إليه هو موضع إفادة عتاب التوجيه للرسول ﷺ في الآية الكريمة .

الحرج لغة

والحرج في اللغة هو الضيق الشديد الذي لا يوجد معه في الصدر منفسح، مأخوذ من قولهم " حرجة للشجرة تكون بين الأشجار لا تصل إليها الآكلة "(٧٦) قال أبو زيد(٧٧): " سميت بذلك لالتفافها وضيق المسلك فيها "(٧٨) .

قال الزجاج(٧٩) في معاني القرآن: " الحرج في اللغة أضيق الضيق "(٨٠) وقال ابن الأثير- في النهاية-: " الحرج في الأصل الضيق "(٨١) .

وقد اختلف المفسرون في المراد بالحرج في الآية الكريمة، فذهب كثير منهم إلى أن المراد بالحرج في الآية الكريمة معناه اللغوي: وهو الضيق الشديد .

---

(٧٦) لسان العرب مادة (حرج) .

(٧٧) سعيد بن أوس الأنصاري (١١٩- ٢١٥هـ) أحد أئمة الأدب واللغة، ومن كتبه (النوادر) في اللغة .

(٧٨) لسان العرب مادة (حرج) .

(٧٩) هو إبراهيم بن السري (٢٤١- ٣١١هـ) من علماء النحو واللغة .

(٨٠) معاني القرآن وإعرابه: للزجاج [٢: ٣١٩] شرح وتحقيق د/ عبد الجليل شلبي . منشورات مكتبة العصر، بيروت .

(٨١) النهاية [١: ٣٦١] .

وذهب غيرهم إلى أن الحرج في الآية معناه الشك . وهذا معنى مجازي للحرج . ثم بيّن القائلون بأن الحرج معناه الشك- لأن الشاك ضيق الصدر حرجه كما أن المتيقن منشرح الصدر منفسحه[٨٢]- وجهتـهم بيـد أن عباراتهم اختلفت في المشكوك فيه فقال فريق: " لا تشك في أنه مترل من الله "[٨٣] . وقال فريق: " لا تشك في لزوم الإنـذار بـه "[٨٤] . وقـال آخرون: " لا تشك في عدم القدرة على القيام بأدائه وتبليغه "[٨٥] .

ولا وجه للصيرورة إلى المعنى المجازي في الآية مع إمكان المعنى اللغوي الحقيقي فيها، إذ الأخذ بالمعنى الحقيقي للكلمة هو الأصل ولا يعدل عنـه إلا لقرينة مانعة من الأخذ به، فما بالك والمعنى في هذه الآية يحتم الأخـذ بالحقيقة، لأن الرسول ﷺ معصوم من الشك علـى أي مـن الـوجهين المذكورين في أن القرآن من عند الله أو في عدم لزوم الإنذار به .

ولعل هذا هو مراد أبي حيان في البحر من قوله- بعد أن أورد القول بتفسير الحرج بالشك-: " وهو تفسير قلق "[٨٦] وهو بلا ريب أحرى بهذا الوصف وأكثر منه .

---

[٨٢] الكشاف: للزمخشري [٢: ٦٦] .

[٨٣] الكشاف [٢: ٦٦] .

[٨٤] أحكام القرآن: للجصاص [٣: ٣٥] .

[٨٥] غرائب القرآن: للنيسابوري [٨: ٥٧] بهامش تفسير الطبري، الطبعة الأولى عام ١٣٢٧هـ .

[٨٦] البحر المحيط [٤: ٢٦٦] . .

وليس معنى هذا امتناع أن يراد معنى مجازي للحرج يليق بمقام الآية كتفسير من فسر الحرج بالخوف من التكذيب، لأن هذا الخوف مع متعلقاته لازم من لوازم ضيق الصدر الطبعي ولا تمنع منه العصمة .

وليس في روايات ترتيب السور، ولا في أسباب النزول ما يقطع بوقت نزول سورة الأعراف في مكة، والمعهود أن السورة ولا سيما الطول من القرآن لا تنزل آياتها دفعة واحدة، و لم يقل ذلك إلا في الأنعام، فالاحتمال قائم على أن مطلع سورة الأعراف- ومنه الآية التي هي موضع البحث هنا- من أوائل ما نزل من القرآن الكريم بعد الآيات التي قطعت الروايات الصحيحة بأنها أول ما نزل من القرآن العظيم كآيات أوائل سورة " اقرأ " وأوائل سورة " المدثر " .

والنظر في الآية التي معنا يفيد- بما احتف به من قرائن كثيرة وما جاء من روايات قدمنا ذكرها وتحقيق ما فيها من ضيق صدر رسول الله ﷺ في مطلع هذا البحث- أن هذه الآية مما نزل في أوائل الأمر بالإنذار العام- أي في الوقت الذي كان يعتري رسول الله ﷺ فيه ضيق صدره من تبليغ ما أنزل إليه، لأن النهي عن الحرج في الآية يقتضي أن يكون وارداً على سبب اقتضاه .

والذي دلت عليه الروايات التي يمكن أن تكون تفسيراً لهذه الآية هو أن رسول الله ﷺ لما أعلم أنه رسول الله إلى الناس وأن عليه أن يبلّغ رسالة الله إلى خلقه منذراً بها، وداعياً إليها، وهادياً إلى أحكامها وشرائعها ضاق بها ذرعاً، وتهيّب مواجهة الناس بما أنزل إليه فصمت و لم يسرع إلى التبليغ، فنزل عليه جبريل عليه السلام، وأخبره أنه إن لم يبلغ أمر ربه عرّض نفسه لعذابه.

وسبق أن أوردنا من الأدلة على هذا ما فيه الكفاية .

وليس بدعاً أن يخاف رسول الله ﷺ قومه، وإعراضهم عن دعوة الحق التي بعثه الله بها، وفيهم من المكر والخديعة ما وصفهم الله تعالى به بقوله ﴿ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴾[٨٧] وقد كان من الرسل من أولى العزم قبله من كان يخاف تكذيب قومه لشدة ما كان يتوقعه منهم من تكذيب وأذى، كما حكى الله تعالى ذلك عن سيدنا موسى عليه الصلاة والسلام بقوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴾[٨٨] .

الغرض من النهي عن الحرج من الإنذار بالقرآن

فالنهي عن الحرج في آية الأعراف هذه بيان لما يجب أن يكون عليه رسول الله ﷺ من المسارعة في تبليغ ما أنزل الله إليه مهما بلغ ما فيه من تنفير الكافرين وتباعدهم عنه، وما فيه من شدة عليهم لما اشتمل عليه من تسفيه أحلامهم الضالة عن هدى الله تعالى، وعيب آلهتهم وانتقاص آبائهم بما ارتكبوه من جريمة الشرك والإعراض عن توحيد الله .

كما أن النهي هنا يتضمن أمراً برفع الحرج من الصدر لأنه إذا لم يحرج صدره منهم استطاع تبليغهم ما أراده الله منه .

وتَهيُّبه ﷺ منهم مخالف لهذا الإيجاب، فلذلك نهاه الله تعالى نهياً متضمناً لسرعة الإقدام على التبليغ، والتذرُّع بالصبر والاحتمال لما يلقى من شدة الكافرين .

---

(٨٧) سورة إبراهيم: آية ٤٦ .

(٨٨) سورة الشعراء: آية ١٢ .

هذا جريٌ على تعلّق قوله تعالى ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ بالفعل المنهي عنه في قوله ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ .

وجملة المعنى على هذا هو أن الله تعالى ينهى رسول الله ﷺ عن أن يضيق صدره بالقرآن ليتحقق ما أنزل من أجله وهو الإنذار للمعاندين- الجاحدين والذكرى للمؤمنين الذي يستتبع بصد الكافرين وصدودهم عنه تنفيرهم وابتعادهم عنه وترغيب المؤمنين وتذكيرهم بنعم الله عليهم ليستديموا موجبات الإيمان من الشكر والثبات على الحق .

وفيه وجه آخر وهو تعليق قوله ﴿ لِتُنذِرَ بِهِۦ ﴾ بقوله ﴿ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ (٨٩) وجاءت جملة النهي ﴿ فَلَا يَكُن فِى صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ ﴾ متوسطة بين السبب وهو" الإنذار به" والمسبب وهو" الإنزال إليه" تقريراً لما قبله (وهو الإنزال إليه المقتضى عدم ضيق صدره منه)، وتمهيداً لما بعده "(٩٠) وهو لتنذر به، وذكرى للمؤمنين .

وجملة المعنى على هذا الوجه هو أن الله تعالى يخبر رسوله ﷺ بأنه أنزل إليه الكتاب لينذر به، وهذا مقتض للإلزام بالإنذار به فكأنه قيل لرسول الله ﷺ: كتاب أنزل إليك لتنذر به فأنت بمقتضى رسالتك المعنونة بإنزال الكتاب إليك ملزم بالإنذار به مهما بلغت آياته من الشدة في تنفير الكافرين عنك .

---

(٨٩) معاني القرآن وإعرابه: للزجاج [٢: ٣٤٧]، الكشاف: للزمخشري [٢: ٦٦] .

(٩٠) تفسير أبي السعود [٢: ١٥٤] .

من جميل التلطف في الخطاب برسول الله ﷺ

ولما كان في هذا الخطاب شيء من الشدة على رسول الله ﷺ تلطف الله به وجعل إلى جانب الإنذار للمعاندين الجاحدين من الكافرين ذكرى للمؤمنين المستجيبين، فقال تعالى: ﴿ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴾ فكأن إنزال الكتاب اشتمل على أمرين عظيمين:

الأمر الأول: دفع رسول الله ﷺ بقوة إلى إنذار الكافرين بما يترل إليه من الآيات .

والثاني: تسليته ﷺ في مقام إقدامه على التبليغ بأن الكتاب المترل إليه ذكرى للمؤمنين يذكرهم بفضل الله وإنعامه وإحسانه إليهم بما هداهم إلى الإيمان .

أما أن هذا العتاب من قبيل (عتاب التوجيه) فلأنه قصد به نقله عليه الصلاة والسلام من حالة التهيب والتأني في التبليغ إلى حالة الدفع والإقدام على تبليغ ما أنزل إليه تقوية لعزيمته وحفزاً لإرادته على التحمل فكأن الله تعالى يقول لرسوله ﷺ ليكن لك من قوة الإرادة وصلابة العزيمة ما يجعلك لا تبالي بهؤلاء المشركين وإيذائهم وسفاهتهم، وما يجعلك فسيح الصدر لا يضيق صدرك بما يضربونه لك من أمثال ولا بما يقولون من تكذيبك وصد عن سبيل دعوتك، وما عليك إلا أن تنذرهم بطشتنا وبأسنا لعلهم يثوبون فيزدجروا مرتدعين عن ضلالهم وكذلك لتنذر به المؤمنين الذين فتح الله قلوبهم للهداية وقبول الإيمان .

ثانية آيات العتاب التوجيهي

وثانية آيات العتاب التوجيهي لسيدنا رسول الله ﷺ- بحسب ما وصل إليه بحثي- هي قوله تعالى- في سورة هود- ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعْضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَضَآئِقٌۢ بِهِۦ صَدْرُكَ أَن يَقُولُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ كَنزٌ أَوْ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌ ۚ إِنَّمَآ

أَنتَ نَذِيرٌۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٌ ﴾[٩١] فقد جاءت هذه الآية الكريمة بعد أن بيّن الله تعالى حال الإنسان الذي تبطره النعمة ويضجره سلبها، بأنه إذا نزعت منه نعمة- من صحة وأمن ومال وجاه وولد وغيرها مما كان يتمتع بها-بسبب كفره بها وعدم شكره الله عليها، فإنه ييأس من روح الله تعالى، ويقطع رجاءه منه، لعتوه في كفره، وأنه إن ذاق نعماء بعد ضراء مسته نسي ما كان فيه من شدة وبؤس، فبطر وأشر بما أنعم الله عليه، فهو بذلك فخور على الناس منشغل به عن أن يقوم بحقه .

و لم ينج من هذه الصفات السيئة إلا الصابرون على الضراء متى حلت بهم إيماناً بالله واحتساباً لثوابه واستسلاماً لقضائه العـاملون الـصالحات فهؤلاء هم المبشرون بمغفرة من الله لذنوبهم وأجر كبير ، وسيـد هـؤلاء سيدنا محمد ﷺ فقد كان المثل الأعلى في الصبر الجميل والصفح العظيم .

فإقامة الوصف- (صبروا)- في المستثنى- وهو صلة الموصول مقـام الموصوف وأصله (آمنوا) بدلاً من صبروا- ترغيـب للرسـول ﷺ في استدامة ما هو عليه من التذرع بجميل الصبر وقوة الاحتمال في سبيل تبليغ رسالته ونشر دعوته .

فكان ما سبق قوله تعالى ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ الآية إعداداً وتهيئة لقبول ما جاء فيها بصدر رحب وقوة لا تقادر للنهض بتبليغ جميع ما أنزل الله إليه، ولذلك" صدرت بالفاء تفريعاً على ما سبق من الرد عليه، والاستهزاء به، تنبيهاً على سببية ذلك"[٩٢] في الإشفاق عليه وتحذيره

---

[٩١] سورة هود: آية ١٢ .

[٩٢] حاشية القونوي على تفسير البيضاوي [٤: ٢٠٧] .

مما يلحقه، بما تضمنه الاستثناء الذي يقضي بمطالبة الرسول ﷺ أن يكون صبره فوق كل صبر كما يشير إلى ذلك وضع " صبروا " مكان " آمنوا ".

ما يدل عليه التعبير بـ (لعل) في هذه الآية

كما صدرت بـ(لعل) الدالة على الإشفاق المتضمن لمحبة المشفق - بكسر الفاء- للمشفق عليه وتحذيره مما يلحقه من الرد عليه والاستهزاء به والإعراض عن دعوته، تلطفاً برسول الله ﷺ في (أنه بلغ من حاله في بذل الجهد في تبليغهم مثل حال من يرجون منه أن ييأس منهم فيترك بعض ما يوحى إليه)[٩٣] مما فيه تسفيه لأحلامهم، وسب لآلهتهم وعيب لآبائهم.

وهذه الآية تجري في شوط آية الأعراف- التي قدمنا الحديث فيها- من جهة أن فيها ذكراً لضيق صدر رسول الله ﷺ ضيقاً بلغ من شدته أن يكون في حالة من يتوقع منه أعداؤه أن يترك بعض ما أنزل إليه لشدة ما بذل من جهد في الأداء دون أن يثمر فيهم .

وقد استروح ناصر الدين ابن المنير في انتصافه على الكشاف بآية هود هذه على تفسير الحرج بالضيق في آية الأعراف .[٩٤]

كما استروح إليه الألوسي- في روح المعاني فقال- بعد أن فسر الحرج بالضيق: " ويشهد لهذا التأويل قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكٌۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ وَضَآئِقُۢ بِهِۦ صَدۡرُكَ أَن يَقُولُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ كَنزٌ أَوۡ جَآءَ مَعَهُۥ مَلَكٌۚ ... ﴾ الآية "[٩٥] .

---

[٩٣] روح المعاني: للألوسي [١٢: ١٩] (بتصرف) .

[٩٤] انتصاف ابن المنير بهامش الكشاف [٢: ٦٦] ط/ الحلبي عام ١٣٨٥هـ .

[٩٥] روح المعاني: للألوسي [٨: ٧٥] .

وهذا المعنى العام يجمع بين هاتين الآيتين آية سورة الأعـــراف وآيـــة سورة هود هذه .

وهذا يقتضي مكية آية سورة هود هذه خلافاً لمن زعم أنها مدنية مخالفاً بذلك رأي الجمهور، وهو الذي يتمشى مع مبنى هذه السورة كلها في أنها من قبيل إرشاد الله تعالى نبيه ﷺ إلى كيفية الدعوة من مفتتح السورة إلى مختتمها كما صرح بذلك صاحب الكشف فيما نقله عنه الألوسي في روح المعاني[٩٦] .

وقد بينا ما اختصت به آية سورة الأعراف من تعليل النـــهي عـــن ضيق الصدر بالإنذار والتذكير، أما هنا في آية سورة هود هذه فنرى ضيق الصدر معللاً بأن المشركين أرادوا من رسول الله ﷺ أن يتطلع إلى زخارف الدنيا ليجذب بها قلوب المدعوين إلى الله، فكانوا يقولون لولا أنزل عليـــه كنز ينفق منه على دعوته ويجتذب به القلوب ويستغني به هو وأصحابه في كسب الأنصار، ويشتري به النفوس، ويستهوي به القلوب .

فإلا يكن معه كنز فليكن معه ملك يشهد برسالته وصدقه في دعوته .

وقد جاءهم الرد من الله تعالى على هذا التعنت، والعنـــاد والمكـــابرة بالباطل ببيان مهمة الرسول ﷺ، وأنه في دعوته ورسالته ما هو إلا نـــذير للكافرين يخوفهم بطش الله تعالى وانتقامه، ويلفت نظرهم إلى مـــا وقـــع على أمثالهم من الأمم السابقة الذين أخذهم الله بذنوبهم فلم يتـــرك لهـــم من باقية .

---

[٩٦] روح المعاني [١٢: ١٩] .

وهذا الرد شبيه بالرد عليهم فيما تعنتوا به من مقترحات عنادية وطلب آيات لمحض التعنت والعناد، كما جاء في سورة الإسراء- بعد أن حكى الله تعالى ما طلبوه متعنتين- بقوله تعالى: ﴿ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولاً ﴾[٩٧] .

ثم بيّن لهم أن ما اقترحوه من آيات لم يقصدوا به الإيمان ولو قصدوه لكان في آية واحدة منه غنية عن جميع الآيات المقترحة وقد نزل عليهم القرآن، وتحداهم به، وقال الله تعالى في شأنهم: ﴿ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ﴾[٩٨] وإن إجابة هذه المقترحات ليس من شأن الرسول ﷺ، ولا من مهمته، وإنما هي من شأن الله تعالى الوكيل على النفوس، الحفيظ عليها، المحصي لأعمالها لمجازاتها في يوم تجزى فيه كل نفس بما كسبت .

ومن هنا جاء ختم هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ ﴾ حاملاً رفع مسئولية إدخالهم في الهداية عن رسول الله ﷺ وتهديداً قوياً، ووعيداً شديداً للكافرين الجاحدين لتوحيد الله الخارجين عن طاعة رسول الله ﷺ .

موطن العتاب في هذه الآية الكريمة

فموطن العتاب في آية هود هو التشابه الذي بينها وبين آية سورة الأعراف كما بيناه مفصلاً فيماسبق ودليله في أسلوب الآية الكريمة التفريع بالفاء الداخلة على " لعل " التي أريد منها التلطف بالنبي ﷺ والإشفاق

[٩٧] سورة الإسراء: آية ٩٣ .

[٩٨] سورة العنكبوت: آية ٥١ .

عليه وتحريك عزيمته وتهييج مشاعره على الثبات أمام ما يلقاه من فوادح الإيذاء والتقول المفترى والتعنت بالمقترحات الباطلة التي رد عليها بما أنزله الله عليه لبيان مهمته بقوله ﴿ إِنَّمَآ أَنتَ نَذِيرٌ ﴾ وقوله ﴿ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾[٩٩] .

وأما أن هذا العتاب من قبيل عتاب التوجيه فهذا ظاهر حيث لم يعقب بمايشعر بلوم أو مؤاخذة وإنما هو محض إرشاد وتوجيه وتبيان لمعالم الطريق التي ينبغي لرسول الله ﷺ سلوكها في تبليغ رسالته .

***

الآية الثالثة

ومن نحو آية سورة هود قوله تعالى- في سورة الحجر- ﴿ وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴾[١٠٠] في أنها تصف النبي ﷺ بضيق الصدر مما يقولون .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق الحديث عن أعداء رسول الله ﷺ، وأعداء دعوته المستهزئين المتربصين برسالته الدوائر بعد أن أمره الله تعالى بالصدع بأمر الدعوة، وأن يعرض عن المشركين .

وعقب آية أمره بالصدع بالدعوة بتبشيره ﷺ بأنه تعالى قد أزال من طريقه أولئك المستهزئين الماكرين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر، فكفاه إياهم، ففسح بذلك أمره، ورفع من سبيله ما كان يراه عسراً فلا يضيق

---

[٩٩] سورة الحج: آية ٤٩ .

[١٠٠] سورة الحجر: آية ٩٧ .

صدرك أيها الرسول بما يقولون من هجر[١٠١] القول والتكذيب والاستهزاء والسخرية بك،وبدعوتك التي أرسلك الله بها لتخرجهم من ظلمات جهالة الشرك، والوسية إلى نور الإيمان والتوحيد، ولا يشغل قلبك أمرهم، فيدخل عليه هماً أو غماً، ويقتطع شيئاً من وقتك فاصرف قلبك عن ذلك، وتوجه إلى الله تعالى بكثرة التسبيح له والسجود لجلاله يكفك ويكشف عنك كل ما يعترض سبيلك من معوقات، ويرفع عنك كل ما تجده من ضيق وحزن لمجرد ما تسمع من مقالات كاذبة تصدر عن أعدائك المشركين .

وتختلف هذه الآية الكريمة عن الآيتين السابقين في أن ضيق الصدر فيها جاء معللاً "بما يقولون" وبيّن في آية سورة هود بعض قولهم، كما بيّن في سور أخرى، وجعل التعليل في آية سورة الأعراف بالإنذار بالكتاب المترل عليه، والتذكير به .

وما يقولون محتمل أن يكون من قبيل قولهم في آية سورة هود، ومـــا جاء في مثيلاتها في السور الأخرى .

والإبهام هنا- بعدم ذكر ما يقولون- مخفف لوطأة الخطاب، بل يجعل فيه تلطفاً برسول الله ﷺ يقتصر على التذكير بما كان في صدر رسول الله ﷺ، وإنه يراد لهذا الضيق أن يزول فلا يبقى له أثر في صدره الشريف بدليل التفريع بعده في قوله تعالى: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ ۝ وَٱعْبُدْ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ ٱلْيَقِينُ﴾[١٠٢] .

---

[١٠١] الهجر- بضم الهاء وسكون الجيم-: القبيح من الكلام .

[١٠٢] سورة الحجر: آية ٩٨-٩٩ .

موطن العتاب فيها

وموطن العتاب في هذه الآية الكريمة أنها كآية سورة هود وآية سورة الأعراف ذكر فيها ضيق صدر رسول الله ﷺ بقول المشركين المستهزئين، وتكذيبهم إياه، وتطلبهم منه- في آية سورة هود- أن يتجه إلى زخارف الدنيا ليكون له منها ما يجتذب به القلوب ويشتري العقول .

وأما كونه من قبيل عتاب التوجيه فلأنه عقب بطلب التسبيح والتقديس والاستغراق في التفكر في جلال الله تعالى وعظمته ليذهب عنه ما يجد من ضيق الصدر، و لم يعقب بما يدل- من قريب أو بعيد- على ملامة- وحاشاه منها- أو مؤاخذة .

عتاب الدفع وتقوية العزيمة

ومما يلحق بآيات عتاب التوجيه- في نوعه الأول (عتاب الدفع وتقوية العزيمة)-ما ورد من آيات فيها النهي عن الحزن،وعن ضيق الصدر بسبب مكر الماكرين من المشركين .

وذلك في آيتين:

الأولى: في آخر سورة النحل- وهي مكية إلا أن هذه الآية وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾[١٠٣] والتي قبلها والتي بعدها، فإنها كما تقول روايات أسباب الترول نزلت في قصة استشهاد سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب عم رسول الله ﷺ في غزوة أحد .

---

[١٠٣] سورة النحل: آية ١٢٧ .

وقد ضعّف علماء الحديث ما جاء في قصص السيرة وأسباب النزول[١٠٤] من أن رسول الله ﷺ أراد التمثيل بأحد من المشركين الذين مثلوا بسيدنا حمزة ﷺ إذا ما ظفر بهم يوماً .

والثانية: قوله تعالى- في سورة النمل- ﴿ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُن فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾[١٠٥] وهذه مع وحدة الأسباب والألفاظ التي تجعلها في وحدة مع آية سورة النحل جاءت في سياق إنكار المشركين للبعث، وتوعد الله تعالى إياهم بأنه سيوقع بهم ما أوقع بمن قبلهم ممن كانوا على مثل قولهم في إنكار البعث والشرك بالله تعالى والمكابرة .

ولذلك سبقها قول الله تعالى ﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا وَءَابَآؤُنَآ أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ﴿٦٧﴾ لَقَدْ وُعِدْنَا هَٰذَا نَحْنُ وَءَابَآؤُنَا مِن قَبْلُ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٦٨﴾ قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴾[١٠٦]

وهاتان الآيتان إنما ألحقتا بآيات عتاب التوجيه- في نوعه الأول- لما فيهما من النهي عن الحزن وضيق الصدر تقوية لعزيمة رسول الله ﷺ وتثبيتاً لإقدامه في تبليغ رسالته دون أن يعتريه ما يكون سبباً في تعويق الدعوة إلى الله تعالى ونشرها بين الكافة والخاصة .

---

[١٠٤] انظر في ذلك تفسير ابن كثير[٢: ٥٩٢]، فتح الباري: للحافظ ابن حجر [٧: ٣٧١] .

[١٠٥] سورة النمل: آية ٧٠ .

[١٠٦] سورة النمل: آيات ٦٧-٦٨-٦٩ .

القسم الثاني من عتاب التوجيه

عتاب الإقصار

وهو الذي سميناه عتاب الإقصار والكف عن بعض ما يبذله رسول الله ﷺ من المكابدة في التبليغ إبقاء عليه أن يبخع نفسه الشريفة ويقتلها .

كان ما نزل من الآيات في عتاب الدفع وتقوية العزيمة لرسول الله ﷺ مشاعل من النور وقوة في دفع رسول الله ﷺ في تبليغ دعوته، وعدم المبالاة بما يلقى في سبيلها من تكذيب، وإيذاء وبلاء، كان يتخطاه رسول الله ﷺ بقوة عزيمته، وصارم إرادته، لا يبالي بما يكون، ولا بما يناله من آثار ذلك، ولا يوئسه منهم إعراضهم، وصدفهم عن قبول دعوته، وصدودهم عن الاستماع إلى مايترل إليه من آيات ربه، بل كان دؤوباً صادق العزم، قوي الإرادة حتى بلغ من شدة حرصه عليهم ما كفه الله تعالى عن بعضه وأمره بالتخفيف منه قليلاً ليكون دائماً على أهبة التبليغ، ونشر الدعوة، فلا يؤخره صد منهم عن سبيل الله، ولا إعراض عنه .

وكان ذلك جهداً فوق طاقته ﷺ ولكنه مهد السبيل لسير الدعوة، وتبليغها رغم ما كان فيه من إجهاد لطاقة رسول الله ﷺ، فتلطف الله به وأنزل عليه آيات للإقصار والكف عن المبالغة في الجهد حتى لا يصيبه ﷺ من المشاق والمتاعب، والنصب ما يعوق الرسالة عن سيرها، فكان ذلك ما قصدناه من عتاب الإقصار والكف .

آيات عتاب الإقصار

وقد تمثل هذا القسم في ثلاث آيات من القرآن الكريم حسب ما وصلنا إليه في البحث .

الآية الأولى- في أول سورة الكهف- هي قوله تعالى: ﴿ فَلَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا ﴾[١٠٧] .

الآية الثاني- في أول سورة الشعراء- هي قوله تعالى: ﴿ لَعَلَّكَ بَٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[١٠٨] .

الآية الثالثة- في سورة فاطر- هي قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[١٠٩] .

أما الآية الأولى- آية سورة الكهف- فوردت في سياق آيات بينت أن الحمد لله الذي أنزل الكتاب المستقيم الذي لا التواء في نظمه، ولا تهافت في معانيه وأحكامه، ولا اختلاف في حقائقه قيماً بمصالح العباد الدينية والدنيوية، وافياً بها، مصدقاً لما قبله من الكتب وشاهداً بصحتها[١١٠] .

تضمُّن القرآن وجوه الخير

أنزله على عبده ورسوله سيدنا محمد ﷺ، فهو يوجهه به لما فيه خيره وخير دعوته، والمدعوين إليها، مرة بدفعه وشد عزيمته في سبيل التبليغ، وأخرى بإقصاره فيه للوقوف به عندما أمره به من تبيين أسباب الهداية، وفائدتها في العاجلة والآجلة، وترك ما وراء ذلك لله تعالى الذي يحاسب كل نفس بما كسبت .

---

[١٠٧] سورة الكهف: آية ٦ .

[١٠٨] سورة الشعراء: آية ٣ .

[١٠٩] سورة فاطر: آية ٨ .

[١١٠] روح المعاني: للألوسي [١٥: ٢٠١] (بتصرف) .

ثم بينت هذه الآيات الكريمة أن الغرض من إنزال الكتاب هو إنـذار الكافرين، وتحذيرهم من عذاب شديد يترل بهم من عند الله تعـالى إن لم يؤمنوا بوحدانيته ويتبعوا رسوله محمداً ﷺ، وتبشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات بما أعده الله تعالى لهم من أجر حسن في الآخرة، وديمومة لهـذا الأجر العظيم .

ثم تعود الآيات الكريمة لتذكر نوعاً خاصاً ممن عمهم الإنذار السـابق من " مستحقي البأس الشديد إيذاناً بفظاعة، وشناعة كفرهم بالله "[١١١] في تقولهم عليه تعالى بما ليس لهم ولا لآبائهم علم به في افترائهم على أن لله ولداً سبحانه وتعالى عما يقولون علواً كبيراً .

وهنا يوجه الخطاب لسيدنا رسول الله ﷺ فيقول ﴿فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰٓ ءَاثَـٰرِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهَـٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَسَفًا﴾ تفريعاً على ماسبق من إنزال الكتاب إليه، وجعله منذراً، ومبشراً به، وهذه مهمة أداء لا مهمة إرهاق وأحزان، وتوجيهاً له ﷺ إلى أن هؤلاء الكفار عطلوا عقولهم بكفـرهم، وحجبوها عن أن تعرف لخالقها حقه من وجوب الإيمان بـه والإتبـاع لرسوله لا يستحقون أن يؤبه لهم، ولا أن يحزن عليهم ويؤسف .

التلطف والإشفاق برسول الله ﷺ في توجيه الخطاب إليه

لذلك خوطب رسول الله ﷺ بـ" لعل " لما فيها من الإشفاق علـى المخاطب، والتلطف به للعود به إلى ما ينبغي له من الوقـوف عنـده في التبليغ، وجاء الخبر بعدها " باخع نفسك " لبيان ما وصل إليه رسول الله ﷺ من جهد في تبليغ قومه، وحرصه على هدايتهم ، لأن بخع النفس معناه

---

[١١١] تفسير أبي السعود [٣: ٢٣٧] (بتصرف) .

في اللغة قتلها وإهلاكها غماً أو إضعافها[١١٢] فهو لشدة حرصه على إيمانهم، وإشفاقه عليهم، وصل إلى حال من يقتل نفسه وجداً عليهم[١١٣] أو يضعفها بما يبذل من جهد فوق طاقته طلباً أن يتحقق له ما يريد من هدايتهم ودخولهم في حظيرة الإيمان .

وفي التعبير- في الآية الكريمة- بقوله " على آثارهم " مزيد بيان لملاحقته ﷺ لهم، وسعيه في دعوتهم، وهم عنه معرضون وإكمال للصورة التي رسمها قوله ﴿ فَلَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفۡسَكَ ﴾ .

أما قوله ﴿ إِن لَّمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهَـٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَسَفًا ﴾ فبيان لسبب البخع، إذ أن عدم إيمانهم بما جاءهم به هو الذي زادهم بُعداً عنه، وزاده حرصاً عليهم، وأحزنه وأثار الأسف في نفسه خوفاً عليهم انتقام الله تعالى .

موطن العتاب، في الآية

وموطن العتاب في هذه الآية الكريمة في استعمال أداة الإشفاق وهي " لعل " فيما وصل إليه حال رسول الله ﷺ من شدة حرصه ومبالغته في دعوتهم تطلباً لإيمانهم حتى كاد يهلك نفسه أسفاً على عدم إيمانهم بالله واتباع رسوله .

وهذا الإشفاق نظير قوله- في سورة هود- ﴿ فَلَعَلَّكَ تَارِكُۢ بَعۡضَ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيۡكَ ﴾ .

---

[١١٢] مفردات الراغب (ص٣٨)، النهاية لابن الأثير [١: ١٠٢]، لسان العرب مادة (بخع)، معجم مقاييس اللغة لابن فارس [١: ٢٠٧] .

[١١٣] الكشاف: للزمخشري [٣: ٣٧٢- ٤٧٣]، تفسير أبي السعود [٣: ٢٣٨]، روح المعاني: للألوسي [١٥: ٢٠٦] .

وأما أنه من عتاب التوجيه- في قسمه الثاني- فلأنه أريد به إقــصاره وكفه ﷺ عن بعض ما يبذله مما هو فوق طاقته من الجهد في قوم لا يلوح فيهم رجاء .

ثانية عتاب الإقصار

أما الآية الثانية من آيات عتاب التوجيه الإقصاري لكف رسول الله ﷺ عن بعض جهده في تبليغ دعوته إبقاء عليه ورحمة به فهي قوله تعالى - في أول سورة الشعراء - ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ .

وهذه الآية نظيرة لآية سورة الكهف السابقة فهي في لفظها وأسلوبها مماثلة لها .

وكما وردت آية سورة الكهف في سياق خاص أبرز التمهيد للعتاب في الآية هناك، كذلك هنا جاءت الآية في مفتتح سورة الشعراء إثر آية واحدة هي قوله تعالى ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾[١١٤] وهذه الآية تحمل في طياتها من السياق المضمر ما يحمله سياق آية سورة الكهف في التمهيد لإبراز العتاب في صورته التي جاء بها .

وذلك أن قوله تعالى ﴿تِلْكَ ءَايَـٰتُ ٱلْكِتَـٰبِ ٱلْمُبِينِ﴾ معناه في مــضمونه الذي انطوى عليه أننا أنزلنا عليك الكتاب- وهو القرآن الحكيم- كتابــاً مبيناً فاصلاً بين الحق والباطل، وفارقاً بين الخير والشر، وقد أعرض عنــه هؤلاء المشركون فلم يتدبروا آياته، ولم يتعرفوا منازل أحكامه، واستمرؤا العكوف على الشرك والضلال، وحرصت أنت على إيمانهم حرصاً بلغت فيه مبلغ من يشفق عليه، ويرحم أن يبذل نفسه هذا البذل الذي يبخعــها

(١١٤) سورة الشعراء: آية ٢ .

ويهلكها ويضعفها، وذلك تعويق للرسالة لا تبليغ لها .

وقوله تعالى ﴿لَعَلَّكَ بَـٰخِعٌ نَّفْسَكَ﴾ إشفاق من الله تعالى على نبيه ﷺ، له قوة التعليل الضمني في بلوغ رسول الله ﷺ من الجهد ما هو فوق طاقته، وتبليغ الرسالة يقتضي أن يقصر من هذا الجهد ويكف عن بعضه حتى يقوم بواجب تبليغ رسالته على الوجه الأكمل دون أن يلحقه ما يضر بصحته .

وقوله ﴿أَلَّا يَكُونُوا۟ مُؤْمِنِينَ﴾ مفعول لأجله معمول لباخع[١١٥]، والمعنى: لعلك في هذا الجهد الشديد قاتل نفسك حرصاً على إيمانهم لعدم وجـــود هذا الإيمان منهم رغم ما تبذل من كل جهد وطاقة .

موضع العتاب من هذه الآية

وموطن العتاب فيها هو موطنه في نظيرتها آية سورة الكهف باستعمال أداة الإشفاق " لعل " وصيغة باخع نفسك والتعليل بعدم إيمانهم رغم مـــا يبذل من حرص على إيمانهم .

وأما كونه عتاب توجيه فلأنه لم يعقب بتنبيه على شيء يجب تركـــه وإن لم يترك وقع ما يخاف منه،كما لم يعقب بتحذير وإنما أريد به نقله من حالة بذله غاية الجهد إلى التوسط فيما يبذله من ذلك وقوفاً مع ما أمر به .

ويزيد هذا القسم من العتاب أنه عتاب إقصار وكف عن بعض مـــا يبذل من جهد في التبليغ على خلاف ســـابقه- عتـــاب الـــدفع- في أن المطلوب فيه كان قوة العزيمة، وبذل كل الجهد في تبليغ الرسالة مع عـــدم المبالاة بما يلقى من الأذى والبلاء في سبيل تبليغ رسالته .

---

[١١٥] تفسير القرطبي: للعكبري [١٣: ٨٩]، إملاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن [٢: ١٦٦] .

الآية الثالثة
من آيات
عتاب الإقصار

أما الموضع الثالث من العتاب التوجيهي لإقصار وكف بعض جهد رسول الله ﷺ في التبليغ إبقاء على نفسه وطاقته فجاء في آية من سورة فاطر وهو قوله تعالى: ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾[١١٦] .

والمتأمل في هذه الجملة يجدها جاءت في قوله تعالى: ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًاۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾في سياق سبقت فيه بنداء عام إلى جميع الناس يذكرهم ربهم تبارك وتعالى فيه بنعمه عليهم وأجل هذه النعم خلقه تعالى لهم إبداعاً من العدم وتوليهم برحمته ورزقهم من السماء والأرض، وكان من حق هذا الإله المنعم المتفضل بالإحسان ألا يتخذ إله غيره، ولكن هؤلاء الكافرين عدلوا عنه إلى غيره، وانصرفوا عن عبادته إلى آلهة أصنام وأوثان[١١٧] عبدوها من دونه وكذبوا رسله، فحاكاهم هؤلاء المشركون الذين كذبوا رسول الله محمداً ﷺ، وسخروا من دعوته، واغتروا بما في أيديهم من زخرف الدنيا ومتاعها مما حملهم عليه الشيطان لعداوته لكل إنسان كما أخبر الله تعالى في قوله ﴿ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَٱتَّخِذُوهُ عَدُوًّاۚ ﴾[١١٨] ثم توعدهم بشديد العذاب إن ظلوا على كفرهم

---

[١١٦] سورة فاطر: آية ٨ .

[١١٧] الصنم: جثة متخذة من فضة أو نحاس أو خشب كانوا يعبدونها متقربين به إلى الله، مفردات الراغب (ص٢٨٧) .

الوثن: حجارة كانت تعبد، مفردات الراغب (ص٥١٢) .

[١١٨] سورة فاطر: آية ٦ .

وشركهم وإنكارهم فضل الله عليهم وإحسانه إليهم، وعقب ذلك بوعد منه تعالى للمؤمنين العاملين الصالحات فأبان أن لهم جزاء إيمانهم وصالح عملهم مغفرة وأجراً كبيراً .

ثم جاءت الآية موضع البحث ﴿ أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ ﴾ الآية، والاستفهام في هذا إنكاري ينطوي على تنديد وتقريع لأولئك المشركين الذين اتبعوا ما زين لهم الشيطان من سوء عملهم فرأوه عملاً حسناً وهم لا يعقلون أن مرد الهدى والضلال إلى الله تعالى ﴿ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ ﴾ بعدله لسوء استعداد المكلف وخبث فطرته ﴿ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ بفضله ورحمته وتوفيقه لما جبله عليه من الخير والاستعداد لتقبل الحق والإيمان به .

ولما كان رسول الله ﷺ شديد الحرص على إيمان قومه من أولئك المشركين إرادة استنقاذهم من عذاب الله تعالى، وخلودهم في دار الجحيم بالغ ﷺ في ذلك الجهد، وبذل ما هو فوق طاقته ليهديهم، فأراد الله تعالى من نبيه الكريم ﷺ أن يقصر من هذا الجهد، ويكف عن بعضه إبقاء على نفسه وقوته حتى يستطيع أداء رسالته وتبليغها في حدود مهمته التي أخبر الله عنها بقوله تعالى ﴿ مَّا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[١١٩] وقوله ﴿ إِنْ عَلَيْكَ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ﴾[١٢٠] فقال له ناهياً مشفقاً رحيماً به ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴾.

---

[١١٩] سورة المائدة: آية ٩٩ .

[١٢٠]

ومعنى ذلك: أنك أيها الرسول تعلم علم اليقين أن الهداية والضلال بيد الله تعالى ومشيئته فهو الذي يخلق الضلال في قلب الضال فلا تجد الهداية منفذاً إليه، وهو الذي يخلق الهداية في قلب المؤمن فينشرح لها صدره وينفسح لها قلبه فتتطابق أعمال جوارحه مع أعمال قلبه ليكون حقيقاً بوعد الله الذي قال فيه في سياق الآية المتقدم ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴾(١٢١) .

موضع العتاب منها

أما موضع العتاب في هذه الآية ففي النهي عن إذهاب نفسه ﷺ على عدم إيمانهم متحسراً آسفاً حزيناً حتى كاد يبخع نفسه كما في آية سورة الكهف، وآية سورة الشعراء المتقدمتين .

محصّلة هذا النوع من العتاب التلطف به

وأما أنه عتاب إقصار وكف يراد به التوجيه فلأنه لم يعقب بشيء يطلب من رسول الله ﷺ تحصيله ولا بشيء من التحذير وإنما يراد له عليه الصلاة والسلام الإنكفاف عن بعض ما يبذله من جهد في دعوته لقوم لا يلوح فيهم رجاء .

---

(١٢١) سورة فاطر: آية ٧ .

النوع الثاني
عتـاب التنبيـه

أما النوع الثاني من العتاب الإلهي لسيدنا محمد ﷺ فهو ما أطلقنا عليه (عتاب التنبيه) لأنه يختلف عن عتاب التوجيه في أن عتاب التنبيه يقصد به تنبيه المعاتب إلى عدم العود إلى الذي عوتب عليه لأنه لو لم ينبه لتكرر منه ذلك الأمر، وقد يؤدي به حال التكرار وعدم التنبيه عليه إلى ما هـو فوقه .

الغرض من هذا النوع

أما عتاب التوجيه فيقصد به نقل المعاتب من حالة كان عليها إلى حالة أخرى، يراد له المصير إليها .

وفي حق رسول الله ﷺ كانت الحالة الأولى في طريق تبليغ الـدعوة التهيب وضيق الذرع، فأريد نقله منها إلى حالة الدفع وقوة العزيمة في تبليغ الرسالة، أو نقله من حالة الدفع وشدة الحرص على هدايتـهم إلى حالـة الإعتدال والإقصار، والكف عن بعض ما يبلغه من جهد فـوق طاقتـه تخفيفاً على نفسه الطاهرة مما يتحمله من شدة المشاق في تبليغ الرسالة مما قد يؤدي به- لو استمر فيه- إلى الإضرار بنفسه فيعوق الاستمرار في تبليغ الرسالة الخاتمة .

حصر آيات هذا النوع من العتاب

والآيات التي تدخل تحت هذا النوع الضابط- بحسب ما وصل إليـه بحثنا- هي الآيات التالية:

١- قوله تعالى:- في سورة براءة- ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾[١٢٢] .

٢- قوله تعالى:- في سورة براءة أيضاً- ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ﴾[١٢٣] .

٣- قوله تعالى:- في سورة براءة أيضاً- ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾[١٢٤].

٤- قوله تعالى:- في سورة براءة أيضاً- ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِىِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن يَسْتَغْفِرُوا۟ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓا۟ أُو۟لِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَـٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾[١٢٥] .

٥- قوله تعالى:- في سورة الكهف- ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَا۟ىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴾[١٢٦] .

---

[١٢٢] سورة براءة: آية ٤٣ .

[١٢٣] سورة براءة: آية ٨٠ .

[١٢٤] سورة براءة: آية ٨٤ .

[١٢٥] سورة براءة: آية ١١٣ .

[١٢٦] سورة الكهف: آية ٢٣- ٢٤ .

وكما هو نهجنا فيما تناولناه من الآيات الكريمة بالبحث- أن ننظـر للآية في سياقها من السورة التي هي فيها ليكون ذلك السياق مفتاحاً لفهم الآية وكشف المراد بها- نعرض آيات هذا النوع من العتاب .

أولى آيات هذا النوع من العتاب

وأولى هذا النوع قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾(١٢٧) .

والحديث عن هذه الآية يستدعي التقدمة لها بعرض ما يـدل عليـه سياقها ليتضح المراد بها خطاباً لسيدنا محمد رسول الله ﷺ .

وقد بدأ سياق هذه الآية بنداء المؤمنين بأشـرف أوصـافهم وهـو (الإيمان) الذي يبعث الطمأنينة والرجاء في نفوسهم، ويدفعهم إلى تقبل ما يأتي بعده من شدة في الخطاب تذكيراً لهم بمكانهم مـن الإيمـان، ولفتـاً لأنظارهم لما يوجه إليهم من خطاب يذكرون فيـه بمقتـضيات الإيمـان - وأهمها المسارعة إلى الجهاد لإعلاء كلمة الله بصيغة الاستفهام الإنكاري مرتين في آية واحدة " مشوباً الثاني منهما بنوع من التعجب "(١٢٨)- بأن ما اعتراهم من تثاقلهم إلى الأرض حين دعاهم رسول الله ﷺ إلى النفـر للجهاد في سبيل الله- في غزوة تبوك وهي آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ بنفسه وهي أشق غزوة وأقساها وقتاً واستعداداً- إخلاد منهم إلى الأرض ورضى بما عليها من زخرف زائل، وتقديم لراحة الحياة الـدنيا الفانيـة، وطلب للذتها الناقصة مما لا يرضاه عاقل بديلاً من الآخرة لأن ذلك نزول

---

(١٢٧) سورة براءة: آية ٤٣ .

(١٢٨) البحر المحيط: لأبي حيان [٥: ٤٧] بتصرف .

بأنفسهم من عز الإيمان وعلاه، وتضييع لما أعده الله للمؤمنين المجاهدين من عظيم الثواب المقيم .

ويشتد الخطاب عليهم بسبب تثاقلهم إلى الأرض عن الخروج للجهاد في سبيل الله إلى أن يكون تهديداً بأنهم إلا ينفروا مع رسول الله ﷺ يعذبهم الله عذاباً أليماً موجعاً، وذلك بسبب تركهم النفر مع رسول الله ﷺ، ويستبدل بهم قوماً غيرهم يطيعون الله ورسوله، فينفرون إذا استنفروا، ويجيبون إذا دعوا، ثم لا يكونوا أمثالهم .

تهديد المتقاعسين عن الخروج إلى غزوة تبوك

ولما كان عدم النفر تقاعساً عن نصرة رسول الله ﷺ- وقد رد الله عليهم بأن أبى اعتذارهم بما احتف بهم من شدة الحر وقلة الزاد، وندرة المركب، ونضج التمر، وبُعد السفر- بيّن السياق القرآني أنه تعالى لاحاجة به إليهم لأنه هو الغني عنهم، وهم الفقراء إليه، كما لا حاجة لدينه ولا لرسوله بهم أيضاً . فهم إن تخلفوا اليوم عن نصرة رسول الله ﷺ بعدم الإستجابة للنفر في غزوة تبوك إذ استنفرهم رسول الله ﷺ فقد نصر الله دينه ونصر رسوله ﷺ إذ كان وحده من أول بعثته إلى هجرته التي ظهر فيها آثار نصر الله له بإنزال السكينة عليه هو صاحبه وليس معهما أحد، وهما متبوعان مطلوبان، إذ رأى حزن صاحبه وخوفه عليه، إذ كان الطلب قد وصل إلى مكان لو نظر أحدهم إلى موطئ قدمه لرآهما فقال لصاحبه يثبته ويطمئنه﴿ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ﴾ فهذا نصر مؤزر لم يكونوا فيه، ولا كان أحد فيه معه سوى صاحبه، إذ أيده الله بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى إذ خيبهم، وخذلهم بنصره لرسوله وتأييده له وذلك إعلاء لكلمة الله والله عزيز لا يغالب، حكيم يضع الأمور في مواضعها .

وهذا كله بيان إجمالي لمعنى قوله تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۝ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾[١٢٩] .

ويقفي السياق القرآني على ذلك بالأمر بالنفر العام الذي يوجب الجهاد في سبيل الله على كل فرد من أفراد المسلمين إذ لا يعذر فيه أحد بشيخوخة، ولا فقر، ولا مرض فقال الله تعالى: ﴿ ٱنفِرُواْ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُواْ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾[١٣٠] فكأنه فتح لباب التوبة لهم، وترغيب لمراجعة قوة الإيمان، وصدق العزيمة في متابعة رسول الله ﷺ في جهاده، وتحملهم المشاق ورضائهم بما ينالهم من متاعب الدنيا إيماناً بالله وطاعة لرسوله ﷺ وجهاداً في سبيله، وإعلاماً لهم بما ينتظرهم من جهد ومشقة في هذه الغزوة التي خالف فيها رسول الله ﷺ عادته الشريفة، إذ كان إذا أراد أن يغزو قوماً ورَّى عنهم، ولم يصرح، ولكنه في هذه الغزوة بيّن وجهته، وأعلن قصده

---

(١٢٩) سورة براءة: آية ٣٨-٤٠ .

(١٣٠) سورة براءة: آية ٤١ .

لما يعلمه من بركاتها، وما فيها من مشاق ومتاعب تستدعي أكمل الاستعداد، وأخذ الأهبة لسفر بعيد ومشقات قاسية، إذ ختمت بها غزوات رسول الله ﷺ، وبها أخرج أمته من ضيق مجال الدعوة في داخل الجزيرة العربية إلى عموم مجالاتها في أقطار الأرض .

إظهار نوايا المنافقين للتحذير منهم

ولما كان المنافقون مندسين في مجتمع المؤمنين بما يظهرونه من شعائر الإسلام، وكانوا على عزيمة ألا يخرجوا مع رسول الله ﷺ في هذه الغزوة جبناً وخوراً وفرقاً من ملاقاة العدو- وهذا على خلاف ما كان عليه خلص المؤمنين رغم تثاقلهم إلى الأرض، لما احتف بهم من الشدة، ولكنهم كانوا قد راجعوا أنفسهم، وصمموا عزائمهم على الخروج مع رسول الله ﷺ مهما لاقوا من الشدة والأزمات- بيّن الله حال المنافقين بأنهم إنما يريدون الدنيا وغنائمها وأنهم أوهن من أن يتحملوا مشقات الجهاد وأسفاره، فلو كان ما دعوا إليه عرضاً من أعراض الدنيا ينالونه من قريب، وغنيمة حاضرة يحصلون عليها دون مشقة في سفر قريب، وموضع سهل لاتبعوا الرسول ﷺ وهم مضمرون للتخلف عنه، ولكنهم لا يتخلفون عن عرض من أعراض الدنيا وغنائمها فقال الله تعالى فيهم يفضحهم ويكشف سترهم ﴿ لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ وَسَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴾[١٣١] .

---

(١٣١) سورة براءة: آية ٤٢

وقد أكد ذلك إخباراً بالغيب ومعجزة لرسول الله ﷺ بأنهم سيحلفون لو استطاعوا لخرجوا معه وهم بهذا الحلف يهلكون أنفسهم، كاذبين مفترين .

ولقد كان المنافقون على عزيمة استئذان رسول الله ﷺ في التخلف والقعود بأعذار زائفة وهم مضمرون للقعود سواء أذن لهم أم لم يأذن لهم فيه فقد قالوا: " استأذنوا رسول الله- ﷺ- فإن أذن لكم فاقعدوا، وإن لم يأذن لكم فاقعدوا "[١٣٢] .

وكان رسول الله ﷺ على يقين من العلم بأن المنافقين المندسين في مجتمعه مفسدون جبناء يرتعدون فرقاً من ملاقاة العدو، ويحاولون أن يخذلوا الجيش الإسلامي، ويفسدوا أمره بإحداث الفتن والقلاقل والاضطرابات والتخويف فأسرع رسول الله ﷺ بالإذن لهم بالقعود دون أن يتلبث بهم حتى ينكشف سترهم وينفضح أمرهم، ويظهر الصادق من الكاذب .

ولما كانت هذه الغزوة من أعظم غزوات الإسلام عدداً وعدة، ونهاية خاتمة لغزوات رسول الله ﷺ بنفسه أراد الله تعالى أن يجعلها امتحاناً يكشف به أمر المنافقين ويفضح خبايا ضمائرهم ليتميز الصادق من الكاذب، ويخلص المجتمع الإسلامي من الجبناء الرعاديد ولا يبقى فيه إلا كل شجاع صنديد، قال لرسوله ﷺ ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴾ .

---

[١٣٢] رواه الطبري في تفسير عن مجاهد [١٠: ١٤٢] .

ومعناه: لم أسرعت بالإذن لهم، ولم تتأن بهم وتتلبث لينكشف حالهم بقعودهم عن الخروج معك دون إذن منك فتعلم أنت وأصحابك الصادقين من الكاذبين منهم .

موضع العتاب من الآية

فالعتاب- إنما كان على المسارعة بالإذن لهم بالقعود لا على نفس الإذن لهم بالتخلف والقعود خلافاً لما توهمه عبارات بعض المفسرين(١٣٣)، أخذاً بظاهر أسلوب الآية الذي وجه فيه الإنكار للإذن مباشرة، لأن الإذن لهم بالقعود إنما كان عن اجتهاد من رسول الله ﷺ، قررت الآيات الآتية صوابه بمقتضى ما يأتي من الوجوه التي سنذكرها في معاني هذه الآيات .

وقد حمل استفتاح هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ القائلين بأن في الآية عتاباً لرسول الله ﷺ على الجرى بأن الآية تقتضي أن رسول الله ﷺ خالف ما هو أولى بالحزم في حق هؤلاء المنافقين "(١٣٤) .

وظاهر عبارات كثير من المفسرين أن العتاب كان على نفس الإذن لهم بالقعود، وهذا الظاهر ليس بمسلم، لأن العتاب إنما كان على الإسراع لهم بالإذن بالقعود عن الخروج إلى غزاة تبوك، وعدم التلبث والتأني بهم حتى ينكشف أمرهم، ويظهر نفاقهم لكل أحد لينقطع ما بأيديهم من سبب يضللون به المؤمنين أنهم منهم وما هم منهم في شيء، فنفس الإذن لهم بالقعود عنه صواب في موضعه، لأن الآيات التالية لهذه الآية بينت أنهم لو خرجوا معه ﷺ لأحدثوا الفتن في الجيش الإسلامي بيد أن المسارعة

---

(١٣٣) تفسير الطبري [١٠: ١٤٢]، فتح القدير: للشوكاني [٢: ٣٦٥]، تفسير البيضاوي (ص٢٧٢) .

(١٣٤) تفسير أبي السعود [٢: ٢٧٢]، تفسير الألوسي [١٠: ١٠٧] .

بإجابتهم إلى الإذن بالقعود حين طلبوه نجم عنه ألا يعلم الصادق في عذره من الكاذب فيه، فكان ذلك موطناً للعتاب في الآية الكريمة .

وهذا الذي قررناه من أن العتاب كان على المسارعة بالإذن لهم لا على نفس الإذن هو ما ذهب إليه المحققون من المفسرين، وقد صرح به الزمخشري في الكشاف فقال: " ومعناه: مالك أذنت لهم في القعود عن الغزو حين استأذنوك، واعتلوا لك بعللهم، وهلا استأنيت بالإذن " حتى يتبين لك " من صدق في عذره ممن كذب فيه "[١٣٥] .

وقال أبو السعود: " .. كلمة (حتى) سواء كانت بمعنى اللام أو بمعنى إلى لا يمكن تعلقها بقوله تعالى: ﴿لِمَ أَذِنتَ﴾ لاستلزامه أن يكون إذنه عليه الصلاة والسلام لهم معللاً أو مغياً[١٣٦] بالتبين والعلم ويكون توجيه الاستفهام إليه من تلك الحيثية، وذلك بين الفساد بل بما يدل عليه ذلك، كأنه قيل: لم سارعت إلى الإذن لهم وهلا تأنيت حتى ينجلي الأمر كما هو قضية الحزم "[١٣٧] ونهج صاحب تفسير المنار نهجهما فقال: " .. كان مقتضى الحزم أن تتلبث في الإذن أو تمسك عنه اختباراً لهم "[١٣٨] .

بيان وجه الصواب في الإذن لهم بالقعود

أما بيان الآيات التالية لهذه الآية الكريمة من أن الإذن لهم بالقعود عن الخروج إلى غزوة تبوك صواب في موضعه لما يترتب على خروج المنافقين من الإفساد في الجيش ، وإحداث الفتن بين المجاهدين وتثبيط عزائمهم فقد

---

[١٣٥] الكشاف [٢: ١٩٢] .

[١٣٦] مغياً: أي أن يجعل التبين والعلم غاية للإذن لهم .

[١٣٧] تفسير أبي السعود [٢: ٢٧٢] .

[١٣٨] تفسير المنار [١٠: ٤٦٤] .

تمثل فيما يلي:

نفي الإيمان عن المستأذنين

أولاً- في أن الله تعالى نفى الإيمان بالله واليوم الآخر عن المستأذنين في التخلف والقعود عن الجهاد في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم ووصمهم بإرتياب القلوب، وأنهم متحيرون في أمرهم يوافقون المسلمين فيما يسهل عليهم من العبادات تغطية لما في قلوبهم من نفاق، ويلتمسون لأنفسهم الأعذار مما فيه مشقة عليهم أو إنفاق لأموالهم، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِى رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴾(١٣٩) .

ظهور عداوة المنافقين توجب منعهم من الخروج مع جيش المؤمنين

ومن كان كذلك فلا يؤتمن على المسير مع عباد الله المجاهدين في سبيله ولا يمكن السماح له بالخروج مع جيش المسلمين لأنه عدو لله تعالى ولدينه ولرسوله ﷺ .

ثانياً- قال تعالى: ﴿ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَـٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴾(١٤٠) .

وجوه صواب إذن رسول الله ﷺ للمنافقين بالقعود عن الخروج معه

وهذه الآية الكريمة دليل على أن نفس إذن رسول الله ﷺ لهم بالقعود صواب من وجوه:

الوجه الأول: أنه تعالى سجل عليهم ما كانوا يتسترون عليه من عدم عزيمتهم على الخروج بأنهم لم يعدوا العدة لهذا الخروج، وهو خروج لازم بمقتضى تصريح رسول الله ﷺ بالغزوة، ذلك التصريح الذي يصور مشقات

---

(١٣٩) سورة براءة: آية ٤٥ .

(١٤٠) سورة براءة: آية ٤٦ .

السفر، وشدائد الرحلة مما يتطلب أهبة واستعداداً كبيراً .

الوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ ﴾ وكره الله انبعاثهم معناه عدم إرادته لخروجهم مع المؤمنين لئلا يفسدوا عليهم حالهم في تصميمهم على الجهاد في سبيل الله، وترحيبهم بالاستشهاد أملاً في رضا الله تعالى، ونشراً لدينه، ونصراً لرسوله ﷺ .

الوجه الثالث: قوله ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ وهذا تصوير لعدم إرادة الله خروجهم بعدم أخذهم الأهبة والاستعداد للخروج فقذف في قلوبهم الوهن والتكاسل دون إعداد العدة للخروج، ثم ختم ذلك بقوله ﴿ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴾ وهذا القول من رسول الله ﷺ بالإذن لهم بالقعود، فكأنه قول الله تعالى، وهو مؤكد في المعنى لقوله ﴿ فَثَبَّطَهُمْ ﴾ .

خطر اندساس المنافقين في المجتمع الإسلامي

ثالثاً- قال تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا[(١٤١)] وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ۝ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ۝ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾[(١٤٢)] .

وهذه الآيات كسابقتها تظهر أن الإذن لهؤلاء المنافقين بالقعود كان صحيحاً من وجوه أيضاً:

---

(١٤١) الخبال: الفساد الذي يلحق الحيوان فيورثه اضطراباً كالجنون والمرض المؤثر في العقل والفكر، مفردات الراغب (ص١٤٢) .

(١٤٢) سورة براءة: آيات ٤٧، ٤٨، ٤٩ .

الوجه الأول: قوله تعالى: ﴿ لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ﴾ وهذه جملة شرطية صريحة في بيان ما انطوت عليه أنفسهم من العمل المفسد للمجتمع الإسلامي، وإيقاع الخبال فيه، والفتن التي تذهب بقوة الجيش وتوهن عزائمه .

والتعبير بقوله ﴿ مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً ﴾ المقتضي لوجود أصل الخبال في جمهرة المسلمين إنما يقصد إلى بعض ضعفاء الإيمان الذين يسّمعون إلى قول المنافقين، ويتأثرون به في ضعف عزائمهم، ورعب قلوبهم، وخوفهم من ملاقاة العدو، وهم المقصودون بقوله ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾ .

الوجه الثاني: قوله ﴿ وَلَأَوْضَعُوا خِلَـٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ ﴾ ومعنى هذا أن الله تعالى يصف هؤلاء المنافقين بأنهم سراع الحركة والتوثب بين جماعات المسلمين لإلقاء الأكاذيب والمفتريات تخذيلاً لهم، وفتنة لأنفسهم لصرفهم عن معالي أمور الجهاد، ثم أكد هذا الأمر بقوله ﴿ وَفِيكُمْ سَمَّـٰعُونَ لَهُمْ ﴾ أي أن هذه المجتمعات الكبيرة المتعددة الأفراد والطوائف، المتعرضة لأشق ما يتعرض له المجاهدون لا تخلو عن ضعاف النفوس الذين يفرقون بمجرد سماع الإشاعات والأكاذيب، فإذا سمعوا من المنافقين أكاذيبهم وافتراءاتهم تخاذلوا عن جهادهم ومواقفتهم للعدو في صفوف المؤمنين .

ثم ختم الله تعالى بما يسجل أظلم الظلم على هؤلاء المنافقين، وقد تضمن ذلك وعيداً شديداً لهم على ما أضمروا في أنفسهم من إحداث الفتن بين المؤمنين، والإبهام في الوعيد أشد من التصريح به .

الوجه الثالث: قوله ﴿ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ ﴾ وهذا بيان لما جبل عليه هؤلاء المنافقون من إحداث الفتن، وإشاعة المخاوف بين المجتمع الإسلامي، فذكر الله تعالى أن هذا ديدنهم وعادتهم من قبل، فقد أحدثوا قبل ذلك عظائم الفتن في المجتمع الإسلامي، كالذي كان منهم في غزوة بني المصطلق وأمثالها، ولكن الله تعالى أوبقهم في موبقاتهم، وأوقعهم فيما دبروه لإفساد مجتمع المؤمنين .

وهذا هو المراد بقوله ﴿ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ ﴾ أي نصر الله رسوله ﷺ وأصحابه من خلص المؤمنين، وكان المنافقون أكره الناس لهذا النصر، وأبغضهم لما يرون بين المؤمنين من توافق وألفة ومحبة وإخاء .

الوجه الرابع: قوله ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ وهذا تسجيل عليهم بأنهم مردوا على الكذب، ومرنوا على الفتن، ولما أخبروا بأن الرسولﷺ متوجه إلى تبوك لغزو الروم وفي الروم جمال لنسائهم، وثروات في بلادهم لعلها تطمعهم في الخروج مع رسول الله ﷺ كما هي عادتهم في حب الدنيا- تعللوا في ترك الخروج مع رسول الله ﷺ بما ليس لهم فيه عذر . فقد أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبد الله ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول لجد بن قيس: « يا جد هل لك في جلاد بني الأصفر ؟ » قال جد: أتأذن لي يا رسول الله فإني رجل أحب النساء وإني أخشى إن أنا رأيت نساء بني الأصفر أن أفتتن. فقال رسول الله ﷺ- وهو معرض عنه-

« قد أذنت لك » فأنزل الله ﴿ وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى .... ﴾ الآيــة[١٤٣] ونحوه عند الطبري من طريق أخرى .

فرد الله تعالى على هذا المنافق وأمثاله بأنهم سقطوا في الفتنة بما مرنوا عليه من الكذب والبهتان، ثم أوعدهم بأشد العذاب فقال: ﴿ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ تسجيلاً للكفر عليهم وتكذيباً لما يتظاهرون بــه من شعائر الإسلام .

وفي قوله ﴿ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ دليل على أنهم منغمسون فيها وفي صنوف عذابها لا يغيبون عنها، ولا هم منه بمخرجين .

جفوة التعبير دليل ضعف في التفكير

وقد أساء الزمخشري الأدب في التعبير عن بيان العتاب- في زعمــه- فقال ان قوله تعالى ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ : " كناية عن الجنايــة لأن العفــو رادف لها ومعناه: أخطأت وبئس ما فعلت "[١٤٤] .

وقد استغواه في هذا التعبير السيء سلفه الجبائي الذي يــرى أن إذن رسول الله ﷺ للمستأذنين من المنافقين بالقعود عن الخروج معه إلى غزوة تبوك " كان قبيحاً ووقع صغيراً "[١٤٥] فالزمخشري مقلد في ســوء الأدب لشيخ شيوخ المعتزلة، وقد تابع البيضاويُّ الزمخشريَّ في جفوة التعــبير في هذا الموضع من تفسيره .

---

[١٤٣] الدر المنثور: للسيوطي[٣: ٢٤٧]، تفسير الطبري [١٠: ١٤٨، ١٤٩] .

[١٤٤] الكشاف: للزمخشري [٢: ١٩٢] .

[١٤٥] مجمع البيان: للطبرسي [١٠: ٦٨] المجلد الثالث .

وقد علق أبو حيان- رحمه الله تعالى- في البحر على هذا المسلك من التفكير والتعبير فقال: " وكلام الزمخشري في تفسير قوله ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ ﴾ مما يجب إطراحه فضلاً عن أن يذكر فيرد عليه "[١٤٦] .

قال الألوسي: " وكم لهذه السقطة في الكشاف من نظائر "[١٤٧] .

تلطف في التعبير لا عتاباً به

ومن العلماء من لم ير في هذه الآية عتاباً، وإنما هي- عندهم- من باب التلطف في الكلام، والدعاء للمخاطب الجاري على الأسلوب العربي في مخاطبة الكرام، ومراسلة الأحباء والأصدقاء على نحو قولهم: " عفا الله عنك هلا أعطيتني كذا، وأصلحك الله، ووفقك الله كان الأمر كذا وكذا .. " فابن الأنباري يقول:" لم يخاطب رسول الله ﷺ بذلك لجرم أجرمه، ولكن الله وقره ورفع من شأنه حين افتتح الكلام بقوله: " عفا الله عنك " كما يقول الرجل لمخاطبه إذا كان كريماً:" عفا الله عنك ما صنعت في حاجتي؟ ورضي الله عنك هلا زرتني ؟ "[١٤٨] .

وممن قال بذلك أيضاً القاضي عياض في الشفا[١٤٩]، والقسطلاني في المواهب[١٥٠] ونقلاه فيهما عن الداودي، ومكي والقشيري ونفطويه، ونسبه القرطبي[١٥١] إلى مكي والمهدوي والنحاس، ونقله الزرقاني عن

---

[١٤٦] البحر المحيط [٥: ٤٧] .

[١٤٧] روح المعاني [١٠: ١٠٩] .

[١٤٨] زاد المسير في علم التفسير: لابن الجوزي [٣: ٤٤٥] .

[١٤٩] الشفا [٢: ١٣٩]، نسيم الرياض [٤: ١٧٨] .

[١٥٠] شرح المواهب اللدنية: للزرقاني [٦: ٢٧٢] .

[١٥١] تفسير القرطبي [٨: ١٥٤] .

ابن المنير[١٥٢] .

فالقشيري قال:" وإنما يقول: العفو لا يكون إلا عن ذنب من لم يعرف كلام العرب "[١٥٣] وقال نفطويه فيما أورده عنه أبو حيان في البحر: " ذهب ناس إلى أن النبي ﷺ معاتب بهذه الآية، وحاشاه من ذلك بل كان له أن يفعل وألا يفعل حتى يترل عليه الوحي، كما قال: « لو استقبلت من أمري ما استدبرت لجعلتها عمرة » لأنه كان له أن يفعل وأن لا يفعل، وقد قال الله تعالى ﴿ تُرْجِى مَن تَشَآءُ مِنْهُنَّ وَتُـْٔوِىٓ إِلَيْكَ مَن تَشَآءُ ۖ ﴾[١٥٤] لأنه كان له أن يفعل ما يشاء مما لم يترل عليه فيه وحي، واستأذنه المتخلفون في التخلف واعتذروا، اختار أيسر الأمرين تكرماً وتفضلاً منه ﷺ، فأبان الله تعالى أنه لو لم يأذن لهم لأقاموا للنفاق الذي في قلوبهم وأنهم كاذبون في إظهار الطاعة والمشاورة، فـ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ ﴾ عنده افتتاح كلام أعلمه به أنه لاحرج عليه فيما فعله من الإذن وليس هو عفواً عن ذنب إنما هو أنه تعالى أعلمه أنه لا يلزمه ترك الإذن لهم كما قال ﷺ: « عفا الله لكم عن صدقة الخيل والرقيق، وما وجبتا قط» ومعناه: ترك أن يلزمكم ذلك[١٥٥].

قال أبو حيان- بعد أن أورد كلام نفطويه-:" ووافقه عليه قوم فقالوا: ذِكْرُ العفو هنا لم يكن عن تقدم ذنب، وإنما هو استفتاح كلام جرت عادة العرب بأن تخاطب بمثله لمن تعظمه وترفع من قدره، يقصدون بذلك الدعاء

---

[١٥٢] شرح المواهب [٦: ٢٧٣] .

[١٥٣] الشفا [٢: ١٣٩]، شرح المواهب [٦: ٢٧٢] .

[١٥٤] سورة الأحزاب: آية ٥١ .

[١٥٥] البحر المحيط [٥: ٤٧]، شرح المواهب [٦: ٢٧٢] .

له فيقولون: أصلح الله الأمير كان كذا وكذا،فعلى هذا صيغته صيغة الخبر ومعناه الدعاء "[١٥٦] .

إجراء الخطاب على وجهه خير من تأويله

والذي يظهر من أسلوب هذه الآية الكريمة أن ذكر العفو في افتتاحها وإن لم يكن عن تقدم ذنب إلا أنه يحتمل أنه كان عن خطأ في الاجتهاد فات رسول الله ﷺ أن يبذل فيه جهده وهو الإسراع لهم بالإذن بالقعود والتخلف وجعل اجتهاده في خروجهم معه وما يتسبب عليه من إفساد وبلبلة وفتنة وتثبيط للجيش بإشاعات كاذبة ماكرة .

فقوله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ﴾ معقباً بالاستفهام الإنكاري يبعده عن إرادة الدعاء به ومجرد التلطف لأن الاستفهام الإنكاري يقتضي منكراً والمنكر هنا إسراع رسول الله ﷺ بالإذن لهم- وهو لازم للإذن مدخول أداة الإنكار- دون أن يتلبث بهم ليتبين له ولأصحابه المؤمنين حقيقة حال المستأذنين من الصدق أو الكذب .

وما ذكروه من أمثلة جرت على لسان بعض الأدباء واللغويين ليس فيه شيء من قبيل الآية لأنهم لم يذكروا مثالاً عقب باستفهام إنكاري .

موضع العتاب هذه الآية

فالآية عتاب متلطف برسول الله ﷺ إذ سبق بالأخبار بالعفو، وهذا يكفي في بيان ما فيها من التلطف والحفاوة برسول الله ﷺ ويجعلها من قبيل عتاب التنبيه، إذ لم تعقب بشيء يحذر في المستقبل، أو يخاف وقوعه .

---

[١٥٦] البحر المحيط [٥: ٤٧] .

ثانية آيات هذا النوع من العتاب

وثانية آيات هذا النوع من العتاب- بحسب ما وصل إليه بحثنا- هي قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴾(١٥٧).

وقد وردت هذه الآية الكريمة إثر أن بيّن الله تعالى حال المنافقين مع المؤمنين، وكشف الستر عنهم فإن أولئك المنافقين لم يكتفوا بما هم غارقون فيه من بخل بما أوجبه الله عليهم في أموالهم أو ندبهم إليه فيها، و لم يخجلهم شحهم بمال الله تعالى، بل تعدوا ذلك كله إلى إيذاء المؤمنين المتصدقين أغنياء وفقراء استجابة لدعوة رسول الله ﷺ لهم بقوله: « تصدقوا فإني أريد أن أبعث بعثاً »(١٥٨) فلمزوهم بما هم برآء منه وعابوهم على ما يبذلونه في سبيل الله تطوعاً، فتوعدهم الله تعالى بالسخرية منهم في الدنيا بأن" جعلهم سخرية للمؤمنين، والناس أجمعين بفضيحته لهم في هذه السورة "(١٥٩) الفاضحة لأحوالهم، الحافرة عما في قلوبهم من دغل، وتوعدهم بالعذاب الأليم الذي سيترله بهم في الدنيا والآخرة .

قال ابن كثير في تفسيره: " هذا من باب المقابلة على سوء صنيعهم واستهزائهم بالمؤمنين، لأن الجزاء من جنس العمل فعاملهم معاملة من سخر منهم انتصاراً للمؤمنين في الدنيا وأعد للمنافقين في الآخرة عذاباً أليماً لأن الجزاء من جنس العمل "(١٦٠) .

---

(١٥٧) سورة براءة: آية ٨٠ .

(١٥٨) رواه البزار وابن جرير و ن بي اتم وابن مردويه عن أبي هريرة، الدر المنثور [٣: ٢٦٣]، تفسير ابن جرير: للطبري [١٠: ١٩٥] .

(١٥٩) تفسير المنار [١٠: ٥٦٤] .

(١٦٠) تفسير ابن كثير [٢: ٣٧٦] .

وقد أفزعهم هذا الوعيد الشديد، وعلموا أن رسول الله ﷺ قد أخبر بحالهم ولمزهم للمتصدقين من المؤمنين فجاءوا إليه يعتذرون، ويطلبون أن يستغفر لهم فأنزل الله تعالى هذه الآية ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ﴾ الآية التي هي موضع البحث هنا .

وهي في سياقها- الموحي بأنها تسجيل لكفر المنافقين، وبيان لفسقهم- كشف لحال المنافقين، وإعلان لخاتمتهم الخائبة، وإيعاز لرسول الله ﷺ بأن لا جدوى من الاستغفار لهم، ولو كثر منه ذلك لهم، فلن ينفعهم، ولن يتقبل في حقهم فيما لو استغفر لهم، وسبب ذلك كفرهم بالله ورسوله وفسقهم عن جادة الإيمان .

فالآية إخبار للرسول ﷺ بحكم الله في المنافقين ليصرف النظر عنهم، وتوجيه للمؤمنين لئلا يبقى لهم تعلق بهم، إبعاداً لأولئك المنافقين عن صفوف المؤمنين .

وضمير الجمع الغائب في قوله ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾ عائد على اللامزين الذين جاءوا إلى رسول الله ﷺ يسألونه أن يستغفر لهم بعد أن فضحهم الله وتوعدهم بقوله ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[١٦١] وهذا هو قول ابن عباس والحسن ﷺ من أن المنافقين اللامزين حين نزل قوله تعالى: ﴿سَخِرَ ٱللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ سألوا رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم فنزلت هذه الآية ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ﴾[١٦٢] الآية .

---

[١٦١] سورة براءة: آية ٧٩ .

[١٦٢] تفسير الرازي [١٦: ١٤٦]، روح المعاني للألوسي [١٠: ١٤٨] .

فلما كان مجيئهم إلى رسول الله ﷺ، وطلبهم إليه الإستغفار لهم بعد ذلك ليس عن رغبة منهم في الإيمان، ولا ندماً على ما دنسوا به أنفسهم من أوضار النفاق، والهزء بالمؤمنين، وإنما هو استمرار منهم فيما هم فيه غارقون من النفاق، وإيغال في أوحاله، ومحاولة لخديعة رسول الله ﷺ، وتضليل للمؤمنين عما تكنه قلوبهم من كفر بالله ورسوله، وفسوق عن الهدى، أخبر الله تعالى رسوله ﷺ بحالهم كشفاً لما كانوا يتسترون عليه من النفاق، وربأ به ﷺ عن أن يستغفر لمن ليسوا بأهل للاستغفار وكشف الله تعالى حالهم للناس أجمعين، فقطع بذلك من نفوس المؤمنين رجاء الخير لهم حتى لا ينخدعوا بما يموهون به عليهم .

والذي دفع البحث إلى ضم هذه الآية إليه مع أن لا عتاب فيها لسيدنا رسول الله ﷺ- كما هو ظاهر من سياقها ولحاقها- ما وجد من روايات حديثية بأسانيد صحيحة من روايات الشيخين وغيرهما تذكر أن رسول الله ﷺ استغفر لابن أبي فهماً منه ﷺ من الآية التخيير بين الاستغفار وعدمه للمنافقين، وأن العدد المذكور فيها للتحديد لا للتكثير والمبالغة بدليل قوله ﷺ- كما تقول رواية البخاري ومسلم وغيرهما عن ابن عمر- عندما أراد عمر منعه من الصلاة على ابن أبي بقوله:" يا رسول الله تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه "[١٦٣]، وفي رواية أخرى عند البخاري أيضاً عن ابن عمر أيضاً أن عمر قال: " تصلي عليه وهو منافق وقد نهاك الله أن تستغفر لهم "[١٦٤]، قال رسول الله ﷺ : « إنما خيرني الله أو أخبرني »

---

[١٦٣] صحيح البخاري [٦: ٨٥] .

[١٦٤] صحيح البخاري [٦: ٨٦] .

فقال: « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم فلن يغفر الله لهم » فقال: « سأزيده على سبعين »[١٦٥].

وحديث ابن عمر الذي أوردنا المطلوب منه وما جرى مجراه من سائر الروايات التي تنسب إلى رسول الله ﷺ فهم التخيير من الآية الكريمة وأن العدد فيها للتحديد قد توقف في قبوله بعض الأكابر من الأئمة والنظار من أهل العلم كالقاضي أبي بكر الباقلاني الذي قال: " هذا الحديث من أخبار الآحاد التي لا يعلم ثبوتها "، وإمام الحرمين وحجة الإسلام الغزالي والداودي[١٦٦] أحد شراح صحيح البخاري .

نفي التخيير عن دلالة هذه الآية

وحجتهم في التوقف عن قبوله أن فهم التخيير في الآية يتنافى مع ما جرت عليه أساليب اللغة من أن هذا الأسلوب يجري مجرى الإخبار المقتضي للتسوية بين الاستغفار وعدمه في عدم حصول أية فائدة للمنافقين بدليل قوله في الآية ﴿بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ والإشارة تعني التعليل للإخبار المفهوم من التسوية في الآية فكأن عدم الغفران لهم- وهو الخبر المقصود من الآية- معلل بكفرهم وعدم توفيقهم إلى الحق وموتهم على الفسق والخروج عن جادة الإيمان .

إفادة العدد سبعة

والمعروف أيضاً أن الأعداد- ولا سيما عدد سبعة وعدد سبعين- إنما تذكر لإفادة التكثير والمبالغة لا لإفادة التحديد الذي لو زيد عليه تغير المقصود .

---

(١٦٥) صحيح البخاري [٦: ٨٦] .

(١٦٦) فتح الباري [٨: ٣٣٨] .

قال ابن الأثير في النهاية:" وقد تكرر ذكر السبعين والسبعة والسبعمائة في القرآن والحديث والعرب تضعها موضع التضعيف والتكثير كقوله ﴿ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ ﴾[(١٦٧)] وكقوله﴿ إِن تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ سَبۡعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغۡفِرَ ٱللَّهُ لَهُمۡۚ ﴾ "[(١٦٨)].

وقال الحافظ ابن كثير في تفسيره: " وقد قيل أن السبعين إنما ذكرت حسماً لمادة الاستغفار لهم، لأن العرب في أساليب كلامها تذكر السبعين في مبالغة كلامها، ولا تريد التحديد بها ولا أن يكون مازاد عليها بخلافها "[(١٦٩)] .

وقال الشوكاني في تفسيره فتح القدير: " ... وليس المراد من هذا أنه لو زاد على السبعين لكان ذلك مقبولاً .. بل المراد بهذا هو المبالغة في عدم القبول، فقد كانت العرب تجري ذلك مجرى المثل في كلامها عند إرادة التكثير، والمعنى: أنه لن يغفر الله لهم وإن استغفرت لهم استغفاراً بالغاً في الكثرة غاية المبالغ "[(١٧٠)] .

فنسبة فهم التخيير من الآية الكريمة للنبي ﷺ وأن العدد فيها للتحديد لا للتكثير مستبعدة جداً بل هي إلى المحال أقرب لأن رسول الله ﷺ هو أفصح من نطق بالضاد، وهو أعرف الناس بالبيان القرآني وأساليبه لأنه القيم على فهمه وإفهامه كما أريد من معانيه وحقائقه ولا يمكن أن يفهم

---

(١٦٧) سورة البقرة: آية ٢٦١ .

(١٦٨) النهاية في غريب الحديث [٢: ٣٣٥] .

(١٦٩) تفسير ابن كثير [٢: ٣٧٦] .

(١٧٠) فتح القدير: للشوكاني [٢: ٣٨٧] .

جميع البلغاء من أهل العناية بالبيان القرآني التسوية في الآية وينسب إلى رسول الله ﷺ ما يخالف ذلك من فهم التخيير، وتحديد العدد ويقول: « إنما خيرني الله، وسأزيد على السبعين » .

ويزيد في بيان وجه توقف بعض النظار من أهل العلم عن قبول حديث عبد الله بن عمر ما ذكره صاحب تفسير المنار من أن " حديث معارضة عمر بطريقيه[١٧١] " مشكل ومضطرب من وجوه:

١- جعل الصلاة على ابن أبي سبباً لنزول آية النهي وسياق القرآن صريح في أنها نزلت في سفر وغزوة تبوك سنة ثمان، وإنما مات ابن أبي في السنة التي بعدها .

٢- قول عمر للنبي ﷺ " وقد نهاك ربك أن تصلي عليه " يدل على أن النهي عن هذه الصلاة سابق لموت ابن أبي- وقوله بعده فصلى عليه رسول الله ﷺ فأنزل الله تعالى ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم ﴾ ... الخ، صريح في أنه نزل بعد موته والصلاة عليه .

٣- قوله أنه ﷺ قال إن الله تعالى خيّره في الاستغفار لهم وعدمه إنما يظهر التخيير لو كانت الآية كما ذكر في الحديث و لم يكن فيها بقيتها أي التصريح بأنه لن يغفر الله لهم بسبب كفرهم وأن الله لا يهدي القوم الفاسقين، ومن ثم كان المتبادر من " أو " فيها أنها للتسوية بين ما بعدها وما قبلها لا للتخيير وبه فسرها المحققون كما فهمها عمر واستشكلوا الحديث إذ لا يعقل أن يكون فهم عمر أو

---

[١٧١] أي طريق ابن عمر وطريق ابن عباس التي عن عمر نفسه .

غيره أصح من فهم رسول الله ﷺ لخطاب الله له ولـــذلك أنكـــر بعضهم صحته .

٤- التعارض بين رواية « فلو أعلم أنني لو زدت على السبعين غفر له لزدت له » ورواية « وسأزيد على السبعين » .

٥- التعارض بين إعطائه ﷺ قميصه لابنه لتكفينه فيه وحـــديث جابر إخراجه ﷺ لابن أبي من قبره وإلباسه قميصه .

٦- إذا أمكن أن تكون الصلاة على ابن أبي قبل نزول النهي عن الصلاة عليهم فلا شك في أنها كانت بعد آية ﴿ سَوَآءٌ عَلَيۡهِمۡ أَسۡتَغۡفَرۡتَ لَهُمۡ أَمۡ لَمۡ تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾(١٧٢) وآية ﴿ ٱسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ أَوۡ لَا تَسۡتَغۡفِرۡ لَهُمۡ ﴾ والجزم في كل منهما بأن الله لن يغفر لهم .(١٧٣)

ثم أورد صاحب تفسير المنار كلام الحافظ ابن حجر في الفتح فيمـــا يتعلق بالآيات وروايات الأحاديث فيها وعلق عليه فقال:" أقول حاصل ما لخصه الحافظ من أقوال العلماء في هذه المسألة وهو من أوسع حفاظ الملة إطلاعاً أنه لا يمكن الجمع بين القرآن والحديث فيها على وجه مقبول إلا إذا فرضنا أن آية النهي عن الصلاة عليهم قد نزلت بعد الصلاة على ابـــن أبي وهو وإن كان خلاف ظاهر السياق لا مانع منه عقلا، ولكن يبعد جداً أن تكون آية الاستغفار للمنافقين قد نزل صدرها أولاً ثم نـــزل باقيهـــا متراخياً بعد سنة أو أكثر أي بعد الصلاة على ابن أبي، وكذا تأويل قـــول

---

(١٧٢) سورة المنافقون: آية ٦ .

(١٧٣) تفسير المنار [١٠: ٥٧٥- ٥٧٦] .

عمر: " وقد نهاك الله عن الصلاة على المنافقين " بأنــه يعــني بالصــلاة الاستغفار، وإذا سلمنا نزول صدر آية من سياق طويل كآية براءة في سنة، ونزول باقيها في سنة أخرى على بعده، فماذا نقول في آية سورة المنافقين، وقد نزلت قبل آية براءة بأربع سنين في غزوة بني المصطلق وكانت سنــة خمس من الهجرة، وهي أصرح في التسوية بين الاستغفار وعدمه ؟ .

الحق أن هذا الحديث معارض للآيتين فالذين يعنون بأصــول الــدين ودلائله القطعية أكثر من الروايات والدلائل الظنية لم يجدوا ما يجيبون بــه عن هذا التعارض إلا الحكم بعدم صحة الحديث ولو من جهة متنــه، وفي مقدمتهم أكبر أساطين النظار كالقاضي أبي بكر الباقلاني وإمام الحــرمين والغزالي، ووافقهم على ذلك الداودي من شراح البخاري . وأما الــذين يعنون بالأسانيد أكثر من عنايتهم بالمتون، والفروع أكثر من الأصول فقد تكلفوا ما بينا خلاصته عن أحفظ حفاظهم . ومن الأصول المتفق عليها أنه ما كل ما صح سنده يكون متنه صحيحاً، وما كل ما لم يصح سنده يكون متنه غير صحيح، وإنما يعول على صحة السند إذا لم يعارض المتن ما هــو قطعي في الواقع أو في النصوص، وإن القرآن مقدم على الأحاديث عنــد التعارض وعدم إمكان الجمع، فمن اطمئن قلبه لما ذكروا من الجمــع أو لوجه آخر ظهر له فهو خير له من رد الحديث ومن لم يظهر له ذلك فلا مندوحة له عن الجزم بترجيح القرآن،والتماس عذر لرواة الحديث بنحو مما ذكرناه في تعارض أحاديث الدجال "[١٧٤] أ . هـــ .

---

[١٧٤] تفسير المنار [١٠: ٥٨٠] .

تقديم منطوق حديث ابن عباس على منطق حديث ابن عمر

على أن هذا الحديث وهو من رواية ابن عمر رضي الله عنهما يعارضه بعض المعارضة حديث من رواية ابن عباس عن عمر بن الخطـــاب ﷺ في نفس الموضوع أورده البخاري في صحيحه عقيب حديث ابن عمر هـــذا من غير فاصل بينهما، وفيه أن النبي ﷺ قال: « لو أعلم أني إن زدت على السبعين، يغفر له لزدت عليها » .

وهذا دليل قاطع على أن رسول الله ﷺ لم يحمل العدد على التحديد بخلاف ما جاء في حديث ابن عمر، ويؤكد هذا أن حديث ابن عباس رواه عن عمر وهو الذي وقف أمام الرسول ﷺ وحاوره في الصلاة على ابـــن أبي والاستغفار له، فلو كانت الآية للتخيير- والعدد للتحديد ما وقف عمر هذا الموقف من رسول الله ﷺ، وعمر من أساطين العربية الـــذين يحـــتج بقولهم فيها وفي فهم أساليبها .

ونبه الألوسي- ككثير من العلماء- في روح المعاني على هذا التعارض بين الروايات فقال:" والاخبار فيما كان منه عليه الصلاة والســـلام مـــع ابن أبي من الصلاة عليه وغيرها لا تخلو عن التعارض "[١٧٥] .

وقد فسر الطبري- وهو شيخ المفسرين وإمامهم- الآية على عدم التخيير، وأن المقصود بها الإخبار بعدم المغفرة فقال: " يقول تعالى ذكره لنبيه محمد ﷺ: أدع الله لهؤلاء المنافقين الذين وصف صفاتهم في هذه الآيات بالمغفرة أو لا تدع لهم بها، وهذا كلام خرج مخرج الأمر، وتأويله الخبر، ومعناه: ان استغفرت لهم يا محمد أو لم تستغفر لهم، فلن يغفر الله لهم . وقوله ﴿ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ يقول إن تسأل لهم

---

[١٧٥] روح المعاني [١٠: ١٥٤] .

أن تستر عليهم ذنوبهم بالعفو منه لهم عنها، وترك فضحهم بها، فلن يستر الله عليهم ولن يعفو لهم عنها، ولكنه يفضحهم بها على رؤوس الأشهاد يوم القيامة ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ يقول جل ثناؤه: هذا الفعل من الله بهم، وهو ترك عفوه لهم عن ذنوبهم من أجل أنهم جحدوا توحيد الله ورسالة رسوله ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ يقول: والله لا يوفق للإيمان به وبرسوله من آثر الكفر به، والخروج عن طاعته على الإيمان به وبرسوله "[١٧٦] أ. هـ .

ثم قال بعد ذلك- على خلاف عادته فيما يتصل بالروايات التي يستأنس بها من أقوال السلف- " وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل "[١٧٧]، أو " وبنحو هذا القول كان يقول[١٧٨] .. " ويعدد القائلين بقوله- قال:" ويروي "[١٧٩] وساق أخباراً وآثاراً مسندة ومرسلة لا تتصل بما فسر الآية به، وهذا يدل على عدم ارتضائه هذه الروايات تفسيراً للآية.

وقد غلط الزمخشري ومن تابعه من المفسرين- بعد أن فهم الآية على وجهها الصحيح- فأقر فهماً فاسداً مدخولاً فقال: " فإن قلت: كيف خفي على رسول الله ﷺ وهو أفصح العرب وأخبرهم بأساليب الكلام وتمثيلاته والذي يفهم من ذكر هذا العدد كثرة الاستغفار كيف وقد تلاه بقوله ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ﴾ الآية فبين الصارف عن المغفرة لهم حتى

---

[١٧٦] تفسير الطبري [١٠: ١٩٨] .

[١٧٧] تفسير الطبري [١٠: ١٧٨] .

[١٧٨] تفسير الطبري [١٠: ١٩١] .

[١٧٩] تفسير الطبري [١٠: ١٩٨] .

قال: قد رخص لي ربي فسأزيد على السبعين ؟ قلت: لم يخف عليه ذلك ولكنه خيل بما قال إظهاراً لغاية رحمته ورأفته على من بعث إليه "(١٨٠) .

الرد على الزمخشري

وقد رد عليه أبو حيان في البحر هذا الفهم السقيم فقال: " وفي هـــذا السؤال والجواب غض من منصب النبوة وسوء أدب على الأنبياء ونسبته إليه مما لا يليق بهم، وإذا كانﷺ يقول: « لم يكن لنبي خائنة الأعين »(١٨١) أو كما قال وهي الإشارة فكيف يكون له النطق بشيء على سبيل التخييل حاشا منصب الأنبياء عن ذلك ولكن هذا الرجل مسرح الألفاظ في حق الأنبياء بما لا يليق بحالهم "(١٨٢) .

ومما يتصل بهذا البحث في قوله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴾ الآية، البحث في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ۖ إِنَّهُمْ كَفَرُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ فَـٰسِقُونَ ﴾(١٨٣) .

وذلك أن المراد بها المنافقون الذين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ للجهاد الذين أشير إليهم بقوله تعالى: ﴿ فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَـٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا

(١٨٠) الكشاف: للزمخشري [٢: ٢٠٥] .

(١٨١) لفظ الحديث كما في سنن أبي داود (انه لا ينبغي لنبي أن تكون له خائنة الأعين) [٤: ١٢٨] .

(١٨٢) البحر المحيط: لأبي حيان [٥: ٧٨] .

(١٨٣) سورة التوبة: آية ٨٤ .

تَنفِرُواْ فِي ٱلْحَرِّ ۗ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا ۚ لَّوْ كَانُواْ يَفْقَهُونَ ۝ فَلْيَضْحَكُواْ قَلِيلًا وَلْيَبْكُواْ كَثِيرًا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَكْسِبُونَ ۝ فَإِن رَّجَعَكَ ٱللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَٱسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُواْ مَعِيَ أَبَدًا وَلَن تُقَٰتِلُواْ مَعِيَ عَدُوًّا ۖ إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِٱلْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَٱقْعُدُواْ مَعَ ٱلْخَٰلِفِينَ ﴾[١٨٤] .

وهذا كما قال الإمام الطبري في تفسيره: " ولا تصل يا محمد على أحد مات من هؤلاء المنافقين الذين تخلفوا عن الخروج معك أبداً "[١٨٥] .

وهذا السياق يقتضي أن هذه الآية نزلت في جماعة من المنافقين لم يعينوا ولم يذكر فيهم ابن أبي غير أن بعض الروايات التي وردت في بعض الصحاح بأسانيد صحيحة جعلت سبب نزولها تهيؤ رسول الله ﷺ للصلاة عليه حين طلب ابنه عبد الله بن عبد الله بن أبي منه ذلك، وكان ابنه عبد الله من صالحي الصحابة، أو حين طلب عبد الله بن أبي نفسه ذلك من رسول الله ﷺ حين عاده رسول الله ﷺ في مرض موته بطلب من ابنه أن يمن عليه فيعطيه قميصه ليكفن فيه ويصلي عليه .

التماس وجه القول لصلاة رسول الله ﷺ على عبد الله ابن أبي

ويمكن تخريج هذه الروايات على حملها على أن عبد الله بن أبي أحد من نهى رسول الله ﷺ عن الصلاة عليه في ضمن العموم الذي يدل عليه قوله ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾ وعند ذلك يمكن حمل تهيؤ رسول الله ﷺ للصلاة عليه أو الصلاة عليه فعلاً والقيام على قبره على ما ظهر منه في مرض موته مما يمكن أن يؤخذ منه أنه راجع الإسلام، وتاب من النفاق،

---

[١٨٤] سورة التوبة: آية ٨١، ٨٢، ٨٣ .

[١٨٥] تفسير الطبري [١٠: ٢٠٤] .

فقد أخرج الطبري عن قتادة قال: " أرسل عبد الله بن أبي ابن سلول وهو مريض إلى النبيﷺ فلما دخل عليه قال له النبيﷺ: « أهلكك حب يهود » قال: يا رسول الله إنما أرسلت إليك لتستغفر لي و لم أرسل إليك لتؤنبني، ثم سأله عبد الله أن يعطيه قميصه أن يكفن فيه فأعطاه إياه وصلى عليه وقام على قبره فأنزل الله تعالى ذكره ﴿وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَىٰ قَبْرِهِۦٓ ﴾[١٨٦]ونقله الحافظ ابن حجر في الفتح عنه و " عن عبد الرزاق عن معمر من طريق سعيد كلاهما عن قتادة "[١٨٧]وقال " وهذا مرسل مع ثقة رجاله ويعضده ما أخرجه الطبراني من طريق الحكم بن أبان عن عكرمة، عن ابن عباس قال: " لما مرض عبد الله بن أبي جاءه النبي ﷺ فكلمه فقال: قد فهمت ما تقول فأمنن عليّ فكفني في قميصك وصل عليّ ففعل "[١٨٨] . فلعل رسول الله ﷺ تهيأ للصلاة عليه أو صلى عليه فعلاً أخذاً بظاهر حاله . وقد استحسن الحافظ ابن حجر هذا فقال: " ووقعت إجابته إلى سؤاله بحسب ما ظهر من حاله إلى أن كشف الله الغطاء عن ذلك .. وهذا من أحسن الأجوبة فيما يتعلق بهذه القصة .[١٨٩]

***

---

(١٨٦) تفسير الطبري [١٠: ٢٠٦] .

(١٨٧) الفتح [٨: ٣٣٤] .

(١٨٨) نفس المرجع السابق .

(١٨٩) نفس المرجع السابق .

النهي عن الاستغفار للمشركين

ومما يدخل في هذا النوع من العتاب قولــه تعــالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسۡتَغۡفِرُواْ لِلۡمُشۡرِكِينَ وَلَوۡ كَانُوٓاْ أُوْلِي قُرۡبَىٰ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾(١٩٠) .

قبل أن ندخل في الحديث عن هذه الآية الكريمة بياناً لما فيها من بحثنا نرى أنه ورد في أسلوبها جملة " ما كان للنبي " وهذا الأسلوب المكون من " كان " المنفية بـــ" ما " الآتي بعدها لام الجحود تأكيداً لتقوية النفي فيها قد ورد في القرآن الكريم، وكلام العرب على وجهين، كما قال المفسرون وأهل المعاني(١٩١):

الوجه الأول: النفي كما هو ظاهر أسلوبها كقوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ لَكُمۡ أَن تُنۢبِتُواْ شَجَرَهَآۗ ﴾(١٩٢)وقوله ﴿ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمۡۚ ﴾(١٩٣)، وهذا هو الأصل في معنى هذا الأسلوب، لأن توكيد فعل الكون بلام الجحود هو " أبلغ لفظ يستعمل في النفي "(١٩٤) ومعناه انصباب النفي على ما قبل اللام وما بعدها نفياً مطلقاً " يشمل جميع الحالات المعنوية التي يتضمنها الكلام "(١٩٥) .

---

(١٩٠) سورة براءة: آية ١١٣ .

(١٩١) تفسير القرطبي [٨: ٢٧٤]، فتح القدير للشوكاني [٢: ٤١٠] .

(١٩٢) سورة النمل: آية ٦٠ .

(١٩٣) سورة البقرة:آية ١٤٣ .

(١٩٤) أسرار التكرار في القرآن: لتاج القراء محمود بن حمزة الكرمــاني(ص٩٩) تحقيق عبد القادر عطا، ط/ الأولى عام ١٣٩٤هـــ، دار الاعتصام بمصر .

(١٩٥) النحو الوافي [٤: ٢٩٩] .

نفي التهيؤ للفعل أبلغ من نفي الفعل

ويفيد هذا التركيب معنى زائداً على نفي مجرد الفعل وهو نفي التهيؤ للفعل المنفي عنه وإرادته والصلاحية له، بمعنى أن المنفي عنه ما في الجملة من معنى منفي عنه أيضاً إرادة ذلك الفعل والتهيؤ والاستعداد والصلاحية له كما أوضح ذلك أبو حيان في البحر(١٩٦)، وابن هشام في المغني(١٩٧)، وصاحب النحو الوافي وغيرهم .

ولا شك أن " نفي التهيئة والإرادة للفعل أبلغ من نفي الفعل، لأن نفي الفعل لا يستلزم نفي إرادته، ونفي التهيئة والصلاح والارادة للفعل تستلزم نفي الفعل، فلذلك كان النفي مع لام الجحود أبلغ "(١٩٨) .

وعلى هذا يكون معنى الآية الكريمة: ما كان من شأن النبي- ﷺ- من حيث هو نبي، وما كان شأن المؤمنين من حيث هم مؤمنون أن يدعوا للمشركين بالمغفرة، ولا أن يطلبوا من الله لهم الرحمة ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ لأن النبوة تنافي العطف على الشرك، والإيمان من حيث هو إيمان يمنع المؤمنين من ذلك، ولو دعتهم رقة القرابة وشفقة الرحم، ووشائج الدم إلى العطف والحنو عليهم، وحب المغفرة لهم .

فالآية على هذا الوجه لا تدل على وقوع الاستغفار بل تدل على نفيه، فهي تبرئة وتتريه للنبي ﷺ والمؤمنين عن أن يقع منه أو منهم ذلك حسبما يدل عليه هذا الأسلوب .

(١٩٦) البحر المحيط [١: ٤٢٦] .
(١٩٧) مغني اللبيب [١: ٢١١] .
(١٩٨) البحر المحيط [١: ٤٢٦] .

وتذييل الآية الكريمة بقولـــه ﴿مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ﴾ تعليل لنفي الاستغفار للمشركين، وبيان لسبب عدم صدوره من النبي ﷺ والمؤمنين، لأنهم يعلمون أن الله تعالى لا يغفر أن يشرك به فـــلا يسألون " ربهم ما قد علموا أنه لا يفعله "[١٩٩] .

ويؤيد هذا الفهم قوله تعالى: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمًا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوۡ كَانُوٓاْ ءَابَآءَهُمۡ أَوۡ أَبۡنَآءَهُمۡ أَوۡ إِخۡوَٰنَهُمۡ أَوۡ عَشِيرَتَهُمۡۚ .... ﴾[٢٠٠] .

ولا يعكر على هذا الفهم ما ورد من استغفار إبراهيم لأبيه في قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسۡتِغۡفَارُ إِبۡرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوۡعِدَةٖ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوّٞ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنۡهُۚ﴾[٢٠١] لأن استغفاره له كان قبل التبين، فلما تبين له أنه من أصحاب الجحيم أمسك عنه لأنه ليس من شأن النبي أن يستغفر للمشركين الذين هم من أصحاب الجحيم .

وتبين أصحاب الجحيم يكون إما بموتهم على شركهم وكفرهم بـــالله وإما بنزول الوحي فيهم يدمغهم بأنهم من أصحاب النار خالدين فيها كما نزل في أبي لهب وغيره، أو بإخباره تعالى بأنهم طبع على قلوبهم .

---

[١٩٩] تفسير الطبري [١١: ٤٠] .

[٢٠٠] سورة المجادلة: آية ٢٢ .

[٢٠١] سورة براءة: آية ١١٤ .

أما الوجه الثاني من وجهي استعمال هذا الأسلوب في القرآن الكريم فهو متضمن لمعنى النهي كقوله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ﴾[٢٠٢] .

وقد جعل منه بعض العلماء آية بحثنا هذا[٢٠٣] وأمثالها من نحو قوله تعالى ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ ﴾[٢٠٤] .

وعلى هذا الوجه يكون معناها: النهي عن الاستغفار للمشركين، أي: لا تستغفروا للمشركين ولو كانوا أولى قربى من بعد ما تبين لكم أنهم من أصحاب الجحيم .

فالآية على هذا الوجه واردة على أمر اقتضاها، وهي من آيات العتاب .

والذي دعا هؤلاء العلماء إلى حمل هذه الآية الكريمة على هذا الوجه - دون الوجه الأول، وبه كانت من آيات العتاب- ورود أحاديث في صحيحي البخاري ومسلم تذكر أن سبب نزولها عرض رسول الله ﷺ الإيمان على عمه أبي طالب في مرضه الذي مات فيه إذ دخل عليه رسول الله ﷺ وعنده أبو جهل، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة فقال: « أي عم قل لا إله إلا الله كلمة أحاج لك بها عند الله » فقال أبو جهل وعبد الله

---

[٢٠٢] سورة الأحزاب: آية ٥٣ .

[٢٠٣] الإنصاف: لابن المنير بهامش الكشاف [١: ٤٧٦]، روح المعاني [٤: ١٠٩] .

[٢٠٤] سورة الأنفال: آية ٦٧ .

ابن أبي أمية:" أترغب عن ملة عبد المطلب ؟ " فلم يزل رسول الله ﷺ يعرضها عليه ويعيدانه بتلك المقالة حتى قال أبو طالب آخر ما كلمهم: " على ملة عبد المطلب " . وأبى أن يقول لا إله إلا الله . قال: قال رسول الله ﷺ: « والله لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » فأنزل الله ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ "(٢٠٥) .

فهل يدل قول النبي ﷺ: « لأستغفرن لك ما لم أنه عنك » على وقوع الاستغفار منه لأبي طالب فعلا ؟ أو يدل على وعد منه بالاستغفار له فنزلت الآية نهياً عن الاستغفار أو الوعد به ؟ .

فالآية على هذا مكية نزلت عند موت أبي طالب كما يدل عليه أصل استعمال الفاء في التعقيب والترتيب بغير مهملة، ولهذا لا وجه للقول " بتقدم السبب وتأخير النزول "(٢٠٦) إلى أواخر العهد بالمدينة حملاً للفاء على السببية كما ذهب إليه بعض من أهل العلم،(٢٠٧) لما بينا من أصل استعمال الفاء، ولأن الرابط بين السبب والمسبب أمر عقلي لا يمكن أن يتأخر المسبب فيه عن السبب زمناً طويلاً كما يقولون، وقد يكون الربط عادياً فيتخلف المسبب عن السبب .

فعلى حمل معنى الآية على الوجه الأول من معنيي هذا الأسلوب- وهو النفي والتبرئة والتنزيه لرسول الله ﷺ أن يكون وقع منه استغفار لأبي طالب- فلا عتاب فيها لسيدنا رسول الله ﷺ، ويكون قوله « لأستغفرن

---

(٢٠٥) رواه البخاري [٦: ١٤١]، صحيح مسلم [١: ٥٤] .

(٢٠٦) فتح الباري [٨: ٥٠٨]، روح المعاني [١١: ٣٣] .

(٢٠٧) نفس المرجعين السابقين .

لك ما لم أنه عنك »، " تطييباً لنفس أبي طالب[٢٠٨] لعله يدخل الرجاء إلى قلبه فيتوب، ويراجع الإيمان في آخر عهده بالدنيا قبل المعاينة، أو هو من قبل الدعاء له بالهداية كما ورد عنه ﷺ أنه دعا لكفار أحد فقال: « رب اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون »[٢٠٩] وقد أوضحت الرواية الأخرى- وهي قوله ﷺ « اللهم أهد قومي فإنهم لا يعلمون »- أن الدعاء بالمغفرة هنا أريد به الدعاء بالهداية لهم ليؤمنوا . وهذا لا يعاتب عليه رسول الله ﷺ فكان أن نزلت الآية عند مناسبتها في ذلك الوقت قطعاً لرجاء رسول الله ﷺ في إيمانه وزجراً لبعض المؤمنين الذين وقع منهم الاستغفار لذوي قرباهم من المشركين، وقد تبين له ﷺ بصريح قوله أنه باق على كفره، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمۡ أَنَّهُمۡ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَحِيمِ ﴾ .

أما حمل معنى الآية على الوجه الثاني من معنيي هذا التركيب- وهو الذي يدل على تضمنها للنهي- فالعتاب وارد على احتمال وقوع الاستغفار من النبي ﷺ لعمه وفاء بوعده « لأستغفره لك ما لم أنه عنك » أو على مجرد الوعد بذلك كما يدل عليه تذييل الآية الكريمة، لأن من مات على الكفر لا يستغفر له، ولا يوعد بالاستغفار له .

موقع العتاب من هذه الآية

وموقع العتاب في هذا جاء على شدة رجاء وإلحاح رسول الله ﷺ على إيمان أبي طالب مع تمسكه بملة الأشياخ وقوله لرسول الله ﷺ « لولا

---

[٢٠٨] شرح النووي على صحيح مسلم [١: ٢١٥] .

[٢٠٩] عيون الأثر [٢: ٢٤]، فتح الباري [٧: ٣٧٣]، [١٢: ٢٨٢] ونقله الحافظ ابن حجر من صحيح ابن حبان، الفتح [٦: ٥٢١]، وهو في صحيح البخاري [٤: ٢١٤]، [٩: ٢٠] .

أن تعيرني قريش يقولون: إنما حمله على ذلك الجـزع . لأقـررت بهـا عينك »[٢١٠].

وذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية نزلت في نهي المـؤمنين عـن استغفارهم لآبائهم المشركين، واستدلوا لذلك بما رواه الترمذي وحسنه والإمام أحمد في مسنده- ونقله ابن كثير في تفسيره في المسند و لم يعقـب عليه بشيء- عن علي ﷺ قال: " سمعت رجلاً يـستغفر لأبويـه وهمـا مشركان فقلت له: أتستغفر لأبويك وهما مشركان ؟ فقـال: أو لـيس استغفر إبراهيم لأبيه وهو مشرك فذكرت ذلك للنبي ﷺ فنزلت﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾[٢١١] .

فهذا الحديث صريح في أن هذه الآية نزلت لنـهي المـؤمنين عـن الاستغفار لآبائهم المشركين، وإنما ذكر النبيﷺ في صدر الآية باعتباره ﷺ المتلقي للوحي المبين لأحكامه .

***

إيجاب تعليق عموم الأعمال على مشيئة الله

ومما ينتظم في هذا النوع من العتاب قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴾[٢١٢] .

---

[٢١٠] رواه مسلم [١: ٥٥]، والترمذي [٥: ٣٤١] .

[٢١١] سنن الترمذي [٥: ٢٨١]، مسند أحمد بتحقيق أحمد شاكر [٢: ١١٦-١١٧] .

[٢١٢] سورة الكهف: ٢٣-٢٤ .

وقد نزلت هاتان الآيتان في قصة تقول: إن النبي ﷺ قد سئل من بعض شياطين قريش بإيعاز من أحبار اليهود بالمدينة عن ثلاثة أشياء: عن فتية ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم ؟ فإنه قد كان لهم حديث عجيب . وعن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ؟ وعن الروح ما هو ؟ فقال لهم رسول الله ﷺ « أخبركم غداً[٢١٣] بما سألتم عنه » و لم يستثن[٢١٤] فاحتبس عنه الوحي أياماً قيل إنها أربعون يوماً، وقيل إنها خمسة عشر يوماً، وقيل إنها ثلاثة أيام .

وهذا الأخير هو الأقرب إلى المعقول، فحزن رسول الله ﷺ لإبطاء الوحي عليه وشق عليه ما يتكلم به أهل مكة .

" فأتاه جبرائيل فقال: اشتد عليك احتباسنا عنك، وتكلم في ذلك المشركون، وإنما أنا عبد الله ورسوله، إذا أمرني بأمر أطعته ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ رَبِّكَ ﴾ "[٢١٥] .

قال بعض المفسرين: في الآيتين عتاب[٢١٦] لرسول الله ﷺ على ترك الاستثناء أي لتركه قول " إن شاء الله " .

---

[٢١٣] تفسير الطبري [١٥: ١٩٠]، البداية [٣: ٥٣] .

[٢١٤] أي لم يقل إن شاء الله وهو ما يشير إليه قوله تعالى ﴿ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ۝ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾ .

[٢١٥] تفسير الطبري [١٦: ١٠٤] .

[٢١٦] تفسير القرطبي [١٠: ٣٨٥]، محاسن التأويل: للقاسمي [١١: ٤٠٤٥] .

وعبر بعضهم عن العتاب بالتأديب[٢١٧]، ولفظ العتاب أحسن وأليق بموضعه، وقد أبدع الحافظ ابن كثير- رحمه الله تعالى- في التعبير عن هذا فقال:" هذا إرشاد من الله تعالى لرسول الله ﷺ إلى الأدب فيما إذا عزم على شيء ليفعله في المستقبل أن يرد ذلك إلى مشيئة الله ﷻ علام الغيوب الذي يعلم ما كان وما يكون وما لم يكن لو كان كيف يكون "[٢١٨] .

وكيفما يكن الأمر من العتاب أو التأديب أو التعليم والإرشاد، فإن النظر في الآيتين يكون أولاً في تركيبهما، وموضع الاستثناء من الآية الأولى وبأي ألفاظها يرتبط، وثانياً في بيان ما فيها من عتاب ووجهه، وثالثاً في بيان كون هذا العتاب من عتاب التنبيه وهو النوع الثاني من أنواع العتاب فيما ذهبنا إليه من تنويع .

وقد اختلف في تعلق الاستثناء في الآية الثانية وارتباطه بالآية الأولى .

فقيل أن الاستثناء مرتبط بالنهي لا بقوله " إني فاعل ذلك " لأن تعلقه بقوله " إني فاعل " يجعل المعنى: إني فاعل كذا إلا أن تمنعني مشيئة الله من الفعل .

وهذا المعنى لا مدخل له في النهي، والنهي هو المقصود في الآية لورودها من أجله .

وارتباط الاستثناء بالنهي محتمل لوجهين:

---

(٢١٧) تفسير الطبري [١٥: ٢٢٨]، تفسير الزمخشري [٢: ٤٠٨]، تفسير النسفي [٣: ٩]، تفسير ابن العربي [٣: ١٢٢٢] .

(٢١٨) تفسير ابن كثير [٣: ٧٨] .

الوجه الأول: يصير المعنى به: " ولا تقولن ذلك القول إلا أن يشاء الله أن تقول بأن يأذن لك فيه " .

وهذا معنى صحيح في ذاته ولكنه غير مراد هنا، لأن المراد هنا النـــهي عن القول إلا مرتبطاً بقوله " إن شاء الله " وهو الوجه الثاني في الاحتمال، إذ المراد في هذا الوجه الثاني: ولا تقولن قولاً تعد فيه أحداً بوعد أو تعزم على فعل شيء في المستقبل إلا أن تربط وعدك أو عزمك علـــى الفعـــل بقولك " إن شاء الله " .

هذا ملخص كلام الزمخشري في المراد بتركيب الآيـــتين[٢١٩]، وقـــد أوضح الوجه المراد هنا فيهما الناصر ابن المنير في انتصافه على الكـــشاف فقال: " .. إنما الغرض النهي عن هذا القول إلا مقروناً بقول المشيئة "[٢٢٠] أي بقول " إن شاء الله " .

وعبارة القاسمي- في تفسيره- أوضح هنا في بيان المراد من عبارة ابن المنير حيث قال:" ولا تقولن لما عزمت عليه من فعل إني فاعل ذلك غـــداً إلا قائلاً معه: إن شاء الله "[٢٢١] .

وقد نهي عليه الصلاة والسلام عن أن يقول قولاً إلا مقروناً بقوله (إن شاء الله " تعليماً له ﷺ وتشريعاً لأمته كلها في مستقبل حياتها حتى يتحقق كل قائل لقول أو فاعل لفعل يفعله في مستقبل الأيام بأن قوله أو فعله

---

[٢١٩] الكشاف: للزمخشري [٢: ٤٧٩-٤٨٠] .

[٢٢٠] هامش الكشاف [٢: ٤٨٠] .

[٢٢١] محاسن التأويل [١١: ٤٠٤٤] .

لا يقع إلا بمشيئة الله تعالى على حـــد قولـــه ﷻ ﴿ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ ﴾[٢٢٢] .

فالآيتان على هذا تعليم لرسول الله ﷺ- ولأمته عامة- لما ينبغي لـــه التزامه حين يسأل عن أمر لا يعلمه ألا يعد بالجواب أحداً وألا يقول بأنه سيفعل كذا غداً " إلا أن يصله بمشيئة الله تعالى لأنه لا يكون شـــيء إلا بمشيئته "[٢٢٣] ابتعاداً عما يظن بذلك من " لزوم التحكم على الله تعـــالى وتبرؤا مما يشعر أنه قام بالفعل بإرادته "[٢٢٤] .

قال ابن كثير في اعتراض هاتين الآيتين وسط قصة أصحاب الكهف " واعترض في الوسط بتعليمه الاستثناء تحقيقاً لا تعليقاً "[٢٢٥] .

وهذا هو الأوجه بمعنى الآيتين الكريمتين، لأنه رد للمشيئة إلى الله تعالى وحده، وإبعاد للمسلم عن الكذب فيما لو لم يتمكن من الوفاء بوعده أو القيام بما عزم عليه من فعل لعارض من عوارض الدنيا اعترضه أو لموت أصابه، لأنه[٢٢٦] ﴿ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ﴾[٢٢٧] .

---

[٢٢٢] سورة التكوير: آية ٢٩ .

[٢٢٣] تفسير الطبري [٥: ٢٢٨] .

[٢٢٤] محاسن التأويل [١١: ٤٠٤٤] .

[٢٢٥] البداية والنهاية: لابن كثير [٣: ٥٣] .

[٢٢٦] محاسن التأويل [١١: ٤٠٤٤] (بتصرف) .

[٢٢٧] سورة لقمان: آية ٣٤ .

وإذا بدر منه قول ناسياً الاستثناء فيه فليذكر ربه ليتذكر ما فاته من ذكر المشيئة تداركاً لنسيانه إياها امتثالاً لما أمره ربه به في ذلك .

وختمت الآية الثانية بإرشاده ﷺ إلى أن يرجو ربه أن يمنحه من الآيات البينات والدلائل الواضحات الدالة على صحة نبوته عليه الصلاة والسلام، وصدقه فيها ما عساه أن يكون أظهر مما سألوه عنه وأكثر خيراً ومنفعة فقال ﴿ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴾ .

والظاهر من قوله ﷺ « أخبركم غداً » أنه وكل الأمر إلى الوحي فأعطى لنفسه فرصة الانتظار إلى الغد اعتماداً على ما في قلبه الطاهر من اطمئنان بالجواب منه تعالى، وليس استقلالاً منه بالتفكير والإخبار، إذ لا مجال للاجتهاد في مثل هذه الأمور، ولعل العتاب حينئذ كان من أجل التقييد بالغد .

ويظهر مما قلناه أن الآيتين فيهما تلطف في عتاب سيدنا رسول الله ﷺ على تركه الاستثناء في قوله « أخبركم غداً » .

ولا شك أن في هذا العتاب من لطف الإرشاد والتعليم لسيدنا رسول الله ﷺ ما يجعله مثلاً في الأسوة به لاقتداء أمته ﷺ به في ربط قولها وفعلها بمشيئة الله تعالى .

وجه كون الخطاب بهذه الآية عتاباً

وأما وجه كون هذا العتاب من قبيل عتاب التنبيه فلأنه إرشاد لسيدنا رسول الله ﷺ لم يقترن بشيء من شدة الخطاب أو التحذير مما يخشى وقوعه لو لم ينبه وهو توجيه لأمته ﷺ أن ترتبط في قولها وفعلها بمشيئة الله وأن تنهج من بعده ﷺ هذا النهج الذي يجعلها خير أمة أخرجت للناس .

النوع الثالث
عتاب التحذير

أما النوع الثالث من أنواع العتاب لسيدنا رسول الله ﷺ فهـو مـا أطلقنا عليه عتاب التحذير .

ويقصد به التخويف من عاقبة فعل يتوقع ضرره في أسلوب يحمل شيئاً من الشدة يختلف باختلاف مواقف العتاب دون أن يذكر في النص شيء من عقوبة أو وعيد .

ويشترك عتاب التحذير مع عتاب التنبيه في أن كلا منهما فيه تخويف من عاقبة مثل هذا الفعل لو تكرر، وينفرد عتاب التحذير عن عتاب التنبيه في أن أسلوب عتاب التحذير لا يخلو من شدة تقربه من الإنذار .

آيات عتاب التحذير

والآيات التي تدخل تحت هذا الضابط بحسب ما وصل إليه بحثنا هي الآيات التالية:

١- قوله تعالى من سورة النساء ﴿ إِنَّآ أَنزَلۡنَآ إِلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ بِٱلۡحَقِّ لِتَحۡكُمَ بَيۡنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُۚ وَلَا تَكُن لِّلۡخَآئِنِينَ خَصِيمٗا ﴿١٠٥﴾ وَٱسۡتَغۡفِرِ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٠٦﴾ وَلَا تُجَٰدِلۡ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمٗا ﴾[٢٢٨] .

٢- قوله تعالى من سورة الأنعـام ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيۡكَ إِعۡرَاضُهُمۡ فَإِنِ ٱسۡتَطَعۡتَ أَن تَبۡتَغِيَ نَفَقٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ أَوۡ سُلَّمٗا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأۡتِيَهُم بِـَٔايَةٖۚ

---

[٢٢٨] سورة النساء: ١٠٥- ١٠٧ .

وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴾[٢٢٩] .

٣- وقوله تعالى من سورة الأنعام أيضاً ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَىْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَىْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴾[٢٣٠] .

٤- وقوله تعالى من سورة الكهف ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[٢٣١] .

٥- وقوله تعالى من سورة الأنفال ﴿ مَا كَانَ لِنَبِىٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَّوْلَا كِتَـٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[٢٣٢] .

٦- وقوله تعالى من سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا

---

[٢٢٩] سورة الأنعام: آية ٣٥ .

[٢٣٠] سورة الأنعام: آية ٥٢ .

[٢٣١] سورة الكهف: آية ٢٨.

[٢٣٢] سورة الأنفال: آية ٦٧، ٦٨ .

زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[٢٣٣] .

٧- قوله تعالى من سورة التحريم ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ ۖ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢٣٤] .

٨- قوله تعالى من سورة عبس ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾[٢٣٥] .

تفصيل القول في الموضع الأول من هذه الآيات

أما الموضع الأول من هذا النوع من العتاب فهو قوله تعالى ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ۝ وَٱسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ۝ وَلَا تُجَٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا ﴾[٢٣٦] .

وقد جاءت هذه الآيات الثلاث- في سياقها من سورة النساء- إثر تحريض الله تعالى المؤمنين، وتقوية عزائمهم في قوله ﴿ وَلَا تَهِنُوا۟ فِي ٱبْتِغَآءِ ٱلْقَوْمِ ۖ إِن تَكُونُوا۟ تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ ۖ وَتَرْجُونَ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا

---

[٢٣٣] سورة الأحزاب: آية ٣٧ .

[٢٣٤] سورة التحريم: آية ١ .

[٢٣٥] سورة عبس: آية ١- ١٠ .

[٢٣٦] سورة النساء: آية ١٠٥- ١٠٧ .

يَرْجُونَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[٢٣٧]ليواصلوا الجهاد، وملاحقة الكافرين الذين ناصبوهم العداء كسراً لشوكة الكفر والكافرين، وخضداً لقوة أعداء الإسلام والمسلمين الذين يحاولون القضاء على الدين الإسلامي بإهلاك أهله المنتمين إليه المخلصين في الدعوة إلى سبيله إعلاء لشأنه وترسيخاً لأركانه .

ولتذكيرهم بألا يجعلوا من آلامهم الجسمية التي أصابتهم في جهادهم لأعداء الله ورسوله مانعاً من ابتغاء الكافرين ومطاردهم، فإن أعــداءهم أصيبوا بمثل ما أصيبوا به من الآلام وأوجاع الجراح والقتل، ومع ذلك فهم يصبرون على آلامهم، وينازلون المسلمين للقضاء عليهم، وعلى دينهم، فلا ينبغي لكم أيها المؤمنون أن تكونوا أقل صبراً من أعدائكم ولا أن تضعفوا عن مواقفتهم وملاحقتهم وأنتم تزيدون عليهم برفعة الإيمان والرجاء مــن الله نصره وتأييده وإظهار دينه وهو ما لا يرجوه أعداؤكم لأن الله مولاكم ولا مولى لهم .

ولتحذير المؤمنين ألا يضعفوا عن ملاحقة أعدائهم وألا يغفلوا عــن الاستعداد لهم كسراً لشوكتهم في كل آن .

الأمر بالتزام الحق والعدل في معاملة جميع الناس

وقد جاء صدر الآية الأولى من هذه الآيات الثلاث- موضع البحث- بعثاً لرسول الله ﷺ على التزام الحق والعدل في معاملة جميع الناس أعــداء كانوا أم أصدقاء، كفاراً أم مؤمنين-كما هو ديدنه ﷺ- في جميع الأحوال والأوقات والملابسات ومع جميع الناس من حيث هم ناس دون نظر إلى ما هم عليه من عقيدة ليكون ذلك نهجاً واجب السلوك على أمته من بعده في مقام انتصارها على أعدائها والظهور عليهم والتمكن منهم ألا يجانبوا الحق

---

[٢٣٧] سورة النساء: آية ١٠٤ .

والعدل في معاملتهم لأن العداوة لا تبيح مجانبة الحق والعدل، ولأن الكفر لا يبيح معاملة الكافر بما لم يعاملنا به، فلا يعتدى عليهم في مال أو عرض بغير حق ثابت وعدل قائم القواعد ولا يمثل بهم .

وجاء قولــه ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ بِٱلْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ مقرراً لقاعدة عامة هامة، وهي أن الله تعالى قد جعل الحكم بين جميع الناس قائماً على الحق والعدل سواء كان الناس كفاراً أم مؤمنين، أصدقاء أم أعداء، لا يُحَابي قريباً لقرابته ولا صديقاً لصداقته ولا يتحيف على عدو لعداوته، بل الناس بجميع أجناسهم وألوانهم وأديانهم وأحوالهم أمام الحكم بالحق والعدل سواء .

وهذا رد إلى ما تقدم في هذه السورة الكريمة من الأمر بالحكم بين الناس بالعدل في قوله ﴿ وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ ﴾ فهو من باب التأكيد المعنوي، فقوله هنا في هذه الآية- موضع البحث- ﴿ لِتَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِمَآ أَرَىٰكَ ٱللَّهُ ۚ ﴾ في مقابلة قوله في تلك " أن تحكموا بين الناس بالعدل " .

ولعل هذا هو وجه من جعل ربط هذه الآيات الثلاث بالآية المتقدمــة الآمرة بالحكم بين الناس بالعدل .

والذي أراه الله إياه اختلف فيه العلماء فقــال فريــق: هو ما يــراه ﷺ بالرأي والاجتهاد(٢٣٨) ، وقال فريق آخر هو مــا ينــزل عليــه بــه

(٢٣٨) تفسير الرازي [١١: ٣٢]، أحكام القرآن: لابن العربي [١: ٤٩٨]، تفسير القرطبي [٥: ٣٧٦]، تفسير المنار: لرشيد رضا [٥: ٣٩٥] .

الوحي .[٢٣٩]

وأياً ما كان فمرجع ما أراه الله إياه سواء أكان عن رأي واجتهاد منه ﷺ أم عن وحي منزل فإن مرجعه إلى الوحي إذ لو كان ما أراه الله رأيـاً واجتهاداً فإمَّا أن يصوب إن كان خطأ وإمَّا أن يقر إن كان صواباً فرجع في صورتيه إلى الوحي .

وخطابه ﷺ في هذه الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ يشعر بأنه هجس في نفسه الشريفة شيء أو حدث نفسه بشيء أخذاً بظاهر الحال قبل أن يبين الله له جلية الأمر، ولايلزم هذا النهي وقوع المنهي عنه .

وقد ذهب جمهور المفسرين إلى أن اللام في قولـه ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾ لام التعليل بمعنى أنه ﷺ نهى عـن مخاصـمة الـبرآء لأجـل الخائنين .[٢٤٠]

ومن المفسرين من ذهب إلى أنها بمعنى " عن" أي أنه ﷺ نهى عـن أن يكون مخاصماً عن الخائنين .[٢٤١]

---

[٢٣٩] نفس المراجع السابقة .

[٢٤٠] تفسير الطبري [٥: ٢٦٤]، الكشاف [١: ٥٦١]، تفسير الرازي [١١: ٣٢]، أبو السعود [١: ٣٨٠]، تفسير الألوسي [٥: ١٤٠]، املاء ما من به الرحمن من وجوه الاعراب والقراءات في جميع القرآن للعكـبري [١: ١٩٣] .

[٢٤١] معاني القرآن واعرابه: للزجاج [١: ١٠٩] .

وفي كلا الحالين ينتهي المعنى إلى أمر واحد، وهو أنه ﷺ نهي عن أن يكون خصيماً للبرآء لأجل الخائنين .

وعطف هذه الجملة، وهي قوله ﴿وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا﴾- وهي جملة انشائية لفظا ومعنى- على الجملة التي قبلها من هذه الآية- وهي خبرية لفظاً ومعنى- إنما صح لكون المعطوف عليه ليس هو الجملة الخبرية، وإنما هو " ما ينسحب عليه النظم الكريم "[٢٤٢] من تضمن أمر محذوف تقديره: فاحكم بين الناس به ولا تكن للخائنين خصيماً .

ثم عطف على جملة النهي الأولى وهي ﴿ وَلَا تَكُن لِّلْخَآئِنِينَ خَصِيمًا ﴾ جملة النهي الثانية وهي ﴿وَلَا تُجَـٰدِلْ عَنِ ٱلَّذِينَ يَخْتَانُونَ أَنفُسَهُمْ ﴾ من باب عطف الأثر على المؤثر، والمسبب على السبب لأن الجدل عن الخائنين أثر من آثار الكون خصيماً للبرآء لأجل الخائنين وهو-أي الجدل- مسبب عن الكون خصيماً للبرآء .

ما يدل عليه توسيط الأمر بالاستغفار بين النهيين

وتوسيط الأمر بالاستغفار بين النهيين لمحو ما عسى أن يكون هجس في نفس النبي ﷺ من شيء أخذاً بظاهر الحال قبل أن يبين الله له جلية الأمر .

والنهي وإن كان لا يدل على وقوع المنهي عنه من المنهي إلا أنه لا ينفي أن يكون قد دار في النفس من متضمن النهي شيء فجاء الأمر بالاستغفار ليمحو ذلك الأثر .

---

(٢٤٢) تفسير أبي السعود [١: ٣٨٠] .

تصوير حال المختانين أنفسهم

وفي قوله ﴿ٱلَّذِينَ يَخۡتَانُونَ أَنفُسَهُمۡ﴾ تصوير بالغ لحال أولئك المختانين، فإن خيانتهم ومعصيتهم قد بلغت مبلغاً من الشناعة والفظاعة تجاوزت فيه الذين خانوهم وغدروا بهم إلى حد أنهم من شدة خيانتهم قد انعكست الخيانة عليهم فخانوا أنفسهم وظلموها وأوردوها موارد الهلاك والعذاب الشديد من الله تعالى .

وفي التعبير بالإختيان عن الخيانة إشعار بالتدسس النفسي وشدة إخفاء معالم الخيانة التي كانوا عليها إظهاراً للنفاق الذي في أنفسهم .

وجاء قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ خَوَّانًا أَثِيمًا﴾ بياناً لقاعدة عامة - جرياً على سنة القرآن الكريم- من أنه إذا تحدث القرآن الكريم عن موضوع في وعد أو وعيد أو تحذير أو زجر عن حادث وقع من فرد أو طائفة فإنه يختم آيات ذلك الموضوع بقاعدة عامة لتكون تشريعاً أبدياً للأمة يحميها من الوقوع فيما وقع فيه أصحاب ذلك الحادث .

وفي التعبير بصيغتي المبالغة (خواناً أثيماً) بيان لمدى ما وصل إليه أولئك المختانون أنفسهم من خبث في الخيانة، وأنها ثابتة في طبائعهم، مستقرة في نفوسهم، فقد خانوا الله بمعصيته وخانوا الناس بالاعتداء على حقوقهم التي ائتمنوهم عليها، وخانوا أنفسهم بظلمها وإيرادها موارد العذاب، وخانوا الرسول ﷺ بالكذب عليه وإخفاء الحقيقة عنه طمعاً منهم في حمله على تبرئتهم بتظاهرهم بالصلاح في الإسلام وبما زكى به بعضهم بعضاً .

وصفهم بسوء ما بيتوا للتحذير من الاغترار بمثل ما تجمعوا عليه

فكشف الله خيانتهم، ووصمهم بسوء ما بيتوا فقال ﴿ يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱلنَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ ٱللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لَا يَرْضَىٰ مِنَ ٱلْقَوْلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا ﴾ .

وقوله تعالى- في خطاب رسول الله ﷺ- " ولا تجادل" نهي للتحذير وليس عن أمر واقع لأن الرسول ﷺ لا يجادل عن خائن، ويعصمه الله تعالى عن أن يدلسوا عليه الحقيقة .

والتحذير إنما كان لما احتف بالحادثة من تجمع المنافقين المتظاهرين بالصلاح في الإسلام وشهادتهم ببراءة صاحبهم والطعن على من ألقيت عليه الدرع وهو زيد بن السمين اليهودي أو غيره ممن ذكرت الروايات، وقصدهم خدع رسول الله ﷺ بإكثارهم الطعن على من ألقيت عليه الدرع ولا سيما إذا كان هو اليهودي، ولذلك جاء الخطاب لهؤلاء المنافقين تبكيتاً لهم وتقريعاً على ما فعلوه من الخيانة وشهادة الزور والطعن على البراء فقال تعالى: ﴿ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ جَٰدَلْتُمْ عَنْهُمْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَمَن يُجَٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾[٢٤٣] .

وهو خطاب يدل على وقوع الجدل الكاذب الخؤون من هؤلاء المنافقين المتجمعين الذين كانوا ألحن بحجتهم من خصومهم البرآء، والله يعلم أنه جدل زائف باطل نبه رسوله ﷺ على بطلانه وزيفه فلم ينخدع به رسول الله ﷺ في ترتيب شيء عليه من القضاء أو الحكم .

---

[٢٤٣] سورة النساء: آية ١٠٩ .

التمويه بالجدل الكاذب في الدنيا لا ينجي من عذاب الآخرة

ولما كان الجدل في الدنيا يمكن أن يقع به التمويه والخداع، وكان الجدل في الآخرة مكشوف السوأة لا يخدع به أحد نبه الله تعالى على أن جدلهم في الدنيا وإن كان خادعاً لم ينفعهم بشيء لأن الله تعالى أعلم رسوله ﷺ ونبهه على ما فيه من خيانة وخداع، ولكن جدل الآخرة لا يمكن أن يقع بسببه خداع ولا خيانة لأن الحاكم إذ ذاك هو الله وحده علام الغيوب فقال لهم منكراً مقرعاً ﴿ فَمَن يُجَـٰدِلُ ٱللَّهَ عَنْهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ﴾ يوم تنكشف الحقائق فلا يغطيها خداع أو لحن بحجة .

ثم قال لهم ﴿ أَم مَّن يَكُونُ عَلَيْهِمْ وَكِيلًا ﴾ أي من يكون كفيلاً لهم يوم القيامة ينجيهم من عذاب الله حيث لا خداع ولا خيانة .

فتح باب التوبة للتائبين

ثم فتح الله تعالى للتائبين باب التوبة رحمة منه وتفضلاً على عباده فقرر قاعدة عامة يدخل فيها كل تائب مستغفر فقال تعالى: ﴿ وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴾[٢٤٤] .

ثم بيّن أن من يكسب إثماً ومعصية من خيانة أو خداع عن الحق فإنما كسبه لها راجع على نفسه يضرها ولا يضر غيرها فقال: ﴿ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴾[٢٤٥] وفي هذه الفاصلة تهديد ووعيد لهؤلاء المنافقين بأن الله لا يخفى عليه خداعهم، وأن رسوله ﷺ في عصمة وحماية منه تعالى لا يتركه لخداعهم وخيانتهم، وأنه تعالى حكيم يضع الأمور في مواضعها .

---

[٢٤٤] سورة النساء: آية ١١٠ .

[٢٤٥] سورة النساء: آية ١١١ .

ثم أخبر تعالى عن القائمين بالباطل والخيانة في هذه الحادثة بأنهم إذ كسبوا الإثم ورموا به البريء فقد احتملوا جريمة البهتان والإثم المبين فقال تعالى ﴿ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴾[٢٤٦] .

قطع أطماع المنافقين في حجب الحقيقة عن رسول الله ﷺ

ثم عقب الله تعالى هذه الآيات بما امتن به على رسوله ﷺ من عصمته أن ينالوا بخداعهم ومكرهم منه شيئاً أو يضروه بشيء مما هموا به من الضلال والإفساد فقطع بذلك- إلى الأبد- أطماع الذين يظنون أن في استطاعتهم حجب الحقيقة عن رسول الله ﷺ كما يحجبونها عن غيره من الناس، كما عقب ذلك بمنة أخرى وهي إظهار فضل الله عليه وتعليمه ما لم يكن يعلم، وكان ذلك من عظيم فضل الله على رسوله وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُۥ لَهَمَّت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضِلُّوكَ وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ ۖ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِن شَىْءٍ ۚ وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ ۚ وَكَانَ فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾[٢٤٧] .

قال السيد محمد رشيد رضا في تفسير المنار: " وهذه الآية ناطقة بأنه ﷺ لم يجادل عنهم ولا أطمعهم في التحيز لهم قبل نزول الوحي ولا بعده بالأولى "[٢٤٨] .

---

[٢٤٦] سورة النساء: آية ١١٢ .

[٢٤٧] سورة النساء: آية ١١٣ .

[٢٤٨] تفسير المنار [٥: ٤٠٢] .

ثم نقل عن أستاذه الشيخ محمد عبده في تعقيب هذه الآيات قولــه:

" كان الكلام في المختانين أنفسهم ومحاولتهم زحزحة الرسول ﷺ عــن الحق، وقد أراد الله تعالى بعد بيان تلك الأوامر والنواهي وتوجيهها إلى نبيه ﷺ أن يبين فضله ونعمته عليه، قال الاستاذ: ولا يصح تفسير الآية بما ورد من قصة طعمة لأنه على ما روى قد هم هو وأصحابه بإضلال الــنبي ﷺ عن الحق الذي أنزله الله عليه، وهو تعالى يقول إنه بفضله ورحمته عليه قد صرف نفوس الأشرار عن الطمع في إضلاله والهــم بــذلك، وذلــك أن الأشرار إذا توجهت إرادهم وهممهم إلى التلبيس على شخص ومخادعتــه ومحاولة صرفه عن الحق فلابد له أن يشغل طائفة مــن وقتــه لمقاومتــهم وكشف حيلهم وتمييز تلبيسهم وذلك يشغل المرء عــن تقريــر الحقــائق وصرف وقت المقاومة إلى عمل آخر صالح نافع ولذلك تفضل الله علــى نبيه ﷺ ورحمه بصرف كيد الأشرار عنه حتى بالهم بغشه وزحزحته عــن صراط الله الذي أقامه عليه "[٢٤٩] . أ . هــ .

وهذا إيجاز لما فصلناه فيما سبق من تفسير الآيات .

والذي نفاه الأستاذ محمد عبده من عدم صحة تفسير الآيات بقــصة طعمة يقصد به ما أورده جمهور المفسرين والمحدثين من قصة ذكروها في أسباب الترول تنسب إلى رجل من بني أبيرق يقال له بشير واشتهر بطعمة وهو متهم بالنفاق وكان يقول الشعر يهجو به المسلمين وينسبه إلى بعض شعراء العرب، وجملة القصة- في إيجــاز كما أوردها الترمذي[٢٥٠]

---

[٢٤٩] تفسير المنار [٥: ٤٠٢] .

[٢٥٠] سنن الترمذي [٥: ٢٤٤- ٢٤٦] .

والطبري[٢٥١] وغيرهما- أن هذا الرجل نقب مشربة[٢٥٢] لرفاعة بن زيد وسرق منها أدرعاً له وطعاماً فذهب قتادة ابن أخي رفاعة إلى النبي ﷺ يشكو إليه بني أبيرق، ويخبره بما وقع من السرقة . قالت الرواية " فقال له رسول الله ﷺ: « سأنظر في ذلك »[٢٥٣] فلما أحس بنو أبيرق بأن الأمر وصل إلى رسول الله ﷺ قالوا له: " يا رسول الله إن قتادة بن النعمان وعمه عمدوا[٢٥٤] إلى أهل بيت منا أهل إسلام وصلاح يرمونهم بالسرقة من غير بينة ولا ثبت"[٢٥٥] قالت الرواية: " فقال رسول الله ﷺ لقتادة بن النعمان: « عمدت إلى أهل بيت ذكر منهم إسلام وصلاح ترميهم بالسرقة على غير ثبت وبينة »[٢٥٦] فلم يلبث أن نزل القرآن بهذه الآيات .

وقد علق الترمذي على هذه القصة بعد أن أوردها بقوله:" هذا حديث غريب لا نعلم أحداً أسنده غير محمد بن سلمة الحراني[٢٥٧] وذكر أن سائر رواياتها الأخرى مرسلة " .

---

[٢٥١] تفسير الطبري [٥: ٢٦٥- ٢٦٦] وانظر الروض الانف: للسهيلي [٤: ٤١١] بتعليق عبد الرحمن الوكيل رحمه الله .

[٢٥٢] المشربة هي: الغرفة .

[٢٥٣] تفسير الطبري [٥: ٢٦٦]، فتح القدير: للشوكاني [١: ٥١٢] .

[٢٥٤] هكذا وردت الرواية" عمدوا" بواو الجماعة .

[٢٥٥] سنن الترمذي [٥: ٢٤٥]، تفسير الطبري [٥: ٢٦٦] .

[٢٥٦] نفس المرجعين السابقين .

[٢٥٧] سنن الترمذي [٥: ٢٤٧]، وفي إسنادها الموصول هذا عمر بن قتادة بن النعمان وهو مقبول كما قال ابن حجر في التقريب[٢: ٦٢] أي أنه في المرتبة السادسة من مراتب التعديل إذ لم يرو عنه غير الترمذي من الأمهات الست .

ولعل الأستاذ محمد عبده في نفيه لتفسير الآيات بهذه القصة نظـر إلى إرسال أسانيدها فيما عدا رواية محمد بن سلمة الحراني وهو ثقة .[٢٥٨]

موضع العتاب في هذه الآية

وموطن العتاب في هذه الآيات في توجيه النهي إلى رسـول الله ﷺ أولاً: ألا يكون خصيماً للبرآء لأجل الخائنين .

وهذا الأسلوب وإن كان لا يستلزم وقوع المنهي عنه من رسـول الله ﷺ إلا أنه قد يشعر بحديث هجس في نفس الرسول ﷺ- قبل أن يبين الله له جلية الأمر فيهم- أخذاً بظاهر الحال من الذين تجمعوا و شهدوا عنـده ﷺ ببراءة هذا الرجل، مع ما في أسلوب الاية مـن شـدة في الخطـاب وتصوير هذه الشدة بألفاظ تؤكد هذه الشدة مما يشعر لأول وهلة وقبـل التأمل أنه قد وقع من النبي ﷺ ما يبرر هذا النهي بهذا الأسلوب .

وثانياً: نهيه ﷺ عن المجادلة عن الخائنين التي هي أثر من آثار ما تضمنه النهي في الجملة الأولى مع ما فيها- كالنهي الأول- من شدة في الأسلوب والألفاظ .

أما أنه من عتاب التحذير فلاشتماله- في موضـعيه- علـى شـدة الأسلوب الذي خرج مخرج التحذير مما يخشى في ظاهر الحال أثر وقوعـه لو تكرر .

***

---

[٢٥٨] تقريب التهذيب [٢: ١٦٦] .

ثانية آيات هذا النوع من العتاب

وثانية آيات هذا النوع من العتاب قوله تعالى- من سورة الأنعام-: ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾[٢٥٩] .

وهذه الآية تدخل في ظاهر أمرها ومجمل موضوعها تحت عتاب التوجيه لأنها عتاب على شدة حرص رسول الله ﷺ على إيمان قومه الذي بلغ فيه مبلغاً ليس وراءه مطلب لحرص حريص، فهي بحسب هذا الظاهر من قبيل ﴿ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ ﴾[٢٦٠] .

غير أنها لما اشتملت على تحذير وشيء من الشدة في الخطاب بلغ مبلغ التيئيس من إيمانهم الذي أشعر بأن الرسول ﷺ لم يترك طريقاً من طرائق جذبهم إلى الإيمان إلا وقد سلكه معهم، حتى كأنه ﷺ رغب في أن لا يأتيه الله بشيء ينفرهم منه وأن يترل عليه ما يقربهم منه فمن هنا كانت أنسب بوضعها في عتاب التحذير . .

وقد جاءت هذه الآية إثر بيان الله تعالى مبلغ ما وصل إليه حزنه ﷺ على عدم إيمان قومه وأنه بلغ في هذا الحزن مبلغاً جعله كالمتطلع إلى أن يأتيه الله تعالى في وحيه بما يقربهم منه ويرغبهم في الاستجابة إليه بتحقيق ما اقترحوا من آيات .

---

[٢٥٩] سورة الأنعام: آية ٣٥ .

[٢٦٠] سورة فاطر: آية ٨ .

فقدم الله تعالى إلى رسوله الكريم التعزية والتسلية على حزنه البالغ الذي لم يبق في نفس النبي ﷺ أثراً في الأمل فيهم والرجاء في إيمانهم فقال له ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ۝ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ [(٢٦١)] .

وهاتان الآيتان تضمنتا أموراً:

أولاً_ إخبار الله تعالى لنبيه ﷺ أنه علم ما يحزنه علماً أكده بحرف التحقيق الذي يفيد أن هذا العلم محقق ثابت وبدخول اللام على خبر إن المؤكدة، وإبهام ما يحزنه في الإتيان بصلة الموصول مبهمة غير مفسرة (يقولون) .

تسلية رسول الله ﷺ عما يلقاه من أذى المشركين

ثانياً_ إخباره سبحانه وتعالى رسوله بأن تكذيب هؤلاء المشركين لم يكن قط موجهاً لذاته الشريفة ﷺ بقوله ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ وفي هذا تلطف برسول الله ﷺ وتلميح إلى ما كان عليه ﷺ من الصدق والأمانة ومكارم الأخلاق ورفيع الشمائل التي يعترف بها هؤلاء المشركون رغم ما يكنونه لدعوته من عداء فهذا تنزيه لذاته ﷺ وتبرئة لساحته أن يتوجه إليها الكذب .

[(٢٦١)] سورة الأنعام: آية ٣٣، ٣٤ .

وقد روى الترمذي[٢٦٢] والحاكم والطبري[٢٦٣] عن علـــي ﷺ: " أن أبا جهل قال للنبي ﷺ: إنا لا نكذبك ولكن نكذب بما جئــت بـــــه " فأنزل الله تعالى ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴾ .

ثالثاً_ بيان أن سبب عناد هؤلاء المشركين وتعنتهم بطلب الآيات من رسول الله ﷺ إنما هو جحدهم آيات الله، وهذا كأنه موجه إلى الله سبحانه وتعالى فكأن الله تعالى قال له: إن هذا التكذيب موجـــه إليّ في آياتي و لم يوجه إليك في دعوتك وصدق رسالتك.

ثم سلك الله تعالى بنبيه ﷺ مسلكاً آخر في التلطف والتعزية ليستل من قلبه الطاهر كل أثر للحزن على عدم إيمان هؤلاء المشركين وهو مسلك التأسي بإخوانه الأنبياء والمرسلين وبيان أن ذلك العناد والتعنت من الكفرة والمشركين سبيل الأمم قبله وقبل أمته، وأن التذرع بالصبر والاحتمال سبيل حملة رسالات الله تعالى فقال له ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾ . وهو بأسلوب التأكيد المفتتح بلام القسم وحرف التحقيق ليبين له أن شأن الرسل من جميع من تقدمك منهم أن يكذبوا وشأن الأمم عامة أن تقابل رسالات الله بالكفر والجحود وإيذاء حملة رسالات الله الذين يدعوهم إلى الجنة وهم لا يريدون إلا النار إلا من عصم الله، وأن عاقبة هذا الصبر والاحتمال على التكذيب والجحود هي تترل

[٢٦٢] سنن الترمذي [٥: ٢٦١] .

[٢٦٣] تفسير الطبري [٧: ١٨٢] .

نصر الله تعالى على أنبيائه ورسله وأخذ الظالمين الجاحدين بانتقامه وبطشه الشديد .

وفي إبهام الفاعل في قولـــه ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ ﴾ والتــصريح بالمكذبين- بفتح الذال المشددة- من الرسل إعظام لرسل الله ورســالاته وتحقير لمن كذبهم وجحد آيات الله التي جاءوا بها لهدايتهم .

وقد بيّن الله سبحانه وتعالى أن هذا سنة من سننه التي لا تتبدل ولا تتغير وأن نصره آت لا يتخلف فقال ﴿ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ﴾ وكلمات الله هي الآيات التي أنزلها على رسله ووعدهم النصر فيها كقوله تعالى: ﴿ كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِيٓ ﴾(٢٦٤) . وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ۝ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ۝ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴾(٢٦٥) وقولــه ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴾(٢٦٦)، وهذا سنة من سنن الله تعالى في خلقه .

ثم أخبر الله رسولهﷺ بأسلوب التأكيد الموثق بأن هذا مما أخبره الله به فقال له ﴿ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى۟ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾.

فلما بلغت التسلية لرسول الله ﷺ مبلغها- وكان ما طبع عليه رسول الله ﷺ من الرأفة والرحمة وحب إيمان قومه وحرصه الشديد عليهم أن يجنبهم انتقام الله وبأس عذابه- وجه الله تعالى الخطاب إلى رسوله عليه

---

(٢٦٤) سورة المجادلة: آية ٢١ .

(٢٦٥) سورة الصافات: آية ١٧١- ١٧٣ .

(٢٦٦) سورة غافر: آية ٥١ .

الصلاة والسلام في نوع من الحسم ليفصم عرى هذا الحرص ويقطع رجاء رسوله في هؤلاء المتعنتين وبيانه: أنه لا أمل في إيمانهم لأن الإيمان إنما يتعلق بمشيئة الله تعالى وإرادته ولو شاء الله هدايتهم لهداهم أجمعين- فقال ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِي ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴾ أي أنك قد استنفدت كل طرائق موجبات دلائل الإيمان وآتيتهم من الآيات ما فيه الغنية عن طلب المزيد وتحقق لهم أنك صادق فيما جئتهم به من عند ربك ومع ذلك لم يؤمنوا مكابرة واعناتاً واستهزاء و لم يبق إلا أن تأتيهم بالمستحيلات وما ليس في استطاعتك الاتيان به فقد شق عليك إعراضهم وعظم عليك صدودهم عن الإيمان وبلغ بك الحرص على إيمانهم إلى أن لو استطعت أن تدخل سرباً في الأرض أو ترقى سلماً في السماء فتأتيهم بما اقترحوا من الآيات توصلاً إلى إيمانهم وتطلعاً إلى نجاتهم من عذاب الله بدخولهم حظيرة الإيمان لفعلت ذلك .

ولكنهم بما طبعوا عليه من سوء الاستعداد لقبول الإيمان لن يؤمنوا ولو فعلت معهم ما تستطيع وما لا تستطيع، فتخفف من الحزن عليهم إذ لو شاء الله هدايتهم واستقامتهم على الدين لوفقهم لذلك بلطفه ورحمته ولكنه لم يشأ لهم ذلك بعدله وسابق علمه بحالهم فلا تذهب نفسك عليهم حسرات، ولا تكن في رجائك إيمانهم- بعد ما تضافرت لك البراهين على عتوهم وإصرارهم على الكفر-ممن يغفل عن واقعهم ويطمع في إيمانهم لأن هذا شأن الجاهلين الذين ينساقون مع عواطف الرحمة والشفقة فيطمعون في غير مطمع، وهذا ليس من شأنك ولا مما يتعلق برسالتك .

ثم عقب هذه الآية ﴿ وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ ... ﴾ الآية بما هو كالبيان لها فقال ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ أي أنك في حرصك الشديد على إيمانهم لا تستطيع منعهم عن هذا الإعراض الذي أحزنك ولا أن تحصل على آية تجذبهم إلى الإيمان بدعوتك لأن الاستجابة لا تكون إلا ممن يسمعون ما يلقى عليهم سماع تدبر وانتفاع، وهؤلاء المعرضون عن الإيمان بما جئتهم به وإن كانوا في ظاهر الحال في صور الأحياء إلا أنهم بمنزلة الموتى " فآيس من هؤلاء أن يستجيبوا لك "[٢٦٧] .

وقد سبق أن أشرنا إلى وجه العتاب في هذه الآية، وبينا أنها من عتاب التحذير بإعتبار أن فيها شيئاً من شدة الأسلوب وصرامته وإن كانت فيما عوتب عليه النبي ﷺ من شدة حرصه على إيمانهم أقرب إلى عتاب التوجيه منها إلى عتاب التحذير .

***

الرد على المستهينين بالفقراء من المؤمنين

ومما يدخل في هذا النوع من العتاب أيضاً قوله تعالى في سورة الأنعام ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾[٢٦٨] .

---

[٢٦٧] مجمع البيان: للطبرسي [٧: ٥٤] المجلد الثالث .

[٢٦٨] سورة الأنعام: آية ٥٢ .

وقد جاءت هذه الآية الكريمة في سياق بيّن الله تعالى فيه مهمة الرسل، وأنها تبشير عباد الله المؤمنين بالخير، وإنذار الكافرين بالله النقمات والعقوبات الدنيوية والأخروية، وأن الناس أمام مهمة الرسل إما مؤمن موعود بالأمن والأجر العظيم، وإما مكذبون بآيات الله ينالهم العذاب الشديد بكفرهم بالله وما جاءهم به الرسل من الله تعالى، وفسوقهم عن أوامر الله وخروجهم عن طاعته وارتكاب محارمه .

وبعد أن بيّن الله تعالى أن مقترحاتهم المتعنتة إنما كانت على سبيل العناد والصلف والاستهزاء والمكابرة، بيّن لرسوله ﷺ مهمته إزاء هذه الآيات، وأنه لا يستطيعها ولا يملكها، شأنه في ذلك شأن أخوانه الرسل من قبله، ومثل لذلك بثلاثة أمور نفاها عن رسول الله ﷺ ليخبر بها هؤلاء الجاحدين وهي:

أولاً_ أن خزائن الله تعالى التي يطلبون الثراء منها ليست عنده ولا في ملكه ولا في استطاعته .

ثانياً_ أنه نفى علم الغيب عنه فهو لا يعلم منه إلا ما أطلعه الله عليه .

ثالثاً_ أنه لا يقول لهم أنه ليس بشراً، ولا يدعي الملكية فيقدر على ما لا يقدر عليه البشر، وإنما شرفه الله بالوحي إليه وأنعم به عليه فهو متبع لما أوحى إليه ولا يخرج عنه .

ثم بيّن أنهم إن اتبعوا هدايته كانوا مبصرين للحق، وإن تولوا وأعرضوا كانوا عمياً عن الحق وهدايته، ووبخهم على عدم تفكرهم ونظرهم فيما جاءهم به من الآيات فقال ﴿أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾ .

ثم بيّن أن الإنذار بالقرآن وبما جاء به رسول الله ﷺ إنما يفيد الذين يُقرّون بالبعث ويخافون أن يحشروا إلى ربهم وهؤلاء هم المؤمنون، ولا يضرهم فقرهم ولا ضعف منزلتهم في الدنيا، لأنهم سموا بأنفسهم فآمنوا واهتدوا وانقطعوا إلى الله تعالى متبتلين في محاريب دعائه غدوة وعشية لا يريدون بذلك إلا وجهه ولا يتطلعون إلى شيء من الدنيا وزخارفها، وهذا هو قول الله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ﴾ ثم قال تعالى: ﴿ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ .

أي أن هؤلاء الصفوة لم يُحمِّلوك شيئاً من أمرهم فلا أنت ترزقهم ولا أنت تحصي عليهم أعمالهم فتجازيهم عليها وإنما أمرهم إلى الله .

فهؤلاء الصفوة لم يطلبوا من رسول الله ﷺ شيئاً يشق عليه وهم أخلص الناس في مودته وأسعدهم بعلو دعوته وهو بهم رءوف رحيم .

﴿ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ أي أن هؤلاء الصفوة لا يتحملون شيئاً من أمرك وتصرفاتك ونشر دعوتك، وتبليغ رسالتك، لأنهم متبعون لأمرك وهديك .

ثم فرع على ذلك تأكيداً لتأسي الأمة به ﷺ ووجوب إتباعها له ووقوفها عند أمره فقال ﴿ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾أي إن فعلت ذلك اقتدت بك أمتك وتابعتك عليه، وهو ظلم أنت أبعد الناس عنه، ولتكن قدوة أمتك بك أن تكون على منهجك وحالك فلا يطرد الضعفاء والمساكين من المؤمنين من أجل تقريب الكبراء المترفين من غير المؤمنين

طمعاً في إيمانهم، لأن شأن الإيمان مرتبط بالقلوب لا بالمظـاهر والثـراء والترف وزخرف الدنيا .

ما فتن به المستكبرون عن قبول الإيمان

ثم بيّن الله تعالى أن هؤلاء الكفرة المستكبرين فتنـوا في أنفـسهم بالإعراض عن النظر في آيات الله تعالى ومعجزات رسـوله ﷺ وقبـول هديه، وأن مثل هذا الإفتتان وقع لهم بافتتانهم بإيمان هؤلاء الصفوة مـن ضعفاء المؤمنين حسداً لهم وتحقيراً لشأنهم لما يرون عليهم من سمات الفقر والضعف، ونيلهم المنزلة العظمى بإيمانهم وقبول هدى الله وانقطاعهم لـه سبحانه وتعالى بالدعاء والتضرع آناء الليل والنهار لا يبتغون بذلك شـيئاً من رغائب الدنيا وزخرفها وإنما يريدون وجه الله تعالى .

وهذا كناية عن كمال الإخلاص والعبودية لله تعالى، فالمشبه به في قوله ﴿ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾ فتنة رؤوس الكفر بإعراضهم عن النظر في آيات الله وبراهينه ودلائله على توحيده واستقامة هديه، والمشبه فتنتهم بإيمان هؤلاء الصفوة الذين أثنى الله عليهم أعظم الثناء،و لم يكن لهم من الدنيا شيء، وإنما هم منقطعون إلى الله تعالى بدعائه والتضرع له والتعبد لذاته المقدسة .

ثم أظهر الله تعالى مدار فتنتهم بهم وأنهم حقروهم عن أن تكون لهـم هذه المنزلة العظمى عند رسول الله ﷺ من التقريب والاحتفاء بهم فقالوا: ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ﴾؟ أي أهؤلاء الفقراء الذين لا يملكون من الدنيا شيئاً وليس لهم ثراء مثل ثرائنا ولا هم مـستطيعون أن يترفـوا بالنعم ويتمتعوا بنعم الدنيا كما نترف ونتمتع، فالاستفهام إنكاري مشعر بالاستهزاء والتحقير .

ثم رد الله تعالى عليهم باطلهم بأسلوب استفهامي يتلاقى في الإنكار والتوبيخ مع أسلوب استفهامهم في الإنكار والتحقير . فقال تعالى: ﴿ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴾ ؟ .

ما يكون به علو المترلة عند الله ورسوله

ومعناه: أن علو المترلة عند الله تعالى والتقرب من رسول الله ﷺ وأخذ الصدارة في مجالس الإيمان ليس بكثرة عرض الدنيا ولا بمظاهر الترف والزخرف ورغائب الشهوات، وإنما هو بما وقر في القلب من قوة الإيمان واستدامة الشكر لله تعالى، وأنتم محرومون من هذا بسوء استعدادكم وإعراضكم عن هدى الله تعالى، ولكن هؤلاء الضعفاء هم صفوة الله من خلقه، وهم أهل الشكر الذين علم الله أن قلوبهم عامرة بحبه وذكره فخصهم بما خصهم به من علو المترلة عنده تعالى وعند رسوله ﷺ .

ثم زاد الله تعالى في حفاوته بهؤلاء الصفوة فأمر رسوله عليه الصلاة والسلام أن يكون بهم حفياً وأن يقربهم منه وأن يبدأهم بالتحية[٢٦٩] تلطفاً بهم أو أن يبلغهم تحية الله لهم[٢٧٠]، وهذا معنى قوله تعالى ﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَٰتِنَا فَقُلْ سَلَٰمٌ عَلَيْكُمْ ﴾ .

ثم بيّن أن هذا من غمرات رحمة الله الشاملة التي كتبها على نفسه لعباده المؤمنين، ثم فتح باب التوبة لسائر الخلق مبيناً شأنه تعالى مع التائبين

---

[٢٦٩] تفسير القرطبي [٦: ٤٣٥]، فتح القدير: للشوكاني [٢: ١٢٠]، روح المعاني [٧: ١٦٤] .

[٢٧٠] تفسير الطبري [٧: ٢٠٣]، تفسير القرطبي [٦: ٤٣٥]، فتح القدير: للشوكاني [٢: ١٢٠]، روح المعاني [٧: ٢٦٤] .

وأنه غفور رحيم لما يبدر منهم من الذنوب والآثام إذا رجعوا نادمين تائبين إليه مما اقترفوا من أسواء ارتكبوها بجهالتهم لجلال الله تعالى وعظمته فقال تعالى ﴿ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ .

موضع العتاب من هذه الآية

والعتاب في هذه الآية موضع البحث على هذا التفسير الذي نهجناه في فهم الآية إنما هو في أسلوب الآية:

أولا- بتسليط النهي على الطرد، والطرد إبعاد مشعر بالنفرة .

وثانياً- توجيه الخطاب في جواب النهي في قولـــه ﴿ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ مباشرة إلى النبي ﷺ بالكون من الظالمين إن وقع منه ذلك- وحاشاه أن يقع منه ﷺ- فيه شدة تتناسب مع صدر الآية في توجيه النهي إلى الطرد فكانت الآية بصدرها وفاصلتها مشعرة بالشدة التي تحمل العتاب .

وكأن الله تعالى يحذر نبيه ﷺ أن يقع منه ذلك لئلا يكون منهجاً لأمته من بعده بتقريب أهل الدنيا وإبعاد صفوة الله الذين انقطعوا إلى الله تعالى تضرعاً وتعبداً لا يبتغون إلا وجهه وذلك على الضد من مقاصد هدايات الله .

ومن هنا كان العتاب فيها من عتاب التحذير .

وقد ذكر المفسرون والذين يُعْنَون بأسباب نزول الآيات الكريمة روايات مذكورة في بعض الصحاح تشعر بأن قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ... ﴾ الآية إنما نزلت بسبب أن

المشركين طلبوا من النبي ﷺ إبعاد فقراء المؤمنين عن مجلسه وإخلاص مجلسه لهم لعل ذلك يكون أطوع إلى قبول هدايته والإيمان به فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله أن يقع وحدّث نفسه .

وهذا مشعر بأن النبي ﷺ هم بإبعاد هؤلاء الفقراء عن مجلسه فترلت الآية الكريمة تنهاه وتعاتبه على ما هم به .

روى الإمام مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص ﷺ قال: " كنا مع النبي ستة نفر فقال المشركون للنبي ﷺ: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وابن مسعود ورجل من هذيل وبلال ورجلان لست أسميهما . فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدّث نفسه . فأنزل الله ﷻ ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ... ﴾ .[٢٧١]

وهذا أصح ما رُوي في سبب نزولها، وعند الحاكم في مستدركه جاء هذا الحديث عن سعد أيضاً من طريق سفيان و لم يذكر فيه ما جاء في رواية مسلم من قول سعد " فوقع في نفس النبي ﷺ ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه فترلت الآية "، وإنما الذي جاء في حديث الحاكم أن سعداً قال:" نزلت هذه الآية في ستة من أصحاب النبيﷺ منهم ابن مسعود قال: كنا نستبق إلى رسول الله ﷺ وندنو منه ونسمع منه فقالت قريش: تدني هؤلاء دوننا فترلت ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ ﴾ .[٢٧٢]

---

[٢٧١] صحيح مسلم [٤: ١٨٧٨] .
[٢٧٢] مستدرك الحاكم [٣: ٣٩١] .

ولا يخلو هذا من الإشعار الذي أشعر به حديث مسلم في كلام سعد، وإن كان حديث مسلم أصرح في الإشعار من حديث الحاكم .

ولعل حديث الحاكم دخله شيء من الاختصار، أو أن حديث مسلم روي بالمعنى فدخله شيء من التفصيل .

وحديث سعد- عند مسلم- صريح في أن العتاب في الآية وقع على ما حدّث به النبيﷺ نفسه إن كان قد حدّث نفسه بما قال سـعد . والله أعلم .

بيد أن حديث النفس أمر داخلي في النفس الإنسانية محجوب عن غير صاحبه، لا يطّلع عليه أحد من الخلق سوى من حدّث نفسه بما حدّثها به إن كان قد حدّثها فعلاً .

وهذا النظر يجعلنا نطمئن تماماً إلى ترجيح القول بأن روايـة مـسلم لحديث سعد هذا قد رويت بالمعنى، فدخلها تفصيل أخرجها عن نـسقها الصحيح الذي قاله سعد، إذ ما كان لسعد ولا لغيره من الناس كائناً من كان أن يطّلع على ما دار بخلد رسول الله ﷺ آنذاك، ولا أن يتجرّأ بالقول عليه، وهو لم يخبر عن نفسه بشيء في هذا إن كان قد حدث من المشركين ما عُدَّ سبباً لنزول هذه الآية الكريمة .

وأيضاً لم يرد لرسول الله ﷺ في سياق قول سعد في هذا الحديث قول ولا تقرير حتى يمكن أن يستأنس بشيء منه لما زُعم في ما نسب لسعد من قول في هذه الرواية .

وظاهر حال رسول الله ﷺ في إخلاصه التام في الدعوة إلى عبادة الله وحده، وحبه للمؤمنين، وتفرغه الكامل للجلوس معهم، وانقطاعه لتعليمهم، وتفقيههم في الدين مما هو معلوم عنه بالاستفاضة يرد كلّ ما زُعم في هذا الشأن .

وسياق قول سعد الذي رواه الحاكم- كما مر آنفاً- هو اللائق بحال رسول الله ﷺ مع المؤمنين، لأنه ﷺ ما كان يلقي بالاً لما كان يتعنت به المشركون من أقوال وأعمال ومطالب يأملون بها إبعاد المؤمنين بها عنه .

ويؤيد قولي هذا، ويعززه ما أخرجه أبو داود في سننه بإسناده عن علي ابن أبي طالب- رضي الله عنه- أقرب الناس إلى رسول الله ﷺ حالاً، وأتمهم به معرفة وأخبرهم به تصرفاً في دعوته، وجميع شؤون حياته حيث قال علي رضي الله عنه: " خرج عِبْدَانٌ إلى رسول الله ﷺ- يعني يوم الحديبية- قبل الصلح، فكتب إليه مواليهم فقالوا: يا محمد، والله ما خرجوا إليك رغبة في دينك، وإنما خرجوا هرباً من الرق، فقال ناس: صدقوا يا رسول الله ردّهم إليهم، فغضب رسول الله ﷺ وقال: « ما أراكم تنتهون يا معشر قريش حتى يبعث الله عليكم من يضرب رقابكم على هذا » وأبى أن يردهم، وقال: « هم عتقاء الله عز وجل »[٢٧٣] .

ورواه- أيضاً- الترمذي في جامعه[٢٧٤] بإسناده من طريق رِبْعي بن حِراشٍ – أيضاً- بتفصيل أتم وأوضح عن علي بن أبي طالب- رضي الله عنه- قال:

---

[٢٧٣] سنن أبي داود رقم ٢٧٠٠ .

[٢٧٤] الجامع الصحيح: للترمذي [٥: ٦٣٤] رقم ٣٧١٥ .

" لما كان يوم الحديبية خرج إلينا ناس من المشركين فيهم سهيل بن عمرو، وأناس من رؤساء المشركين، فقالوا: يا رسول الله خرج إليك ناس من أبنائنا وإخواننا وأرقائنا، وليس لهم فقهٌ في الدين، وإنما خرجوا فراراً من أموالنا وضياعنا، فارددهم إلينا . قال: فإن لم يكن لهم فقه في الدين سنفقّههم، فقال النبي ﷺ: « يا معشر قريش لتَنْتَهُنّ أو ليَبعثَنّ الله عليكم من يضرب رقابكم بالسيف على الدين، قد امتحن الله قلبه على الإيمان ».

وهذا الحديث بسياقيه صريح في عدم رضى رسول الله ﷺ بقولهم ذلك، وردٌّ وصد، ورفض صريح لطلبهم وبيان لغضبه- ﷺ- عليهم، وعلى من آزرهم بالقول منهم، وتهديد ووعيد شديدين لهم جميعاً، مما يدل على أن ما صدر منه من تهديد ووعيد وتوعد لهم في الحديبية قد صدر منه- ﷺ- مثله قبل ذلك حين صدر منهم شبيه بطلبهم ذلك في سابق أيامهم يوم أن كان بمكة، لأن حال رسول الله ﷺ حال واحدة في جميع ما يُعترض به على دعوته إلى إخلاص العبادة لله وحده في أول أمره، وآخره لا يتغير .

وقد أمره الله ﷻ بإبلاغ ما أنزل إليه، وأنه ﷻ يعصمه من الناس، ويمنعهم من قتله واستئصاله فقال ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾ [٢٧٥] .

---

[٢٧٥] سورة المائدة: آية ٦٧ .

وأمره بجهاد الكافرين بالقرآن جهاداً كبيراً، والتشديد عليهم به حتى يؤمنوا بالله وحده. قال تعالى: ﴿ فَلَا تُطِعِ ٱلْكَـٰفِرِينَ وَجَـٰهِدْهُم بِهِۦ جِهَادًا كَبِيرًا ﴾[٢٧٦].

وقد ضمن الله له حفظه منهم، ووعده بأن يكفيه منهم . قال تعالى: ﴿ فَٱصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ۝ إِنَّا كَفَيْنَـٰكَ ٱلْمُسْتَهْزِءِينَ ﴾[٢٧٧] وقال ﴿ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴾[٢٧٨] .

وكل هذا تثبيت من الله ﷻ لرسول الله ﷺ، ووعد له بالحفظ والعصمة من أعدائه مما يدل بحق ويقين على أن حال رسول الله ﷺ من أعدائه حال واحدة لا تتغير بتغير أعدائه، ولا بتغير أنواعهم، وأصنافهم، وقوة مواقفهم منه، فالله هو الحافظ له، وناصره على أعدائه ومؤيد دينه ما بقيت السماوات والأرض مؤيداً بالطائفة المنصورة التي أخبر رسول الله ﷺ عنها بأنها ستبقى على الحق ظاهرة حتى يأتي أمر الله لا يضرهم من خالفهم .[٢٧٩]

ومما يكمل قصة الصفوة الواردة في سورة الأنعام في قوله تعالى: ﴿ وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ ﴾ الآية ما جاء في سورة

---

[٢٧٦] سورة الفرقان: آية ٥٢ .

[٢٧٧] سورة الحجر: آية ٩٤، ٩٥ .

[٢٧٨] سورة البقرة: آية ١٣٧ .

[٢٧٩] صحيح البخاري رقم٧١، صحيح مسلم رقم ١٠٣٧ .

الكهف في قوله تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾[٢٨٠] .

فالقصة واحدة تتعلق بطلب فجار الكفرة من المشركين إبعاد الصفوة الفقراء من المؤمنين عن مجلس رسول الله ﷺ، ليستأثروا به استكباراً وعلواً واحتقاراً لضعفاء المؤمنين .

الربط بين آية سورة الأنعام وآية سورة الكهف الناهيتين عن طرد الذين يدعون رهم

فآية الأنعام كانت بدءاً للقصة بالنهي عن طرد الصفوة وإبعادهم عن مجلسه ﷺ، وآية الكهف كانت ختاماً للقصة بازدياد حفاوة الله تعالى وحفاوة رسوله ﷺ بالصفوة الضعفاء من المؤمنين، أن يحبس رسول الله ﷺ نفسه معهم حتى يشبعوا رغباهم من حديثه والأخذ عن منهجه في التربية والسلوك..

اختصاص الله بعلم الغيب وانفراده بالحكم في خلقه

وقد وردت هذه الآية الكريمة في موضعها من سورة الكهف بين آيتين من آيات هذه السورة تأمر الآية السابقة لها- وهي قوله تعالى: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَـٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾[٢٨١]- رسول الله ﷺ بتلاوة ما أوحى إليه من كلمات ربه في هذا الكتاب تلاوة تبليغ وتعبد واستمساك به، واتباع له وإعلان له على الدنيا كلها دون حذر ولا مبالاة بأحد من الناس، لأن هذا الكتاب هو آخر كتاب يترله الله على بشر،فلا مبدل لكلماته ولا مغير لشيء منها ولن

---

[٢٨٠] سورة الكهف: آية ٢٨ .

[٢٨١] سورة الكهف:آية ٢٧ .

يتبع الحق أهواءهم في قولهم ﴿ ٱئْتِ بِقُرْءَانٍ غَيْرِ هَٰذَآ أَوْ بَدِّلْهُ ﴾[٢٨٢] إذ كلمات هذا الكتاب هي السبيل والملجأ لهداية البشر أجمعين .

وفي قوله تعالى: ﴿ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴾ إخبار لرسـول الله ﷺ أنه لو ترك– وحاشاه من ذلك– كلمات هذا الكتاب فلن يجد غيره مـن الكلمات هادياً ومرشداً يلجأ إليه " في البيان والإرشاد"[٢٨٣]، إذ لا بيـان لمصالح العباد كبيان الله تعالى العليم الخبير، ولا إرشاد لهم كإرشاده تعالى وهدايته وهو الرءوف الرحيم بهم .

وهذا الذي قاله في هذه الآية ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ﴾ الآية، هو مضمون ما ختمت به آخر آية من آيات قصة أهل الكهف وهي قوله تعالى: ﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴾[٢٨٤] المفيد لاختصاص الله تعالى بعلم غيب السماوات والأرض الذي يدخل فيه علم ما جرى لأهل الكهف، وترك التماري في أمرهم لأنه مما اختص الله تعالى بعلمه، وانفراده بالحكم في خلقه فلا يشركه في ذلك أحد من خلقه .

وهذا فيه إفراد لله تعالى بإحاطة علمه وإفراده بوحدة الحكم بين عباده.

وهذا هو ما تضمنه الكتاب الكريم المترل على خاتم النبيين الذي أمره الله فيه بتلاوته تبليغاً واتباعاً له وتعبداً واستمساكاً به، وعدم تركه لأنـه

---

[٢٨٢] سورة يونس: آية ١٥ .

[٢٨٣] تفسير الرازي [٢١: ١١٤] .

[٢٨٤] سورة الكهف: آية ٢٦ .

لا يوجد كتاب غيره يجمع ما جمع من الهدى والنور والخير .

ومن هنا كان آخر كتاب يترل من السماء لا مبدل لكلماته ولا مغير لمحكماته .

ولما كان أمر رسول الله ﷺ بتلاوة الكتاب الذي أوحى إليه، والاستمساك به والذي لا مبدل لكلماته مقتضياً للحفاوة بالمؤمنين به ولا سيما الذين تبتلوا في محاريب الإيمان منقطعين إلى الله تعالى يبتغون وجهه لا يريدون شيئاً من زينة الحياة الدنيا وزخارفها ومقتضياً لإبعاد الظالمين المستغرقين في الدنيا وزخارفها المحقرين لصفوة المؤمنين، وهذه الحفاوة بهؤلاء الصفوة من عباد الله المخلصين تتمثل في أن يصبر النبي ﷺ نفسه على الجلوس معهم وفي إعراضه عن الظالمين المستكبرين من المستغرقين في الدنيا وزينتها .

وقد جاء الأمر بطريق الاستئناف المشعر بأن هؤلاء الصفوة أحقاء بالقرب والتقريب فقال تعالى: ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ... ﴾ الآية، أمراً لرسول الله ﷺ أن يحبس نفسه ويقصرها على مجالستهم وتعليمهم إعلاء لمترلتهم عند الله تعالى ولمكانتهم من الإيمان بالرسالة وإخلاص العبودية لله تعالى ابتغاء وجهه لا يريدون زينة الحياة الدنيا ولا يحبون أن يكونوا من أهلها .

وقد أكّد الله تعالى ذلك بنهيه ﷺ أن تتجاوز عيناه النظر إلى أولئك الصفوة من المؤمنين طلباً لإسلام الكبراء من العظماء والأعيان والأغنياء من أئمة الكفر ورؤوس الباطل طمعاً في إيمانهم وإيمان أتباعهم ومن يسيرون في ركبهم وظلهم من عامة الناس الذين يتبعون كل ناعق لا يريدون من الحياة

إلا ملء بطونهم وتحقيق رغائبهم الدنيوية لضعف عقولهم عن إدراك الهدى في رسالة الله وعن النظر في آياته ودلائله وبراهينه التي تنهى عن المتابعة دون تعقل أو تدبر .

وهذا كناية عن تقدير فضل أولئك الصفوة من المؤمنين، وحبهم وإيثارهم في نفس رسول الله ﷺ على غيرهم من أهل الدنيا المستغرقين في زخارفها وترفها تطلعاً إلى أن يكونوا جنداً للرسالة ليتبعهم غيرهم من أتباعهم الذين يقلدونهم ويأخذون بأقوالهم، فالمراد بإرادة زينة الحياة الدنيا إرادة " أهلها وأشرافها "[٢٨٥]- كما قال ابن زيد فيما نقله عنه الطبري- ليكونوا ذرائع لإيمان غيرهم ممن يتبعهم من عامة الناس .

تيئيس رسول الله ﷺ من رجاء إيمان المستكبرين

وفي قوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ دمغ للظالمين الجاحدين لآيات الله تعالى بأن الغفلة مستولية على قلوبهم فلا يفيقون من سكرها ولا يصحون من رقدها لينظروا في آيات الله ودلائله لأن الله تعالى ختم بالغفلة على قلوبهم وعقولهم فكان أمرهم إلى التبار والضياع .

وهذا يتضمن تيئيس رسول الله ﷺ من رجاء إيمانهم، وفيه تعريض بأن هؤلاء المستكبرين لا تنفع فيهم دعوة إلى الله تعالى ولا إقامة حجة أو برهان على صدق رسالة رسول الله ﷺ عندهم، وفيه إشارة إلى أن أمر هؤلاء الصفوة من عباد الله المؤمنين في ثبات وعلو وارتفاع على عكس أمر أولئك الغافلين .

---

[٢٨٥] تفسير الطبري [١٥: ٢٣٦] .

تهديدهم بالعذاب الشديد

ثم عقب آية ﴿ وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ... ﴾ الآية، بتهديد موجع ووعيد شديد يبين أن هؤلاء الجاحدين واقفون على شفا نار جهنم بما اختاروه لأنفسهم من الكفر والجحود والاستهزاء بصفوة المؤمنين والسخرية بهم . فقال تعالى ﴿ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ﴾ .

ثم اتبع الله تعالى ذلك التهديد بالإخبار عما أعده للظالمين من سوء العذاب في أسلوب تنخلع له القلوب، وتذهب منه العقول وتجف من هوله الجلود . قال تعالى ﴿ إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴾ .

وجه العتاب في الآية

ووجه العتاب في هذه الآية الكريمة أولاً في أمر رسول الله ﷺ بحبس نفسه مع الصفوة من المؤمنين، وثانياً ما في قوله ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ من المبالغة التي تفيد في ظاهرها إلزام رسول الله ﷺ أن يغض بصره عن كل من عداهم كما يشعر به منطوق النهي ومتعلقه .

وما في قوله ﴿ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ من إفادته بظاهره أن مجاوزة نظر رسول الله ﷺ للصفوة الفقراء من المؤمنين إلى غيرهم إرادة لزينة الحياة الدنيا .

ثم عقب ذلك بما هو كالمقابل لطرد الصفوة عن مجلس رسول الله ﷺ وعدم حبس نفسه عليهم بما هو سمة الفجرة من الكفار الذين طلبوا من رسول الله ﷺ ذلك فنهاه الله عن إطاعتهم ووصفهم بغفلة قلوبهم عن ذكر الله واتباعهم للهوى والشهوات حتى كان أمرهم صائراً إلى البوار والهلاك

في قوله تعالى ﴿ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴾ .

وأما أنها من عتاب التحذير فلأن ما فيها من شدة النهي يتضمن تحذير النبي ﷺ أن يكون منه ما لم يكن خشية أن يقع ما هو أكثر منه .

وفي هذا التحذير عناية برسول الله ﷺ في توجيه رسالته وإظهار منهجه في تبليغها ولبيان أن رفعة الشأن عند الله ونيل شرف القرب من رسول الله ﷺ إنما ينالهما الناس باستجابتهم لله تعالى بإخلاص العبادة له وبإتباع رسوله ﷺ، وليس بما يتمتعون به في هذه الحياة الدنيا من مال وجاه وسلطان .

ولما كان رسول الله ﷺ أسوة لأمته في الدعوة إلى الحق كان ذلك تحذيراً للأمة وإقامة لوجهها عل المنهج الذي مضى عليه رسول الله ﷺ بتعليم الله وتوفيقه وتسديده .

***

النهي عن استبقاء الأسرى

ومن آيات هذا النوع من العتاب أيضاً قوله تعالى من سورة الأنفال ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ۝ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [٢٨٦] .

---

[٢٨٦] سورة الأنفال: آية ٦٧، ٦٨ .

وقد جاءت هاتان الآيتان في سياقهما من سورة الأنفال بعد أن أمر الله تعالى رسوله ﷺ بتحريض المؤمنين على القتال وحثهم على الاستبسال، والصبر فيه تقوية لعزائمهم على خوض المعركة والثبات في ميدانها لمواقفة المشركين والانتصار عليهم، وبشرهم أن العشرين الصابرين منهم يغلبون مائتين من أعدائهم، وأن مائة منهم يغلبون ألفاً من الذين كفروا، وذلك لأن المؤمنين يقاتلون متوكلين على الله تعالى طالبين نصره ورضاه، هدفهم إعلاء كلمته ونصرة دينه وإقامة شريعته بين جميع البشر، فهدفهم من القتال واضح، أما الكافرون فيقاتلون المؤمنين تعالياً وإفساداً في الأرض وطمساً لمعالم الحق والهدى فيها، فلذلك فإنهم لا يفقهون للقتال غاية في معرفة الحق والاهتداء إليه، ولا يعرفون له هدفاً في إصلاح الحياة وإقامتها على الإحسان والعدل، لأنهم يقاتلون لرغائبهم الشخصية واشباع شهواتهم من زينة الحياة الدنيا ومتاعها، وهذا هدف لا يقوم على دعائم ثابتة، وسرعان ما تعصف به رياح الحق، ولذا وصفهم الله تعالى ﴿ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴾ وهذا وصف لهم بالغباء والجهالة وتقديم شهوات الحياة الدنيا الفانية على الآخرة الباقية .

ولما لم يكن جميع المؤمنين في الصبر واحتمال فوادح الكفاح والنضال على غرار أولئك المتقدمين من أهل بدر- وهم الرعيل الأول الذين لم يلحق بهم أحد ممن جاء بعدهم في أجر ولا فضل- أعلمهم الله تعالى أنه خفف عنهم فجعل على الواحد منهم مقابلة اثنين من الكافرين، وأنه تعالى مع الصابرين .

ولما كان الأمر بالتحريض على القتال، وبيان قدرة المؤمنين على غلبة عدوهم في مقابلة المؤمنين لأكثر من عددهم مقتضياً ألا يبقوا على عدو جاء ساحة القتال . قال تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي ٱلْأَرْضِ ... ﴾ الآية .

أما بحث تركيب " ما كان لنبي " فقد استوفيناه عند الحديث على قوله تعالى: ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ ﴾ من سورة التوبة .

وإجمال ذلك أن هذا التركيب المؤلف من " ما " النافية الداخلة على " كان " المقرون خبرها بلام الجحود يحتمل معنيين:

الأول: التبرئة والتتريه، وعدم الوقوع .

الثاني: النهي الضمني عن أن يقع متعلق الخبر .

ومعنى الآية على الوجه الأول: أن الله يبرئ نبيه ﷺ ويتره ساحته عن أن يكون له قصد في أخذ الأسرى وإنهاء المعركة قبل الإثخان في الأرض .

ويجوز- على الوجه الثاني- أن يكون المراد نهيه ﷺ عن أن يكون له أسرى قبل الإثخان في الأرض والمبالغة في إضعاف قوة العدو، وأن كان النهي لا يستلزم وقوع المنهي عنه من المخاطب لجواز أن يكون وقوع المنهي عنه كان ممن له صلة تبعية بالمخاطب، ويؤيد هذا أن " في التنكير - أي تنكير نبي في قوله ما كان لنبي- إبهاماً في كون النفي لم يتوجه عليه معيناً "[٢٨٧] تلطفاً به ﷺ وإشارة إلى أن هذا سنة من سنن الله تعالى مع

---

[٢٨٧] البحر المحيط: لأبي حيان [٤: ٥١٨] .

أنبيائه وبياناً لأنه لم يكن ﷺ متوجه القصد إلى أن يكون له أسرى قبل الإثخان في العدو، وإكثار القتل والجراح فيه .

توجيه وجه الخطاب بالآية الكريمة

وعلى ذلك يكون الخطاب- في ظاهره- موجهاً لرسول الله ﷺ مع هذا التلطف الذي يبرئ ساحته عليه الصلاة والسلام مما يوجب العتاب، ويكون الخطاب في حقيقته موجهاً إلى الذين أسرعوا في إنهاء المعركة وأخذ الغنائم والأسرى بمجرد ظهور طلائع النصر، ولم يصبروا حتى يكثروا القتل والجراح في العدو كسراً لشوكته وتوهيناً لقوته ولا سيما أن هذه هي المعركة الأولى في الإسلام وقد نصر الله تعالى فيها نبيهﷺ وأصحابه مع قلة عددهم وضعف عدتهم في مقابل كثرة عدد العدو وقوة عدته .

وقد امتن الله تعالى عليهم بهذا النصر بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ ﴾[٢٨٨] .

تنزيه رسول الله ﷺ عن إرادة شيء من الدنيا

وقد نزه الله تعالى نبيه ﷺ عن إرادة شيء من الدنيا بنقل توجيه الخطاب من رسول الله ﷺ في هذه الآية الكريمة إلى أصحابه في قوله ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْأَخِرَةَ ﴾ وهذا يدل على أن النبي ﷺ لم يدر بخلده أن ينهي المعركة قبل الإثخان في العدو ليأخذ الأسرى ويغنم أصحابه المغانم ويؤكده ما رواه ابن إسحاق في سيرته قال: " ولما وضع القوم أيديهم يأسرون رأى رسول الله ﷺ في وجه سعد بن معاذ الكراهية لما يصنع الناس فقال له: « كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم ؟ » قال: أجل والله يا رسول الله كانت أول وقعة أوقعها الله بأهل الشرك

---

[٢٨٨] سورة آل عمران: آية ١٢٣ .

فكان الإثخان في القتل أحب إليّ من استبقاء الرجال "[٢٨٩] .

وهذا يدل على أن النبي ﷺ لم ينكر على سعد بن معاذ ما رأى في وجهه من كراهية ما يصنع القوم فاستفسره عن ذلك فقال له: « كأني بك يا سعد تكره ما يصنع القوم؟» فقال سعد: أجل يا رسول الله، وعلل سعد ذلك بأن هذه أول وقعة في الإسلام نصر الله فيها المسلمين على أعدائهم من المشركين فكان الإثخان في القتل أحب إليه من استبقاء الرجال .

موضع العتاب من الآية

وفيه دلالة على أن المعاتب عليه عدم الإثخان في القتل والإسراع إلى الغنيمة لا أخذ الفداء لأن سعداً أبان عن رأيه قبل الاستشارة في أخذ الفداء

وقد جاء في الروايات الأخرى أن العذاب لو نزل ما نجا منه غير سعد[٢٩٠] وعمر[٢٩١] رضي الله عنهما .

المعاتبون بالآية

وهذا كالصريح في أن أخذ الفداء من الأسرى لا عتاب عليه، وقد بيّن الله تعالى هذا بقوله ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فإنه تعالى لعظيم فضله وبالغ رحمته منع عذابه العظيم عن المؤمنين المجاهدين يوم بدر الذي استحقوه بما مالت إليه أنفسهم من الإسراع في جمع الغنائم والاشتغال بها وترك الإثخان في القتل وحس المشركين حين ظهروا عليهم في أول وقعة تلتقي فيها الفئة المؤمنة من صفوة أصحاب

---

[٢٨٩] البداية والنهاية: لابن كثير [٣: ٢٨٤]، سيرة النبي ﷺ: لابن هشام [٢: ٢٦٨-٢٦٩]، عيون الأثر: لابن سيد الناس [١: ٢٥٧-٢٥٨] .

[٢٩٠] تفسير الطبري [١٠: ٤٨] .

[٢٩١] نفس المرجع السابق .

رسول الله ﷺ على قلة في العدد وضعف في العدة بمحافل الشرك ورءوس الطغيان الذين يفوقونهم أضعافاً عدداً وعدة .

وهذه الآية الكريمة ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾- كما هو ظاهر منها- لا تمنع الأسر وأخذ الفداء نهائياً ولكنها تقرر أنهما لا يكونان إلا بعد الإثخان في الأرض بظهور المسلمين على أعدائهم، وهي لا تتنافى مع آية سورة محمد- كما يقول الفخرالرازي- لأنه لا زيادة في حكم آية سورة محمد ﴿ فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾[٢٩٢]- على حكم هذه الآية لأن كلتا الآيتين متوافقتان " فإن كلتيهما تدلان على أنه لابد من تقديم الإثخان ثم بعده أخذ الفداء"[٢٩٣] فلا نسخ إذن كما يزعم بعضهم .

ولكن بعض الصحابة ﷺ حين اشتغلوا بجمع الغنائم قدموا عرض الدنيا على الآخرة فخالفوا ما أراده الله تعالى لهم من عظيم الظهور وقوة الشوكة وشدة الرهبة في قلوب أعدائهم فيما لو سددوا إليهم الضربة القاصمة استئصالاً لشأفة الكفر والكافرين، وإرهاباً لقلوب أعداء الله ورسوله وإظهاراً لقوة المؤمنين وتمكنهم من القضاء على أعدائهم في أول لقاء لهم معهم .

---

(٢٩٢) سورة محمد: آية ٤ .

(٢٩٣) التفسير الكبير: للفخرالرازي [١٥: ٢٠٢] .

إشارة إلى اختلاف العلماء في بيان الإبهام بالمراد بالكتاب الذي سبق

أما الكتاب المذكور في قوله تعالى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ فقد أدى إبهامه إلى اختلاف العلماء فيه على أقوال كثيرة أوصلها الشوكاني- في فتح القدير(٢٩٤)- إلى ستة أقوال، لعل أرجحها وأقربها إلى المعقول وأولاها بالقبول هو: ألا يعذب الله أحداً إلا بعد أن يقدم إليه أمراً أو نهياً فيخالف ما قدمه الله إليه .

وهذا مروي عن علي بن أبي طالب(٢٩٥) وابن عباس(٢٩٦) رضـي الله عنهما وعن مجاهد(٢٩٧) رحمه الله تعالى .

ثم بيّن الله تعالى ما كان مسطوراً في غيبه من إحلال الغنيمة وتطييبها لعباده المؤمنين من هذه الأمة- وهذا كان من خصائص النبي ﷺ على الأنبياء كما ورد في الحديث الصحيح فيما رواه الإمامان البخاري ومسلم من قوله ﷺ « وأحلت لي الغنائم ولم تحل لأحد قبلي »(٢٩٨) فقال تعالى: تطييباً لنفوس أولئك المجاهدين ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾(٢٩٩) .

---

(٢٩٤) فتح القدير: للشوكاني [٢: ٣٢٥- ٣٢٦] .

(٢٩٥) البحر المحيط: لأبي حيان [٤: ٥١٩] .

(٢٩٦) تفسير ابن كثير [٢: ٣٢٦]، تفسير الألوسي [١٠: ٣٤]، المطالب العالية للحافظ ابن حجر [٤: ٢١١] .

(٢٩٧) الدر المنثور: للسيوطي [٣: ٢٠٤] .

(٢٩٨) صحيح مسلم [١: ٣٧١] واللفظ له، صحيح البخاري [١: ٩١-٩٢] .

(٢٩٩) سورة الأنفال: آية ٦٩ .

وهذا يدل على أن أخذ الغنائم وأكلها كان حلالاً طيباً لا شبهة فيه ولا عتاب عليه وإنما كان العتاب على الإسراع في إنهاء الوقعة قبل الإثخان في العدو وكسر شوكته وإضعاف قوته وهو نظير ما ذكرناه في قوله تعالى: ﴿ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ ﴾ في أن الإذن للمنافقين بالتخلف عن الخروج معه إلى غزوة تبوك كان صواباً بالأوجه التي ذكرناها وإنما كان العتاب على الإسراع بالإذن لهم دون التلبث الذي يكشف عن حقيقة المنافقين ليعرفهم الناس ويفضحهم الله تعالى على رءوس الأشهاد .

وتذكر بعض روايات الأحاديث وأسباب النزول أن هذه الآيات نزلت بعد مشاورة رسول الله ﷺ أصحابه في أمر أسرى بدر واختيار رسول الله ﷺ لرأي أبي بكر ومن معه القائلين بقبول الفداء من الأسرى تقوية لجيش المسلمين على الكفار بالفداء ورجاء أن يهديهم الله تعالى للإســـلام أو أن يخرج من أصلابهم بعد وقعة بدر من يؤمن بالله ويهتدي بهداه .

ومن أصح هذه الروايات ما جاء في صحيح مسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما فيما يرويه عن عمر بن الخطاب ﷺ، قال ابن عباس: " فلما أسروا الأسارى قال رسول الله ﷺ لأبي بكر وعمر: « ما ترون في هؤلاء الأسارى ؟ » فقال أبو بكر: يا نبي الله هم بنو العم والعشيرة أرى أن تأخذ منهم فدية فتكون لنا قوة على الكفار فعسى الله أن يهديهم الإسلام، فقال رسول الله ﷺ: « ما ترى يا ابن الخطاب ؟ » قلت: لا، والله يا رسول الله ماأرى الذي رأى أبو بكر ولكني أرى أن تمكنا فنضرب أعناقهم فتمكن علياً من عقيل فيضرب عنقه وتمكني من فلان (نسيباً لعمر) فأضرب عنقه فإن هؤلاء أئمة الكفر وصناديدها فهوى رسول الله

ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قلت فلما كان من الغد جئت فإذا رسول الله ﷺ وأبو بكر قاعدان يبكيان قلت: يا رسول الله أخبرني من أي شيء تبكي أنت وصاحبك فإن وجدت بكاء بكيت وإن لم أجد بكاء تباكيت لبكائكما، فقال رسول الله ﷺ: « أبكي للذي عرض على أصحابك من أخذهم الفداء، لقد عرض علي عذابهم أدنى من هذه الشجرة » شجرة قريبة من نبي الله ﷺ، وأنزل الله ﷻ ﴿ مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُۥٓ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَـٰلًا طَيِّبًا ۚ ﴾ فأحل الله الغنيمة لهم "[٣٠٠] .

وحديث مسلم هذا ظاهر في سياقه أن النبي ﷺ بدأ أصحابه بمشاورتهم في شأن الأسرى فأشار أبو بكر بأخذ الفداء منهم للأسباب التي ذكرها أيضاً، فهوى رسول الله ﷺ ما رأى أبو بكر و لم يهو ما رأى عمر .

وهو أيضاً صريح في أن النبي ﷺ بكى هو وأبو بكر من أجل ما عرض عليه من عذاب أصحابه في أخذ الفداء .

وصريح أيضاً في أن بكاء النبي ﷺ وصاحبه أبي بكر إنما كان شفقة منه لأجل ما عرض عليه من عذاب أصحابه لأخذهم الفداء .[٣٠١]

قرار الصحابة بأخذ الفداء

ومن ثم فالحديث لا يفيد أصلاً أن النبي ﷺ أشار بأخذ الفداء وإنما شاور أصحابه فأشارت الكثرة منهم بأخذ الفداء وهم الذين عوتبوا بقول الله تعالى ﴿ تُرِيدُونَ عَرَضَ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ يُرِيدُ ٱلْـَٔاخِرَةَ ۗ ﴾ فلما خرج إليهم بعد

---

[٣٠٠] صحيح مسلم [٢: ١٣٨٥] .

[٣٠١] سورة الأنفال: آية ٣٣ .

المشاورة قال لهم « أنتم عالة فلا يبقين أحد إلا بفداء أو ضربة عنق »[٣٠٢]

وهذا ما يدل عليه حديث مسلم دلالة قاطعة فالنبي ﷺ لم يكن مختاراً لأخذ الفداء وإنما كان مشاوراً لأصحابه .

وهذه المشاورة مأمور بها النبي ﷺ كما يدل على ذلك صريح حديث جبريل الذي رواه الترمذي[٣٠٣] والنسائي وابن حبان والحاكم- قال الحافظ ابن حجر وقد عزاه إلى من ذكرنا: (بإسناد صحيح)- عن علي ﷺ قال: " جاء جبريل إلى النبي ﷺ يوم بدر فقال: خيِّر أصحابك في الأسرى إن شاءوا القتل وإن شاءوا الفداء على أن يقتل منهم عاماً مقبلاً مثلهم قالوا: الفداء ويقتل منا "[٣٠٤].

وفي طبقات ابن سعد[٣٠٥] وعيون الأثر[٣٠٦] من مرسل عبيدة لهذا الحديث أن النبي ﷺ- حين أخبره جبريل بذلك-" نادى في أصحابه فجاءوا أو من جاء منهم فقال: « هذا جبريل يخيركم بين أن تقدموهم فتقتلوهم وبين أن تفادوهم ويستشهد قابل منكم بعدهم » فقالوا: بل نفاديهم فنتقوى به عليهم ويدخل قابل منا الجنة سبعون ... ففادوهم .

---

[٣٠٢] البداية والنهاية [٣: ٢٩٧] .

[٣٠٣] سنن الترمذي [٤: ١٣٥] .

[٣٠٤] الفتح [٧: ٢٢٤] وأورده ابن كثير في تفسيره [٢: ٣٢٦] .

[٣٠٥] الطبقات الكبرى: لابن سعد ج٢، القسم الأول ص١٤.

[٣٠٦] عيون الأثر: لابن سيد الناس [١: ٢٨٧] .

وكما يدل عليه ما أورده السيوطي في الدر من إخراج عبد الرزاق في المصنف وابن أبي شيبة عن أبي عبيدة ﷺ قال: " نزل جبريل ﷺ على النبي ﷺ يوم بدر فقال: إن ربك يخيرك إن شئت تقتل هؤلاء الأسارى وإن شئت أن تفادي بهم ويقتل من أصحابك مثلهم . فاستشار أصحابه فقالوا: نفاديهم فنتقوى بهم ويكرم الله بالشهادة من يشاء "(٣٠٧).

ومن هذا يظهر جلياً أن النبي ﷺ لم يختر أخذ الفداء ولا حبذه .

وأن حديث مسلم لم يتعرض قط لتخيير جبريل، وإنما ذكر أن النبي ﷺ بدأ بمشاورة أصحابه في شأن الأسرى .

وأحاديث جبريل- في التخيير في أسرى بدر- جعلت المشاورة بعد الإخبار بالتخيير، ولم يذكر فيها مشاورة النبي ﷺ لأصحابه التي ذكرها حديث مسلم وجاء فيها أنه ﷺ هوى ما قال أبو بكر ولم يهو ما قال عمر .

وكذلك ليس في أحاديث التخيير في قتل الأسرى إشارة قط إلى بكاء النبي ﷺ وصاحبه وتعليل ذلك بعرض العذاب للذين أخذوا الفداء .

وهذا الاختلاف بين حديث مسلم في مشاورة رسول الله ﷺ لأصحابه في أمر أسرى بدر وبين أحاديث جبريل في أمر رسول الله ﷺ بتخيير أصحابه في هؤلاء الأسرى يجعل المرء بين واحد من ثلاثة احتمالات: فإما أن يحتمل حديث مسلم اختصار ما جاء من التخيير في أحاديث جبريل- عند من ذكرنا- اكتفاء بالمشاورة، وإما أن النبي ﷺ لم

---

(٣٠٧) الدر المنثور: للسيوطي [٣: ٢٠٢] .

يذكر تخيير جبريل لأصحابه واكتفى بمشاورتهم تأنيساً لهم بما يشمل جانبي التخيير لأن المشاورة لا تخرج عنهما، إذ هي لا تنتهى إلا بأحدهما القتل أو الفداء .

وإما أن رسول الله ﷺ بدأهم بالمشاورة فلما اختلفوا فيمـــا يفعلـــون بالأسرى دخل رسول الله ﷺ مترله فجاءه جبريل بالأمر بالتخيير .

لا عتاب على الفداء ولا على أخذ الغنيمة

ومما قدمنا يظهر أن أخذ الفداء لا عتاب عليه لرسول الله ﷺ بدليل أحاديث تخيير جبريل في أمر الأسرى، إذ لو كان أخذ الفداء موضع مؤاخذة ما جاء جبريل بالتخيير بينه وبين القتل، لأنه لا يخيّر بين جائز مطلق وبين مؤاخذ عليه، ولما صح التفريع على الآيتين بالأمر بالأكل مما غنموه حلالاً طيباً بقوله ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ لأن الفداء ليس من الغنيمة، إذ الغنيمة هي ما يؤخذ من المحاربين بالقوة والقهر فالذي أخذوه في قوله ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ هو الغنائم التي شغلوا بجمعها عن الإثخان في القتل الذي كان الأولى والأجدر بهم أن يفعلوه .

والذي أحل الله لهم وأُمروا بالأكل منه حلالاً طيباً هو الغنيمة بـــدليل قوله تعالى ﴿ فَكُلُواْ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فلا ذكر للفداء في المؤاخذة في الآية الكريمة حتى يجعل محلاً للعتاب، ويؤيد هذا ما رواه البخاري من أن النبي ﷺ قال في أسارى بدر: « لو كان المطعم بن عدي[٣٠٨] حياً وكلمني

---

(٣٠٨) المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف هو الذي دخل رســـول الله ﷺ مكة في جواره مرجعه من الطائف وبات رسول الله ﷺ في بيته ليلة دخوله مكة

في هؤلاء النتنى لتركتهم له » [٣٠٩].

وهذا يدل على أن لا عتاب على أخذ الفداء لعزم رسول الله ﷺ على ترك الأسرى وإطلاقهم بدون فداء فيمالو كان المطعم بن عدي حياً وكلم رسول الله ﷺ فيهم .

ويؤيده أيضاً أنه سبق أن فادى رسول الله ﷺ ابن كيسان مولى هشام ابن المغيرة وعثمان بن عبد الله بن المغيرة اللذين أسرهما سرية عبد الله بن جحش الأسدي ﷺ حين أرسله رسول الله ﷺ- ومعه ثمانية من المهاجرين- إلى وادي نخلة بين مكة والطائف لرصد عير لقريش- وذلك قبل غزوة بدر الكبرى بأكثر من شهرين- فالتقوا بهم (في آخر يوم من رجب،)[٣١٠] من السنة الثانية من الهجرة فغنموا العير واقتادوا معهم الأسيرين إلى المدينة فوقف رسول الله ﷺ العير والأسيرين وقال أهل الكفر: استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام، وأكثروا في ذلك فرد الله عليهم قولهم فأنزل ﴿ يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن

= وفي الصباح خرج رسول الله ﷺ ومعه المطعم بن عدي وبنوه السبعة فطاف رسول الله ﷺ بالبيت وهم محتبون بحمائل سيوفهم في المطاف لحمايته فلما انصرف رسول الله ﷺ انصرفوا معه، وأُعلن ذلك في قريش . وقد توفي المطعم بن عدي بعد هجرة رسول الله ﷺ بيسير وهو على دين قومه . وخبر ذلك في البداية والنهاية [٣: ١٣٧- ١٣٨] .

[٣٠٩] صحيح البخاري [٥: ١١٠] .

[٣١٠] تفسير ابن كثير [١: ٢٥٤]، عيون الأثر [١: ٢٢٨]، البداية والنهاية [٣: ٢٤٩] .

سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَٰعُوا۟ ۚ وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴾[٣١١] فقبض رسول الله ﷺ العير والأسيرين وأخذ الغنيمة وهي (أول غنيمة غنمها أصحاب رسول الله ﷺ في الإسلام)[٣١٢] و لم يعاتب الله تعالى أحداً على شيء من ذلك .

وممن قال إن أخذ الفداء من أسرى بدر لا عتاب عليه- لسبق أخذه في سرية عبد الله بن جحش و لم يعاتبوا عليه- القاضي عياض ونقلـــه- في الشفاء[٣١٣]- عن القاضي بكر بن العلاء[٣١٤] .

وعلى ذلك فلا عتاب لسيدنا رسول الله ﷺ في فداء الأســـرى يـــوم بدر لعدم العتاب على أخذه وأخذ الغنيمة فيما سبق هذه الغـــزوة أولاً، ولأن اختيار أخذ الفداء يوم بدر من الصحابة ﷺ كما في أحاديث تخـــيير جبريل .

---

[٣١١] سورة البقرة: آية ٢١٧ .

[٣١٢] تفسير الطبري [٢: ٣٤٩]، تفسير ابن كثير [١: ٢٥٤]، البداية والنهاية [٣: ٢٤٩- ٢٥٠] .

[٣١٣] الشفاء [٢: ١٤١] .

[٣١٤] هو بكر بن العلاء (-٣٤٣هـــ) القشيري فقيه مالكي .

توجيه العتاب إلى من تعجلوا أخذ الغنيمة ولم يثخنوا في العدو

وما في هذه الآيات- موضع البحث- من عتاب موجه لمن تعجلوا أخذ الغنيمة واشتغلوا بجمعها وليس على مجرد أخذها، وإنما لكون الاشتغال بجمعها كان سبباً في ترك الإثخان في العدو الذي قد يعطيه اشتغال المجاهدين من المسلمين بجمع عرض الدنيا فرصة التجمع و لم الشمل واستعادة الهجوم على المسلمين مرة ثانية فيضيع النصر من أيديهم ويبغتوا بما لم يحسبوا له حساباً .

والذي دعانا لضم هذه الآية إلى آيات العتاب- مع أنه لا عتاب فيها لسيدنا رسول الله ﷺ كما أوضحناه فيما سبق ما درج عليه المفسرون وغيرهم من ذكرها مثالاً للعتاب لرسول الله ﷺ وما ورد من روايات وأسباب للنزول يؤيدون بها ما يقولون وقد بينا- فيما سبق- وجهة نظرنا في أقوى وأصح ما استدلوا به .

وجه القول بأن في الآية عتاباً

على أن بعض الأئمة- من الذين يرون أن في الآية عتاباً أخذا بظاهر رواية مسلم- رجحوا مسلك النبي ﷺ، واستدلوا له بأدلة قوية، ومن هؤلاء العلامة ابن قيم الجوزية- في كتابه زاد المعاد- إذ يقول: " وقد تكلم الناس في أي الرأيين أصوب، فرجحت طائفة قول عمر لهذا الحديث، ورجحت طائفة قول أبي بكر لاستقرار الأمر عليه، وموافقته الكتاب الذي سبق من الله بإحلال ذلك لهم ولموافقته الرحمة التي غلبت الغضب ولتشبيه النبي ﷺ له في ذلك بإبراهيم وعيسى وتشبيهه لعمر بنوح وموسى، ولحصول الخير العظيم الذي حصل بإسلام أكثر أولئك الأسرى، ولخروج من خرج من أصلابهم من المسلمين، ولحصول القوة التي حصلت للمسلمين بالفداء ولموافقة رسول الله ﷺ لأبي بكر أولاً ولموافقة الله له

آخراً حيث استقر الأمر على رأيه، ولكمال نظر الصديق فإنه رأى ما يستقر عليه حكم الله آخراً وغلبة جانب الرحمة على جانب العقوبة قالوا: وأما بكاء النبي ﷺ فإنما كان رحمة لنزول العذاب لمن أراد بذلك عرض الدنيا، و لم يرد ذلك رسول الله ﷺ ولا أبو بكر "[٣١٥] .

وقال الحافظ ابن حجر- في الفتح-: " وقد اختلف السلف في أي الرأيين كان أصوب ؟ فقال بعضهم: كان رأي أبي بكر لأنه وافق ما قدر الله في نفس الأمر، ولما استقر الأمر عليه، ولدخول كثير منهم في الإسلام إما بنفسه، وإما بذريته التي ولدت له بعد الوقعة، ولأنه وافق غلبة الرحمة على الغضب كما ثبت ذلك عن الله في حق من كتب له الرحمة "[٣١٦] .

وهؤلاء المختلفون إنما نظروا لحديث مسلم و لم ينظروا لحديث تخيير جبريل وهو ليس دون حديث مسلم في الصحة كما سبق أن ذكرنا حكم الحافظ ابن حجر عليه بالصحة عند الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم

وحديث تخيير جبريل ينفي نفياً قاطعاً ما جاء في حديث مسلم من البدء بمشاورة الصحابة قبل إخبارهم بالتخيير، وأن النبي ﷺ هوى ما قال أبو بكر و لم يهو ما قال عمر .

وهذا إنما يعني ميل النبي ﷺ إلى رأي أبي بكر لغلبة الرحمة عليه ﷺ و يمنع قتل الأسرى لو أراده الصحابة، بل في بعض الروايات مايدل على أكثر من ذلك في حق ما كان يسمح به النبي ﷺ في الأسارى من المن عليهم

---

[٣١٥] زاد المعاد: لابن قيم الجوزية [٢: ٦٦-٦٧] .

[٣١٦] فتح الباري: لابن حجر [٧: ٣٢٥] .

وعدم قتل أحد منهم كما في حديث البخاري الذي قدمناه في قصة المطعم ابن عدي الذي يدل على أن النبي ﷺ ما كان في نفسه عزيمة أخذ الفداء .

***

إبطال عادة التبني على يدي رسول الله ﷺ

ومن آيات هذا النوع من العتاب أيضاً قوله تعالى من سورة الأحزاب ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾[٣١٧] .

وهذه الآية في قصتها من أظهر آيات العتاب وأشـــدها وروداً فيمـــا يتعلق بشخص سيدنا رسول الله ﷺ .

وقد وردت هذه الآية الكريمة بعد أن ذكر الله تعالى- في قوله عز شأنه-﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾[٣١٨]- أنه ليس لأحد من المؤمنين والمؤمنات خيرة وراء خيرة الله ورسولـــه ﷺ- لـــه، وما على المؤمن والمؤمنة إلا الرضا والتسليم لحكم الله تعالى فيه وحكم رسوله ﷺ، وهذا كما قال تعالى في سورة النساء ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ

[٣١٧] سورة الأحزاب: آية ٣٧ .

[٣١٨] سورة الأحزاب: آية ٣٦ .

وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾[٣١٩] وقوله تعالى في سورة النور ﴿ فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٣٢٠] لأن ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾[٣٢١] إذ أنه بعث هادياً وأسوة لهم ومن كان أحق بأنفسهم منهم فله- بلا شك- كامل التصرف والحكم فيهم بما قضى الله تعالى، وما عليهم إلا الانقياد له والامتثال لأمره لما فيه من ضمان السعادة لهم لأن أمره من أمر الله تعالى، وقضاءه من قضائه، ولذلك جعل قضاء الله ورسوله-في هذه الآية الكريمة- أمراً واحداً فمن لم يرض بذلك فقد عصى الله ورسوله وخرج عن سبيل الهدى والرشاد .

فكأن قوله ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ..... ﴾ الآية توطئة وتمهيد لما ستقرره الآيات التالية لها من حكم شرعي يجب على المؤمنين الانصياع له وامتثاله والعمل به وتقبله بنفس راضية وقلب مطمئن وتسليم كامل .

روى الطبري في تفسيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: " خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة فاستنكفت منه وقالت: أنا خير منه حسباً، وكانت امرأة فيها حدة فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ﴾ الآية كلها[٣٢٢]

---

[٣١٩] سورة النساء: آية ٦٥ .

[٣٢٠] سورة النور: آية ٦٣ .

[٣٢١] سورة الأحزاب: آية ٦ .

[٣٢٢] جامع البيان: للطبري [٢٢: ١١-١٢] .

وروى نحوه عن مجاهد ونحوه عن قتادة .[٣٢٣]

وقال السيوطي في لباب النقول: " أخرج الطبراني- بسند صحيح- عن قتادة قال: خطب النبي ﷺ زينب- وهو يريدها لزيد- فظنت أنه يريدها لنفسه فلما علمت أنه يريدها لزيد أبت فأنزل الله ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ ... ﴾ الآية فرضيت وسلمت "[٣٢٤] .

ومن ثم زوّج رسول الله ﷺ زينب بنت جحش الأسدية القرشية - بنت عمته أميمة بنت عبد المطلب- هاشمية الرحم قرشية العصبية بزيد ابن حارثة مولاه، وهي في شرفها النسبي لم تر في هذا الزواج كفاءة نسبية ولكنها سلمت ورضيت بزيد بعلاً خضوعاً لأمر رسول الله ﷺ اتباعاً لقوله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ..... ﴾ الآية، و لم يكن هذا الخضوع بمزيل من نفسها تعاليها بنسبها على زيد بن حارثة، وذلك التعالي بالحسب كان أكبر سبب في جعل حياة البيت بين الزوجين- زيد وزينب- حياة منغصة فقد فيها الود والسكون والتراحم وهي من الحكمة الكبرى في الزواج . فصبر زيد ﷺ قدر ما واتته الطبيعة البشرية، لكن ذلك استمر و لم تنفع فيه وداعة زيد ومسالمته وتلطفه بزوجه فرأى أن لا سبيل إلي الاستمرار في هذه الحياة الزوجية القلقة المنغصة التي تتعالى فيها الزوجة عليه بحسبها ونسبها فتثير بينه وبينها نار المساءة والتنافر والعداء .

---

[٣٢٣] نفس المرجع (ص١١) .

[٣٢٤] لباب النقول: للسيوطي (ص١٧٨) .

فشكا زيد إلى رسول الله ﷺ ما يلقى من زوجته وما يسود حياتهما من تباعد وتنافر فلقى رسول الله ﷺ شكوى زيد بما جبل عليه ﷺ من الرحمة وأدب المعاشرة " واختباراً لما عند زيد مما لم يعلمه الله به من رغبته فيها أو رغبته عنها "[٣٢٥] فقال له: « امسك عليك زوجك واتق الله » .

ورجع زيد إلى بيته ووجد من زوجته أشد مما كان يجد، ففي خبر طويل ذكره البيهقي في سننه في قصة زواجها بزيد بن حارثة وفراقه إياها قالت زينب رضي الله عنها: " .. فأخذته بلساني فشكاني إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: « امسك عليك زوجك واتق الله » ثم أخذته بلساني فشكاني إلى النبي ﷺ .. "[٣٢٦] .

فلما أن ضاق زيد ذرعاً بحياته معها لتعاليها عليه وتناولها إياه بلسانها و لم يمكنه رأب الصدع بينهما صمم على طلاقها وذهب إلى رسول الله ﷺ يشكوها وهو عازم على طلاقها وكأنما أحس زيد في هذهْ المرة حياء من النبي ﷺ منعه من الإجابة على شكواه منها فقال زيد- فيما ترويه زينب رضي الله عنها كما في سنن البيهقي-: " أنا أطلقها، قالت فطلقني فبت طلاقي "[٣٢٧] .

تزويج الله ﷻ زينب بنت جحش رسول الله ﷺ

فلما انقضت عدتها نزل قول الله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ فقام رسول الله ﷺ ودخل عليها وهي

---

[٣٢٥] أحكام القرآن: لابن العربي [٣: ١٥٣٢] .

[٣٢٦] السنن الكبرى: للبيهقي [٧: ١٣٨] .

[٣٢٧] السنن الكبرى: للبيهقي [٧: ١٣٨] .

مكشوفة الشعر فقالت: " هذا أمر من السماء .. يا رسول الله بلا خطبة ولا شهادة ؟ قال: « الله المزوّج وجبريل الشاهد » كما في رواية البيهقي عن مذكور مولى زينب أم المؤمنين رضي الله عنها .

وفي صحيح مسلم- في قصة زواج النبيﷺ بها- أنه حين نزل القرآن بتزويجه إياها " جاء رسول الله ﷺ فدخل عليها بغير إذن "[٣٢٨] .

وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِىٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَٱتَّقِ ٱللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ۖ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَـٰكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

وقد افتتحت الآية بتذكير النبي ﷺ بإنعام الله تعالى على مولاه زيد بن حارثة بنعمة الإسلام وإنعامه ﷺ عليه بنعمة الحرية والتربية والمحبة التي خصه بها دون سائر أقربائه وأصحابه زيادة من الله تعالى في الإنعام عليه وتفضيلاً له حيث لم يذكره باسمه، وإنما ذكره بوصف الإنعام عليه من الله تعالى ومن رسول الله ﷺ .

ويحتمل أنه ذكر بوصف الإنعام عليه و لم يذكر باسمه- في مفتتح الآية تمهيداً لبيان إنعام الله بالإيمان وإنعام رسول الله ﷺ عليه بالحرية والتربية اللذين كان لهما أثر عند عرض زيد طلاق زينب التي ضاق ذرعاً بالعيش معها لشدة لسانها عليه- " لرفع استحياء النبي ﷺ منه في موافقته على طلاقها "[٣٢٩] .

---

[٣٢٨] صحيح مسلم [٢: ١٠٤٩] .
[٣٢٩] تفسير أبي السعود [٤: ٢١٢] .

وتذكير الله تعالى رسوله ﷺ بقوله لهذا المنعم عليه " امسك عليه زوجك واتق الله " لبيان إعظام حياء رسول الله ﷺ حتى أنه استحيا ممن لا يستحيا من مثله في علاقته به ومكانته منه .

وفي قوله " امسك عليك زوجك واتق الله " احتمالان:

الأول: أن رسول الله ﷺ قال ذلك وقد " أعلمه الله أنها ستكون من أزواجه قبل أن يتزوجها"[٣٣٠] بعد طلاق زيد لها وانقضاء عدتها منه.

فلما عرض عليه زيد طلاقها- وعنده العلم بأنها ستكون زوجة له- أراد ﷺ أن يتعرف ما عند زيد من بقاء رغبة فيها وميل إليها، وأن ما وقع إنما هو فورة غضب قد تذهب فيما بعد، أو أن إرادة طلاقها كانت عزيمة صارمة تشعر بعدم بقاء أي رغبة فيها وميل إليها .

الثاني: إنما قال رسول الله ﷺ ذلك- وزيد يعرض عليه طلاق زوجه زينب لتعاليها عليه بنسبها وحسبها وشدة لسانها- من باب الرأفة والرحمة اللتين جبل عليهما رسول الله ﷺ والنصح لهما وتقديم الأمر بالمعروف إذ لم يحدد الله تعالى له وقت طلاق زيد لها وزواجه بها فما تزال الفرصة قائمة في اجتهاده ﷺ .

فكان هذا القول " امسك عليك زوجك " من قبيل الاجتهاد في عدم التوقيت .

---

[٣٣٠] تفسير ابن كثير [٣: ٤٩١]، فتح الباري [٨: ٥٢٣، ٥٢٤]، تفسير القرطبي [١٤: ١٩٠، ١٩١] .

والاحتمال الأول أرجح- عندنا- لأن تعرف ما في نفس زيد يكشف عن حقيقة ما في عزيمته، فإن كان له فيها بقية رغبة وميل إليها وأن الذي حدث فورة غضب قد تذهب بالتراضي وإحسان العشرة فعندئذ يكون - لو وافقه النبي ﷺ على طلاقها- كالمكره على طلاقها، ومن ثم كان هذا التعرف ضرورياً ليكون زيداً مختاراً في الطلاق راغباً فيه فلا تتبعها نفسه بعد ذلك، وقد يؤكد هذا إبراز زينب في هذه الجملة " امسك عليك زوجك " بعنوان الزوجية المقتضي للمودة والرحمة والسكون والرغبة .

أما قوله " واتق الله " فإنما جاء لأمر زيد بعدم التجاوز في تناولها عند رسول الله ﷺ بنحو قوله فيها " أن زينب اشتد عليّ لسانها وأنا أريد أن أطلقها "[٣٣١] فيما رواه قتادة .

ثم قال تعالى ﴿ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ وهي جملة حالية من فاعل" تقول" في ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِيٓ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ ... ﴾ .

والذي أبداه الله تعالى إنما هو زواجه بها بعد انقضاء عدتها من زيد، وهذا لا يكون موضع عتاب إلا إذا كان قد سبقه إعلام به حتى يصلح التقييد به وقت قوله لزيد " امسك عليك زوجك " فالذي أخفاه رسول الله ﷺ في الحقيقة هو إعلامه أنها ستكون زوجة له بدليل إظهار هذه الزوجية عملاً واقعاً بعد طلاق زيد لها وانقضاء عدتها منه .

وهذا القدر- أي إخفاء الإعلام بتزويجها منه ﷺ وهي ما زالت تحت زيد- كاف في توجيه العتاب لرسول الله ﷺ، لكن رسول الله ﷺ لم يخف

---

[٣٣١] فتح الباري [٨: ٥٢٤] .

هذا الإعلام المتعلق بكونها زوجة له مخالفة لأمر من الله تعالى وإلا لكان ذنباً تجب منه التوبة وليس في الآية الكريمة ما يشعر بشيء من ذلك .

ما أخفاه النبي ﷺ في نفسه

وإنما الذي تعطيه التلاوة الكريمة أن النبي ﷺ أخفى إعلام الله له بتزويجها منه بعد طلاق زيد لها اجتهاداً منه ﷺ في توقيت الإعلام إذ لم نر أحداً من المفسرين والمحدثين قال بتقييد هذا الإعلام بوقت معين، فاجتهد النبي ﷺ في تأجيله وتلبثه به متأنياً انتظاراً لإنجاز الله له الوعد بتزويجه إياها، وحتى يعلم حقيقة ما عند زيد بالنسبة لها من ميل إليها ورغبة فيها أو عزيمة باتة في إرادة طلاقها .

وعلى هذا القدر في الخطأ في الاجتهاد عاتب الله تعالى رسوله ﷺ عتاباً تحذيرياً .

وبهذا القول- الذي تعطيه التلاوة من أن الذي أخفاه النبي ﷺ هو إعلام الله له أنها ستكون زوجة له بعد طلاقها من زيد- قال جمهور السلف ومنهم علي بن الحسين- زين العابدين- والزهري والسدي والمحققون من أهل التفسير والعلماء الراسخون والقاضي بكر بن العلاء[٣٣٢] وابن العربي[٣٣٣] والقرطبي[٣٣٤] والقاضي عياض في الشفاء والقسطلاني في المواهب والزرقاني في شرحها وغيرهم ممن يعنون بفهم الآيات القرآنية وفقهها وتنزيه الرسل عما لا يليق بهم من الروايات البعيدة عن منطق الحق والواقع .

---

[٣٣٢] تفسير القرطبي [١٤: ١٩٠، ١٩١]، قول السدي في الفتح [٨: ٥٢٣] .

[٣٣٣] أحكام القرآن: لابن العربي [٣: ١٥٢٩] .

[٣٣٤] تفسير القرطبي [١٤: ١٩٠] .

احتمالات ما يدل عليه الخطاب بهذه الآية الكريمة

ثم قال تعالى: ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ وهي جملة حالية جاءت لتؤكد ما تضمنته جملة الحال الأولى ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ لأن الإخفاء المعاتب عليه كأنه خشية من الناس لا تصلح أن تكون من رسول الله ﷺ في مقامه العظيم، فجاءت الجملة الثانية ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ ﴾ لتؤكد هذا المعنى، وتبعث رسول الله ﷺ على المسارعة إلى الأخذ بما كان قد أعلم به أولاً حين أنجز له بقوله ﴿ زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ .

وفيها احتمال ثان وهو أن يكون عطف جملة ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾ على جملة ﴿ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ من باب عطف السبب على المسبب، فإن إخفاء الإعلام بتزويجها له، وعدم الإسراع إلى إعلان ما أعلمه الله به وقوله لمولاه زيد " امسك عليك زوجك " إنما كان سببه خشية قالة الناس من المنافقين ومرضى القلوب وأعداء الإسلام من اليهود والمشركين، لما في قولهم من التشهير به من صد للناس الراغبين في دخول الإسلام وزعزعة لقلوب حدثاء الإيمان من أهل الإسلام .

وفيها احتمال ثالث بجعلها مستقلة بمعناها، والعطف فيها من عطف جملة على جملة كل منهما تفيد معنى مستقلاً وهو حمل معنى لفظ الناس في قوله تعالى ﴿ وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ ﴾- كما قال بعض المفسرين[٣٣٥]- على المؤمنين خشية أن يفتتنوا بما يقع من زواج رسول الله ﷺ بمطلقة دعيه لأن عدم زواج مطلقة الدعي كان عادة متأصلة في النفوس عميقة الجذور، وكان في المؤمنين حدثاء الإسلام من لم يرسخ الإيمان في قلوبهم فكانت خشية رسول

---

[٣٣٥] أحكام القرآن: لابن العربي [٣: ١٥٣٠] .

الله ﷺ على المؤمنين رحمة بهم أن يلقي الشيطان في أنفسهم شيئاً يأثمون به ويهلكون .

وإنما أوثر تعدية فعل الخشية إلى مفعوله بنفسه على هذا الوجه- دون تعديته بلفظ على المناسب للظاهر من الكلام- تضميناً للفظ الخشية معنى الحذر بمعنى تحذر فتنة الناس- أي المؤمنين- فترحمهم أن يقعوا في الفتنة .

ونظير هذا- في الخشية على المؤمنين أن يفتنوا- ما ورد في الحديث الصحيح مما رواه البخاري من أن صفية بنت حيي أم المؤمنين زوج النبي ﷺ أتت تزور رسول الله ﷺ في معتكفه فتحدثت إليه ساعة ثم أرادت الإنصراف فقام معها حتى إذا بلغت باب المسجد عند باب أم سلمة " مر رجلان من الأنصار فسلما على رسول الله ﷺ فقال لهما النبي ﷺ: « على رسلكما[٣٣٦] إنما هي صفية بنت حيي » فقالا: سبحان الله يا رسول الله . وكبر عليهما، فقال النبي ﷺ: « إن الشيطان يبلغ من ابن آدم مبلغ الدم، وإني خشيت أن يقذف في قلوبكما شيئاً » "[٣٣٧] .

قال الإمام الشافعي- رحمه الله تعالى-: " إنما قال لهما ذلك لأنه خاف عليهما الكفر إن ظنا به التهمة فبادر إلى إعلامهما نصيحة لهما قبل أن يقذف الشيطان في نفوسهما شيئاً يهلكان به "[٣٣٨] .

فهذه الخشية كانت من قبيل الرحمة والإحسان إلى المؤمنين ليحفظ ﷺ عليهم إيمانهم كما تضمنه كلام الإمام الشافعي .

---

[٣٣٦] أي تمهلا ولا تسرعا .

[٣٣٧] الفتح [٤: ٢٧٨]، صحيح البخاري [٣: ٦٤] .

[٣٣٨] الفتح [٤: ٢٨٠] .

ولعل هذا الوجه من أحسن ما تنزل عليه الآية الكريمة لأنه اللائق بما جبل عليه رسول الله ﷺ من الرأفة والرحمة، وبما كان في المسلمين من حدثاء الإسلام الذين لم تتعمق جذور الإيمان في قلوبهم بعد، فخشي رسول الله ﷺ عليهم ذلك .

ما كان يخشاه من الناس

وحمل خشيته ﷺ من الناس على الخوف من كلام المشركين والمنافقين واليهود، وما يرمونه به ﷺ من أقوال سيئة تسيء إليه ﷺ يرده ما تعالم وعرف في تاريخ تبليغه الرسالة على مدى مدة الإقامة في مكة- وكان ثلاثة عشر عاماً- وما مضى من مدة قدومه ﷺ المدينة إلى حين وقوع قصة زيد وزينب- وهي قد وقعت في السنة الثالثة أو الرابعة من الهجرة- من مناهضة الكفر والشرك والوثنية وطغيان ملأ قريش وعتوهم وفجور سفهائهم من مواقف حفظها تاريخ السيرة النبوية المطهرة من صبر على البلاء ومجابهة للأعداء في أحداث ووقائع كثيرة تدل- قطعاً- على أن النبي ﷺ ما كان في حياته المباركة يخشى أحداً غير الله تعالى، ولا يقيم وزناً لأقوال الناس فيه وأفعالهم معه حتى رفع لواء العقيدة خفاقاً في آفاق الأدلة والبراهين التي جعلت من العقيدة التوحيدية بنياناً راسخاً وطيد الدعائم لا يستطيع- والحمدلله- أحد من الناس أن يخدشه بسوء .

و لم يهاجر رسول الله ﷺ من مكة إلى المدينة حتى كان بنيان العقيدة التوحيدية شامخاً يراه كل من ينظر إليه من قريب أو بعيد .

وفي مهاجره ﷺ لقي من أعداء الإسلام اليهود والمنافقين وبقايا المشركين ما لا يقل في عنفوانه وعتوه عن فجور مشركي مكة فلم يحفل به ولا خشي أحداً من الناس بل نصب لأعدائه الحرب حتى قضى عليهم

جميعاً، وانفرد الإسلام عزيزاً منصوراً يمشي في تبليغ رسـالته إلى أطـراف الجزيرة العربية وإلى خارجها .

ولو لم يكن من صور صبره ﷺ على سفاهة السفهاء وقالة السوء من أعدى أعداء الإسلام المنافقين واليهود إلا صبره في قصة الإفك، ومقابلـة ذلك بأرسخ اليقين، والثقة في الله تعالى، وعدم المبالاة بتقـول المتقـولين وافتراء المفترين لكفاه ﷺ ذلك في مواقف مفاخره بالاعتصام بالله وإفراده وحده بالخشية منه دون خشية أحد من خلقه .

ثم قال تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِىٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾

وهذا تفريع على جملتي الحال السابقتين في قوله ﴿وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا ٱللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ وقوله ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ﴾ على ما ذكرنا من الوجوه في معنييهما والمراد منهما . وهما في ارتباطهما كأنهما جملة واحدة تضمنتا أن النبي ﷺ أخفى في نفسه إعلام الله له أنّ زينب بنت جحش ستكون زوجاً له بعـد طلاق زيد لها وانقضاء عدتها منه .

ومعنى قضاء الوطر منها: هو عدم الرغبة فيها وعدم الميل إليها وبذلك حلت لك فزوجناكها .

والوطر في الآية الكريمة ما يكون بين الزوجين وهو متضمن معه انتهاء الحب والمودة والرحمة والسكون والميل إليها وتعلق نفسه بشيء منها .

وحيث انتهى ذلك كله لم يبق إلا تنفيذ ما أعلمناك به من زواجـك بها .

وهنا أبرز زيد- ﷺ- باسمه ولم يبرز بوصف الإنعام عليه من الله تعالى ورسوله ﷺ-كما جاء في صدر الآية- لأنه حينئذ- أي بعد انقضاء الوطر منها- لم يبق للوصف ما يدعو إلى وجوده لما في التزوج بها من تأكيد رفع وإبطال البنوة المدعاة .

التشريع المقصود بهذه الآية الكريمة

ثم قال تعالى ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ وهذا لباب القصة وقلبها، وتشريعها المقصود الأهم منها، وكل الذي سبق كان تمهيداً لها فكأنما قيل: زواج زيد بزينب وقضاء وطره منها، ووقوع النفرة بينهما وذهاب الرغبة منها والميل إليها من قلبه وتزويج الرسول ﷺ بها إنما كان تمهيداً لهذا التشريع الذي يمتد مع الأمة في خلودها والرسالة في عمومها وتفنى الأشخاص ويبقى هذا التشريع قائماً ينادي على عظمة الإسلام في مساواته بين الناس أجمعين، وقطع جذور أباطيل الجاهلية فيما ابتدعوه من عادات وقبائح سيئة لا تعبر عن حقيقة واقعة أبطلها الله تعالى في صدر هذه السورة بقوله تعالى ﴿ مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ ۝ ادْعُوهُمْ لِآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوا آبَاءَهُمْ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَمَوَالِيكُمْ ۚ ﴾ .

وألزم الله رسوله ﷺ في هذه الآية الكريمة- بقوله ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ ..... ﴾- بالتزوج من زينب بنت جحش مطلقة دعيه ليكون ﷺ حامل راية ثقل إبطال هذه العادة الجاهلية لأن ذلك من أمـــور التشريـــع

والتبليغ عن الله تعالى إبقاء على التأسي به ﷺ لأمته إلى يوم القيامة .

وقد ختمت هذه الآية الكريمة بقوله تعالى ﴿ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ بياناً لأن ما يريده الله تعالى ويقضي به لابد أن يقع وتشهده الحياة في أحداثها ووقائعها تطبيقاً لما شرعه الله تعالى لعباده المؤمنين .

التنويه بزيد بن حارثة ووجه ذلك

ويلاحظ أن زيداً ذكر في هذه الآية الكريمة ثلاث مرات:

الأولى: بالوصف الخاص به الذي لا يكون لغيره وهو تزاوج الإنعام عليه من الله تعالى ومن رسوله ﷺ حتى كأنهما شيء واحد .

وقد كان الإنعام عليه من الله تعالى بالهداية للإيمان والإنعام عليه من رسول الله ﷺ بالعتق والحرية والمحبة وحسن التربية .

الثانية: ذكر باسمه العلم (زيد) المعين له .

الثالثة: في ضمن العموم المدلول عليه بقوله تعالى ﴿ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ ﴾ إذ كان دعياً لرسول الله ﷺ قبل ذلك .

وفي هذا من اللطائف- فوق العناية بزيد والحفاوة بـه- ان ذكـره بوصف الإنعام عليه يحمل في طياته الإشارة إلى ما في القصة من نوع إنعام الله عليه بتزويجه من زينب بنت جحش في مكانها من قـريش وتعززها بنسبها وحسبها وقربها من رسول الله ﷺ لكونها بنت عمته أميمة بنـت عبد المطلب .

وإن ذكره باسمه يحمل في طياته اختصاصاً له بهذا المقام لا يمكـن أن يشركه فيه غيره، لأن أدنى مراتب العلمية منع المشاركة في حقيقة ما تدل عليه .

وإن ذكره في ضمن العموم المعلل بنفي الحرج عن المؤمنين في أزواج أدعيائهم يحمل في طياته أن زيداً ﷺ كان سبباً في هذا التشريع العام الذي رفع عن الأمة الحرج والضيق فيما كانت الأمة تكرهه وتضيق به ذرعاً .

ولما قضى الله تعالى في غيبه زواج رسول الله ﷺ بزينب بنت جحش بعد قضاء زيد منها وطراً أعلمه الله تعالى بذلك كما هو صريح في الآيــة ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا ﴾ فأسرع رسول الله ﷺ إلى تنفيذ أمر ربه معلناً له غير مبال بتقول المتقولين وأباطيل الكاذبين فدخل عليها زوجاً بتزويج الله له إياها .

رد الله تعالى عن رسوله ﷺ

وعندئذ اشرأب النفاق والخبث اليهودي والضغن الوثني فقالوا عن رسول الله ﷺ من قالة السوء ما أوحت به إليهم شياطينهم من كونه ﷺ تزوج زوجة ابنه وكان يحرمها، فضاق بذلك النبي ﷺ ذرعاً وحزن لإشاعة هذه الأباطيل، فتولى الله تعالى الرد على أعدائه أكاذيبهم ومزاعمهم الباطلة فقال تعالى ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ۝ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾[٣٣٩] .

وهذا كالبيان لقوله تعالى- في أول السورة-﴿ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ﴾ لأن قوله تعالى ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ ﴾ صريح في نفي الحرج عن النبي ﷺ في إتيانه ما شرع الله له وأجازه له من تزويجه بزوجة دعيه الذي ليس له من صلةالبنوة

---

[٣٣٩] سورة الأحزاب: آية ٣٨، ٣٩ .

الصلبية أي شيء من قريب أو بعيد .

وجه تقديم نفي الحرج عن المؤمنين على نفيه عن النبي ﷺ

ونفي الله الحرج عن النبي ﷺ بقوله تعالى: ﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ وإن كان متأخراً في ترتيب التلاوة عن رفع الحرج عن المؤمنين بقوله تعالى: ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ إلا أنه – أي رفع الحرج عن النبي ﷺ – كالمتقدم في الواقع على نفي الحرج عن المؤمنين لأن زواج النبي ﷺ بمطلقة دعيه كان السابق على كل زواج بمطلقة دعي فكان التطبيق العملي لرفع الحرج عن المؤمنين في التزوج بزوجات الأدعياء .

ونفي الحرج عن النبي ﷺ نفي للحرج عن أمته ما لم يدل دليل على الاختصاص، ولا دليل هنا على ذلك .

وإنما سبق نفي الحرج عن المؤمنين– في ترتيب التلاوة– نفي الحرج عن النبي ﷺ لما في نفي الحرج عن المؤمنين من الإشعار بعموم الحكم الشامل لأفراد الأمة في جميع أزمانها وأجيالها .

رفع الحرج عن المجتمع المؤمن بإبطال عادة التبني

وفي التعبير بالحرج في قوله ﴿ لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْاْ مِنْهُنَّ وَطَرًاۚ ﴾ دليل على أن المجتمع المؤمن قد ضاق ذرعاً بهذه العادة الجاهلية وحرج من بقائها تُلْقي عليه جرائها وما يستتبعها من دخول الدعي على زوجة متبنيه وعلى بناته من كشف الحرمات بدخوله عليهن واختلاطه بهن اختلاط الابن والأخ فيرى منهن ما لا يراه غيره من العورات والمفاتن والمحاسن مما قد يكون سبباً لأفدح الأضرار وإذهاب الغيرة وفتح باب الفساد والإفساد في المجتمع .

ومما يؤيد ضيق المجتمع من ذلك أن أبا حذيفة ﷺ كان قد تبنى سالماً ولكنه ضاق نفساً من دخوله على أهله لما كبر سالم وبلغ مبلغ الرجال فلما أحست زوجته سهلة بنت سهيل رضي الله عنها منه ذلـــك جـــاءت إلى رسول الله ﷺ- فيما يرويه الإمام مسلم عن عائشة رضـــي الله عنـــها- فقالت:" يا رسول الله والله إني لأرى في وجه أبي حذيفة من دخول سالم " قالت عائشة: فقال رسول الله ﷺ: « أرضعيه » فقالت: " إنه ذو لحية". فقال: « أرضعيه يذهب ما في وجه أبي حذيفة »[٣٤٠] فقالت: " والله مـــا عرفته في وجه أبي حذيفة " وإرضاع الكبير كان خاصاً لسالم وليس لأحد من بعده .

وقوله تعالى: ﴿ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ﴾ معناه: فيما شرع الله له و " أحله له "[٣٤١] كما قال قتادة في رواية الطبري عنه .

وهذا الحل يشير إلى أنه كان قبله حظر ومنع . والحظر الذي كان هنا لم يكن حظراً شرعياً بل هو ما كان عليه أهل الجاهلية من تحريم لزوجـــة الدعي بزعمه ابناً عندهم .

فالله تعالى قال لنبيه ﷺ: هذا الحظر من الأباطيل التي لم تـــشرع في دينك ورسالتك والله تعالى شرع لك فيها ما أحله لك ولأمتك من التزوج بزوجة الدعي بعد فراقه إياها وانتهاء عدتها منه .

---

[٣٤٠] صحيح مسلم [٢: ١٠٧٨] .

[٣٤١] تفسير الطبري [٢٢: ١٤] .

وهذا على خلاف قوله " فرض عليك " فإنه مشعر بالإلزام والإيجاب.[٣٤٢]

ثم قال تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾ ويعني بسنة الله: طرائقه في شرائعه لأنبيائه ورسله السابقين من كل ما أحله لهم ولأممهم عموماً، ويدخل فيه ما حظرته أباطيل الجاهلية وهو حلال في شرائع الله تعالى .

ثم بيّن تعالى أن تشريع الله وأوامره ونواهيه القضائية في قدره حق واقع لا يتخلف فقال ﴿ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴾ .

ثم بيّن تعالى أن ﴿ ٱلَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلُ ﴾- أي الرسل الذين سبقوا الرسول محمداً ﷺ برسالاتهم وأنه شرع لهم في شرائعهم ما أحله الله لهم ولأممهم فكانوا يبلغونه إلى أممهم، لأنه من رسالات الله التي أوجب الله عليهم تبليغها لهم- لم يخافوا أحداً غير الله في تبليغ ما أنزل إليهم مهما كان فيه من حرج جاهلي وشدة في التبليغ وإبطال لعادات ألفها الجاهليون وقاموا عليها حياتهم . فقال تعالى في وصفهم ﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ﴾ .

وهذا معناه: أنهم القدوة في سنن الله وشرائعه وتبليغها إلى أممهم دون خوف أوخشية من أحد كما قال تعالى ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ﴾[٣٤٣] .

---

[٣٤٢] مفردات الراغب (ص٣٧٦) .

[٣٤٣] سورة الأنعام: آية ٩٠ .

فهو من قبيل الإرشاد والتربية لرسول الله ﷺ في أن يكون في تبليغ أوامر الله تعالى وشريعته إلى أمته على سنن إخوانه الأنبياء والمرسلين لا يخشى في التبليغ أحداً إلا الله .

وليس في هذا إشارة من قريب أو بعيد تفيد أن النبي ﷺ خشي في تبليغه رسالات الله أحداً غير الله .

ثم قال الله لرسوله ﷺ أن الله تعالى هو المختص بمحاسبة الضمائر والقلوب على ما تضمر وتكن، والجوارح على ما تعمل فقال ﴿ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ ومعناه: أن الخوف والرجاء لايكونان إلا من الله ولله تعالى وليس لأحد من الخلق دخل في رجاء أو خوف، لأنهم لا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً .

فالذي قاله المنافقون وخبثاء اليهود، ونفايات الناس أهل الوثنية– من قالة السوء، وإشاعة الأباطيل عن رسول الله ﷺ في زواجه بزينب التي كانت زوجاً لزيد بن حارثة: قد تزوج زوجة ابنه وكان يحرمها– باطل . وقد رد الله عليهم قالتهم وأكاذيبهم وجهالتهم وقولهم على الله غير الحق بقوله ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَـٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا ﴾ بياناً لأن التحريم الذي كان ينادي به رسول الله ﷺ وما زال، وأنزله الله عليه في شريعته إنما هو في زوجة الابن الصلبي النسبي الذي جاء في قوله تعالى: ﴿ وَحَلَـٰٓئِلُ أَبْنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنْ أَصْلَـٰبِكُمْ ﴾[٣٤٤] وليس الدعي ابناً صلبياً نسبياً، وإنما كان ابناً ادعائياً، فالنبي ﷺ لم يكن أباً

---

[٣٤٤] سورة النساء: آية ٢٣ .

لأحد من رجالهم أبوة صلبية نسبية حتى يحتج بها في تحريم زوجة الابن الدعي .

وفي أسلوب الآية ما يشعر بالعموم الشمولي الذي ينفي كـــل أبـــوة صلبية للنبي ﷺ عن أي فرد من أفرادهم، وذلك بدلالة التنكـــير في قولـــه " أبا" و " أحد" والإضافة في قوله " من رجالكم " .

ثم أثبت للنبي ﷺ مايثبت له أبوة التقديس والاحترام والتوقير- كإثبات الأمومة لأمهات المؤمنين في قوله تعالى: ﴿ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَـٰتُهُمْ ﴾- فقال تعالى مستدركاً على العموم السابق: " ولكن رسول الله " فكل رسول أب لأمته في الاحترام والتقديس والتوقير، وإلى هذا يشير قوله تعالى ﴿ ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ﴾ وقد قيل في بعض التفاسير وكتب الحديث إنه قرئ " وهو أب لهم "[٣٤٥] وهذا محمول على أنه تفسير الأولوية في قوله ﴿ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ .

والرسالة إذ يلزمها ذلك فهي عامة الترابط لكل مؤمن برسول الله ﷺ، فالاستدراك جئ به لإثبات هذه الرابطة العامة بكل مؤمن وهي في حقيقتها أعظم وأجل من رابطة الأبوة لأن الله تعالى قال في حق رسول الله ﷺ بالنسبة للمؤمنين ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾[٢٤٦]فخصه ﷺ بذلك، بعد وصفه بالرسالة في هذه الآية نفسها بقوله ﴿ لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ

---

[٣٤٥] روح المعاني: للألوسي [٢٢: ٣١]، المطالب العالية: لابن حجـــر [٣: ٣٥٨-٣٥٩] .

[٢٤٦] سورة التوبة: آية ١٢٨ .

أَنفُسِكُمْ ﴾ ليحقق هذا الترابط الشامل للأمة في حاضرها، ومستقبلها إلى يوم القيامة، لأن النبي ﷺ أسوة دائمة لأمته، وقدوة لها في جميع ما تأتي به من خير أو تذر من شر، وهذا إنما كان مستمداً من رسالته وشريعته في عمومها وخلودها .

ثم قال تعالى: ﴿ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ ليبين أن هذه الرابطة بينه ﷺ وبين جميع المؤمنين لا تقتضي وراثة في النبوة ليقطع جذور إدعاء أحد من أمته النبوة من بعده اعتماداً على رابطة الأبوة بالرسالة وبياناً لأنه ﷺ لا نبي بعده يستدرك عليه وعلى شريعته شيئاً من الأحكام والتشريع، لأن ختم النبوة يستلزم حتماً ختم التشريع .

وهذا يقتضي باعتبار عنوم رسالته وخلودها أن تكـــون كاملـــة في أصولها وجميع ما يتفرع عن تلك الأصول لتؤدي إلى الأمة المسلمـــة وإلى الحياة عامة ما تتطلبه احتياجاتها في سائر الأزمنة والأمكنة والأجيال فتشمل الحاضر والمستقبل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

ثم ختم الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ بياناً لعموم إحاطة علمه تعالى بأحوال عباده، وما يشرعه لهم من شرائع الخير والهدى وجعل رسول الله ﷺ هو النبراس الذي يضيء لأمته طريق السير في هدايتها .

بعد هذا العرض للقصة كما تفيدها الآيات الكريمة وسياقاتها نرى أن نعرض في إجمال وإيجاز- ما قيل فيها من اختلاف أقوال العلماء – فأقول:

تنزه كثير من أهل العلم عن أقوال القصاص

ذهب فريق إلى أقوال تنزه بعض المفسرين[٣٤٧] والمحدثين[٣٤٨] عن حكايتها لما فيها من عبارات لا يحوطها أدب التعبير مع رسول الله ﷺ، وفيها فتح باب لأعداء الإسلام ونبي الإسلام لينفذوا منها- كما هي طرائقهم أن يتصيدوا من ساقط الروايات ومكذوبها ما يطعنون به على الإسلام ونبي الإسلام- إلى قالة السوء والطعن في رسالته ﷺ وسمو مقامه، ولولا أن الذين تعرضوا لهذا الإتجاه- وفي مقدمتهم الإمام الطبري في تفسيره[٣٤٩] والزمخشري[٣٥٠] ومن تابعه- لهم شهرة بين الأمة ومؤلفاتهم في التفسير وغيره مقروءة، ولها اعتبارها لما أشرنا لشيء من هذا الإتجاه في فهم القصة وآياتها .

مذهب السلف إثبات ما أثبته القرآن الكريم

وذهب فريق من السلف- منهم علي بن الحسين " زين العابدين " والزهري[٣٥١] والسدي[٣٥٢] وغيرهم، وتبعهم على ذلك فريق من العلماء منهم القاضي بكر بن العلاء[٣٥٣] والقاضي عياض[٣٥٤] وابن فورك[٣٥٥]

---

(٣٤٧) ابن كثير في تفسيره [٣: ٤٩١]، أبو حيان في البحر المحيط [٧: ٢٣٤] .

(٣٤٨) الحافظ ابن حجر في الفتح [٨: ٥٢٤]، القاضي عياض في الشفا [٢: ١٦٨]

(٣٤٩) تفسير الطبري [٢٢: ١٣] .

(٣٥٠) الكشاف: للزمخشري [٣: ٢٦٢-٢٦٣] .

(٣٥١) تفسير القرطبي [١٤: ١٩٠-١٩١]، الشفاء [٢: ١٦٧] .

(٣٥٢) فتح الباري [٨: ٥٢٣] .

(٣٥٣) الشفاء [٢: ١٦٨] .

(٣٥٤) نفس المرجع السابق .

(٣٥٥) نفس المرجع السابق .

وجمع من المحدثين منهم الحافظ ابن حجر[٣٥٦] والقسطلاني في المواهب والزرقاني في شرحها والحذاق من المفسرين منهم ابن العربي[٣٥٧] والقرطبي[٣٥٨] وغيرهم ممن يعنون بفهم الآيات القرآنية في سياقهاوطلب الهداية منها وتتريه الرسل عما لا يليق بهم من الروايات البعيدة عن منطق الحق والواقع- إلى القول بأن ما اخفاه رسول الله ﷺ في نفسه وأبداه الله تعالى إنما هو إعلام الله له أنها ستكون من أزواجه بعد طلاق زيد لها وانقضاء عدتها منه كما ذكرناه سابقاً .

وإنما كان العتاب على إخفاء الإعلام بزواجها منه وتلبثه ﷺ- بعد أن عرض عليه زيد طلاقها- اجتهاداً منه ﷺ استجابة لطبيعته ﷺ، المجبولة على الرأفة والرحمة وأخذاً بمبدأ الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة والإرشاد إذ لم يعين الله له وقت تزويجه منها، وليتعرف ﷺ ما عند زيد بالنسبة إليها من رغبة فيها وميل إليها .

ويحتمل في فهم القصة وآياتها أن رسول الله ﷺ استشعر منذ نزلت عليه آية إبطال التبني في قوله تعالى﴿ مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِى جَوْفِهِۦ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔى تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْ ۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِى ٱلسَّبِيلَ ۝ ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ﴾[٣٥٩]

---

[٣٥٦] الفتح [٨: ٥٢٤] .

[٣٥٧] أحكام القرآن [٣: ٥٢٩] .

[٣٥٨] الجامع لأحكام القرآن [١٤: ١٩١] .

[٣٥٩] سورة الأحزاب: آية ٤، ٥ .

الذي يترتب على إبطاله إبطال ما ينتج عنه من أمور وآثار جاهلية .

العمل على إبطال التعاظم بالأنساب والأحساب

وقد نشأ بإبطال التبني أن نزل الأدعياء إلى درجة الموالي وهي أقل في نظر المجتمع مماكانوا عليه حيث أصبحوا أدنى منزلة اجتماعية ممن كانوا في مستواه، فرأى النبي ﷺ أنه أول من يطلب منه العمل على إبطال ومحو الفوارق الاجتماعية القائمة على غير ما أنزله الله ومن أهمها وأشدها أثراً على المجتمع عادة التعالي والتعاظم بالأحساب والأنساب، التي يراها الجاهليون شرعة مرعية في أنكحتهم والظهور في أنديتهم-وعلم رسول الله ﷺ أن بقاء هذه العادة الجاهلية مدمر للمجتمع المسلم بما تنشره في النفوس من الأحقاد والضغائن، وتقسيمه إلى طبقات يحتقر بعضها بعضا ويتميز بعضها على بعض غيظاً فلما أن أرسلت زينب بنت جحش الأسدية أختها حمنة إلى النبي ﷺ تخبره أن كثيراً من أصحابه خطبها وهي تشاوره وتستأذنه أن يختار لها ممن خطبها من يراه أصلح لها رأى ﷺ أن تزويجها بزيد بن حارثة مولاه يحقق أمرين عظيمين صالحين:

أولهما: أن زيد خير ممن خطبها علماً بكتاب الله وسنة نبيه ﷺ فتزويجها إياه يحقق لها عصمة زوجية ونفعاً دينياً ولذلك قال لأختها: « فأين هي ممن يعلمها كتاب ربها وسنة نبيها ؟ » . قالت حمنة: من ؟ .

قال: « زيد بن حارثة » فغضبت وقالت: تزوج ابنة عمتك مولاك ؟ وعادت إلى زينب، فأخبرها، فاشتد غضبها وقولها بأكثر مما قالت أختها فأنزل الله تعالى ﴿ وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴾ . قالت

زينب: فأرسلت إليه: " زوجني من شئت فزوجني منه "[٣٦٠]

وثانيهما: أن تزويج زيد بها- وهي في شرفها ونسبها من قومها في قريش، وقرابتها من رسول الله ﷺ- عمل عظيم يسديه رسول الله ﷺ لأمته يهدم به عادة جاهلية، ويغرس به قاعدة العدالة، والمساواة بين أفراد المجتمع المسلم، حتى لا يتفاضل بالأحساب والأنساب، وليرجع إلى ما أمر الله به من التفاضل بالتقوى والعمل الصالح تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾[٣٦١] وقوله ﷺ: « ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى »[٣٦٢].

فزوّجها رسول الله ﷺ زيداً وأمهرها عنه ما ذكرته الروايات[٣٦٣]، وبهذا وضعت قاعدة المساواة في النكاح بين جميع المسلمين والمسلمات تحقيقاً لقوله ﷺ: « إذا خطب إليكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه، إلا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد عريض »[٣٦٤] الذي جعل قاعدة المساواة في الدين والخلق، ولا دخل في ذلك للأنساب والأحساب مما كان يبني عليه الجاهليون اعتبارهم .

---

[٣٦٠] السنن الكبرى: للبيهقي [٧: ١٣٧] .

[٣٦١] سورة الحجرات: آية ١٣ .

[٣٦٢] مسند أحمد [٥: ٤١١]، المكتب الإسلامي، دار صادر، بيروت .

[٣٦٣] تفسير ابن كثير [٣: ٤٩١] .

[٣٦٤] سنن الترمذي [٣: ٣٨٥-٣٨٦] تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، سنن ابن ماجه [١: ٦٠٧] مع حاشية السندي .

وكان رضاؤها بهذا الزواج لا يعبر عن رغبة قلبية وميل نفسي منـها فاشتد لسانها على زيد وتعاظمت وافتخرت عليه بنسبها وحسبها مما جعل الحياة بينهما حياة لا استقرار فيها ولا سكون ولا مودة .

بدء التنافر بين قلبي زينب وزيد بن حارثة

قالت زينب رضي الله عنها وهي تقص خبرها مع زيـد: " فأخذتـه بلساني فشكاني إلى النبي ﷺ فقال له النبي ﷺ: « امسك عليك زوجـك واتق الله .. » .

وكان النبي ﷺ منذ بدأ في نفسه الاستشعار بإبطال ما يترتب علـى إبطال بنوة الدعي- وأدى هذا الاستشعار إلى إبطال عادة التعالي والمفاخرة بالأنساب والأحساب ورد المؤمنين إلى التفاضل بالدين والتقوى - لا يزال يدور في نفسه ويقوى معه استشعاره بإبطال ما هو أقـوى في جـذوره الجاهلية من عادة التفاخر بالأنساب والأحساب وهو إبطال عدم صـحة زواج المتبني بزوجة دعيه بعد فراقه إياها .

فلما جاءه زيد يشكو إليه زوجة زينب واشتداد لسانها عليه وعـدم طاقته الصبر على ما يلقى منها وعرض على النبي ﷺ أن يطلقها فقال لـه النبي ﷺ: « امسك عليك زوجك واتق الله »- أخذاً بما جبل عليه ﷺ من الرحمة والرأفة وتلبثاً لمعرفة ما عند زيد نحوها، وهل شكايته منـها فـورة غضبية لعلها تزول، أو تسكن وتهدأ بإحسان العشرة منها، أو أنها عزيمة لا تردد فيها ولا محيد عنها، وأن ثورة المصاعب في هذا الـزواج وتصـاعد النزاع بين زيد وزينب واشتعال نار الخلاف بينهما لن تهدأ- عرف عليـه الصلاة والسلام أن عشرتهما لن يكتب لها الدوام ما احتفت بهذه المصاعب لعدم توافقهما في الحياة الزوجية لنفور زينب من زوجها زيـد وكرهـها

للعيش معه وعدم استطاعة زيد على الصبر عليها لتناولها إياه بلسانها، فرأى ﷺ أنه إن طلقها زيد فسيتزوجها عليه الصلاة والسلام ليهدم بزواجه منها- بوضفها مطلقة دعيه زيد- عادة الجاهلية التي تمنع تزوج المتبنى بمطلقة الدعي ويتحمل ﷺ ثقل إزالة هذه العادة رفعاً للحرج عن المؤمنين في التزوج بمطلقات الأدعياء حيث قد يسر الله تعالى بقضائه وقدره سبيل هدمها على يديه بتطليق زيد دعيه لزوجه زينب، لأن إبطال عادة التبني - قبل تزوج زيد بزينب- يستلزم إبطال جميع ما ينتج عنها من آثار وفي مقدمتها إبطال منع التزوج بمطلقة الدعي .

ولما ضاق زيد ذرعاً بالعيش مع زينب رضي الله عنهما و لم يبق له وطر فيها عاد إلى النبي ﷺ يشكوها إليه وقال: " أنا أطلقها "[٣٦٥] فطلقها وبت طلاقها .

ولما انقضت عدتها أرسل رسول الله ﷺ زيداً إليها يخطبها عليه فنزل القرآن بتزويجه ﷺ بها قبل أن يعود زيد من خطبتها فقام رسول الله ﷺ ودخل عليها زوجاً لها تنفيذاً لأمر الله تعالى في قوله تعالى ﴿ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَٰكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِيٓ أَزْوَٰجِ أَدْعِيَآئِهِمْ إِذَا قَضَوْا۟ مِنْهُنَّ وَطَرًا ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ .

الله المزوّج وجبريل الشاهد

قالت زينب- كما في سنن البيهقي- حين دخل عليها رسول الله ﷺ زوجاً لها: « هذا أمر من السماء» وقالت: " يا رسول الله بلا خطبة ولا شهادة ؟ " فقال: « الله المزوج وجبريل الشاهد » [٣٦٦].

---

[٣٦٥] السنن الكبرى [٧: ١٣٨] .

[٣٦٦] السنن الكبرى [٧: ١٣٨] .

ويدل لصحة هذا ما رواه البخاري عن أنس ﷺ قال: " كانت زينب تفخر على أزواج النبي ﷺ تقول: " زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سماوات "[٣٦٧] وما رواه مسلم من أن رسول الله ﷺ " دخل عليها بغير إذن "[٣٦٨] حين نزل القرآن بتزويجه إياها .

الخير العام في كل من زواج زيد بن حارثة بزينب بنت جحش وطلاقه لها

وهكذا كان زواج زيد بزينب خيراً في أوله حين قضى ومحا الفوارق القائمة على التعالي بالأحساب والأنساب " وذلك أن الموالي تزوجت في قريش، وتزوج زيد بزينب، وتزوج المقداد بن الأسود ضباعة بنت الزبير، وزوّج أبو حذيفة سالماً من هند بنت عتبة بن ربيعة وهو مولى لامرأة من الأنصار "[٣٦٩] .

وكان طلاق زيد لزينب خيراً كبيراً أيضاً حيث كان سبباً لإبطال عادة الجاهلية التي تمنع تزوج المتبني بمطلقة دعيه، أو أرملته .

وحينئذ يكون ما أخفاه رسول الله ﷺ في نفسه وعوتب عليه هو استشعاره ﷺ من تمكنه من إبطال عادة عدم صحة تزوج المتبني بمطلقة دعيه بمجيء زيد شاكياً زوجه زينب ويعرض طلاقها دون أن يكون له ﷺ دخل قلبي سوى إرادة تحقيق ما أراده الله تعالى من زواجه بزوجة دعيه - التي قضى وطره منها- لرفع الحرج عن المؤمنين في التزوج بمطلقات الأدعياء .

---

(٣٦٧) صحيح البخاري [٩: ١٥٢] .

(٣٦٨) صحيح مسلم [٢: ١٠٤٩] .

(٣٦٩) أحكام القرآن: لابن العربي [٣: ١٥٢٨] .

فإن قيل: إذا كان رسول الله ﷺ قد أراد تحقيق ما أراده الله تعـالى بإبطال عادة جاهلية ففيم يكون العتاب ؟ .

فالجواب أن العتاب كان على التأخير بقوله لزيد أمسـك عليـك زوجك .

***

آية آخرى من عتاب التحذير

ومن الآيات التي هي من هذا النوع من العتاب أول آية من سورة التحريم وهي قوله تعالى ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ .

والبحث في هذه الآية الكريمة يقع في موضعين منها:

الموضع الأول: في بيان المراد بهذا التحريم الذي وجه الإنكار إليه .

الموضع الثاني: فيما حرمه النبي ﷺ على نفسه فخاطبه الله تعالى بهـذا الخطاب لذلك التحريم الذي صدر منه ﷺ .

أما الموضع الأول_ وهو ما المراد بالتحريم في هذه الآية ؟- فإنا نقول: أن المعنى الأصلي لمادة (حرم) في اللغة " هو المنع والتشديد "[٣٧٠] كما قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة .

وقد ورد التحريم بهذا المعنى في القرآن الكريم في آيات منها قوله تعالى ﴿ وَحَرَّمۡنَا عَلَيۡهِ ٱلۡمَرَاضِعَ مِن قَبۡلُ ﴾[٣٧١] أي: " منعنا موسى المراضع أن

---

[٣٧٠] معجم مقاييس اللغة [٢: ٤٥] .

[٣٧١] سورة القصص: آية ١٢ .

يرتضع منهن من قبل أمه "[٣٧٢] وقوله تعالى ﴿ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ ﴾[٣٧٣] . أي " منعه من دخولها " .

المنع المحرم وغير المحرم

وعلى ذلك فمن منع نفسه من شيء كان له التمتع به فعلاً كان أو قولاً أو غير ذلك فقد حرم نفسه من ذلك الشيء أي منعها منه، ما لم يؤد هذا المنع إلى ضرر شرعي يلحق بالشخص المحرم على نفسه أو بغيره ممن له علاقة به فحينئذ يصير المنع والتحريم بذلك منعاً وتحريماً شرعياً، وهذا كالذي رواه البخاري عن أنس ﷺ أن رهطاً من أصحاب رسول الله ﷺ منعوا أنفسهم وحرموها من التمتع بأمور كان لهم حق التمتع بها، لكن هذا المنع أدى إلى ضرر بالنفس وبالغير فإن منه المنع من إتيان النساء وهذا يضر بالزوجة بل يضر بالزوج نفسه، وهكذا في كل ما ذكر مما منعوا أنفسهم منه، ولهذا أباه رسول الله ﷺ وقال لهم: « أما والله إني لأخشاكم الله وأتقاكم له لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتي فليس مني »[٣٧٤].

وهذا دليل على أن المنع والتحريم أصبح منعاً وتحريماً شرعياً ليس لأحد من الخلق أن يقدم عليه إلا بتشريع من الله تعالى، بل قوله ﷺ « إني لم أومر بالرهبانية »[٣٧٥] وقوله « إن الرهبانية لم تكتب علينا »[٣٧٦] يدل على أن

---

[٣٧٢] تفسير الطبري [٢٠: ٤٠] .

[٣٧٣] سورة المائدة: آية ٧٢ .

[٣٧٤] صحيح البخاري [٧: ٢] .

[٣٧٥] سنن الدارمي [٢: ١٣٣] .

[٣٧٦] مسند أحمد [٦: ٢٢٦] .

هذا تحريم شرعي إذ منع النفس من هذه الأشياء منع لها مما كان مباحاً شرعاً .

ويرشح هذا ما ورد في بعض الروايات أنهم أرادوا بهذا المنع التشبه بالقسيسين والرهبان كما جاء ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وعن السدي فيما أخرجه الطبري عنهما في تفسيره[٣٧٧]. ويؤيده هذا ما رواه البخاري عن أبي جحيفة عن أبيه قال: " آخى النبي ﷺ بين سلمان وأبي الدرداء فزار سلمان أبا الدرداء فرأى أم الدرداء متبذلة[٣٧٨] فقال لها: ما شأنك ؟ قالت: أخوك أبو الدرداء ليس له حاجة في الدنيا . فجاء أبو الدرداء فصنع له طعاماً فقال: كل، قال: فإني صائم، قال: ما أنا بآكل حتى تأكل، قال: فأكل . فلما كان الليل ذهب أبو الدرداء يقوم، فقال له سلمان: نم، فنام، ثم ذهب يقوم فقال: نم، فلما كان من آخر الليل قال سلمان: قم الآن، فصليا . فقال له سلمان: إن لربك عليك حقا، ولنفسك عليك حقا، ولأهلك عليك حقا . فأعط لك ذي حق حقه، فأتى النبي ﷺ، فذكر ذلك له فقال النبي ﷺ: « صدق سلمان »[٣٧٩].

أما الحرام في الشرع فإنه ما طلب الشارع من المكلف الكف عنه على وجه الحتم والإلزام كما عرفه الأصوليون بذلك .

---

[٣٧٧] تفسير الطبري [٧: ٩، ١٠] .

[٣٧٨] متبذلة أي: لابسة ثياب مهنتها .

[٣٧٩] صحيح البخاري [٣: ٤٩-٥٠] (واللفظ له)، سنن الترمذي [٥: ٦٠٨-٦٠٩] .

التحليل والتحريم خاص بالله

فإذا ما حرم الله تعالى شيئاً فليس لأحد من كان أن يحله، لأن التحريم حكم الله تعالى وشرعه لعباده، وهو العليم بخفايا الأشياء والأفعال ومضارها، فيحرم منها مايشاء، ويحل منها ما يشاء، فإذا أحل الله شيئاً فلا محرم له من بعده وإذا حرم شيئاً فلا محل له من بعده .

ومن ذلك يعلم أن النبي ﷺ لم يحرم على نفسه شيئاً تحريماً شرعياً مما كان الله تعالى قد أحله له، لأنه ﷺ لا يملك ذلك ولا يخالف لله تعالى أمراً ولا نهياً لعصمة الله تعالى له من ذلك كله .

فلم يبق إلا أن يتوجه التحريم المخاطب به النبي ﷺ في هذه الآية إلى المعنى اللغوي- وهو الامتناع كما قال به حذاق المفسرين(٣٨٠)- إذ هو الأصل أولاً، ولامتناع صدور المعنى الشرعي منه ﷺ في المراد بالتحريم في هذه الآية ثانياً .

ما يدل عليه تصدير الآية بندائه بوصف النبوة

فيكون معنى الآية على هذا- وقد صدرت بندائه ﷺ بوصف النبوة تشريفاً لمكانه وتعظيماً لمقامه- يا أيها النبي لم تمنع نفسك وتحرمها من الاستمتاع بما أحله الله لك مما لك فيه رغبة ومتعة ونفع بما يشق عليك من حرمان نفسك حقها مما أحللناه لك من متعة الحياة وزهرتها .

أما ما حرمه النبي ﷺ على نفسه فمنعها منه فجمهور المفسرين على أنه سريته مارية القبطية أم ولده إبراهيم عليه السلام .

---

(٣٨٠) تفسير الفخرالرازي [٣٠: ٤٢]، البحر المحيط [٨: ٢٨٩]، روح المعاني [٢٨: ١٤٧] .

وهو ما صدر به ابن كثير تفسيره لهذه الآية الكريمة[٣٨١]، واستدل بما رواه النسائي[٣٨٢] عن أنس ﷺ: " أن رسول الله ﷺ كانت له أمة يطؤها فلم تزل به عائشة وحفصة حتى حرمها على نفسه فـأنزل الله ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ تَبۡتَغِي مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَۚ وَٱللَّهُ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ .

وقد أورده الحافظ ابن حجر- في الفتح- فقال: " وقد أخـرج النـسائي بسند صحيح- فذكره ثم قال: وهذا أصح طرق هذا السبب وله شـاهد مرسل أخرجه الطبري بسند صحيح عن زيد[٣٨٣] بن أسلم التابعي الشهير قال: أصاب رسول الله ﷺ أم إبراهيم ولده في بيت بعض نسائه فقالت: يا رسول الله في بيتي وعلى فراشي، فجعلها عليه حراماً . فقالت: يا رسول الله كيف تحرم عليك الحلال ؟ فحلف لها بالله لا يصيبها فنزلـت ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ ﴾[٣٨٤] .

ثم ساق ابن كثير تعزيزاً لهذا الرأي قول زيد بن أسلم نقلاً عن الطبري- كما نقله عنه الحافظ بن حجر حسبما ذكرناه آنفاً- وعزز بما أخرجه الهيثم بن كليب في مسنده بسنده إلى عمر بن الخطاب ﷺ قال: " قال النبي ﷺ لحفصة: « لا تخبري أحداً وأن أم إبراهيم عليّ حرام » فقالت: أتحرم ما أحل الله لك ؟ قال: « فوالله لا أقربها » قال: فلم

---

[٣٨١] تفسير ابن كثير [٤: ٣٨٦] .

[٣٨٢] سنن النسائي [٧: ٧١] .

[٣٨٣] هو زيد بن أسلم (٠٠-١٣٦هـ) فقيه ومفسر ومحدث .

[٣٨٤] فتح الباري[٩: ٣٧٦] وأثر زيد بن أسلم في تفسير الطبري[٢٨: ١٥٥].

يقربها حتى أخبرت عائشة " . قال فأنزل الله تعالى: ﴿قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَٰنِكُمْ﴾ [٣٨٥] .

قال ابن كثير تعليقاً على هذا الحديث وتعزيزاً له: " وهـذا إسناد صحيح و لم يخرجه أحد من أصحاب الكتب الستة، وقد اختاره الضياء المقدسي[٣٨٦] في كتابه المستخرج "[٣٨٧] .

وقد نقله الحافظ ابن حجر- في الفتح- عن الضياء المقدسي من المختارة وأيده بما أخرجه الطبراني- في عشرة النساء- وابن مردويه عن أبي هريرة ﷺ قال: " دخل رسول الله ﷺ بمارية بيت حفصة فجاءت فوجدتها معه فقالت: يا رسول الله في بيتي تفعل هذا معي دون نسائك "- قال ابن حجر: " فذكر نحوه "[٣٨٨] أي نحو حديث عمر المتقدم .

ثم قال الحافظ ابن حجر في ترجيحه بين الأقوال التي قيلت فيما حرمه النبي ﷺ على نفسه: " والراجح من الأقوال كلها قصة مارية لاختصاص عائشة وحفصة بها بخلاف العسل فإنه اجتمع فيه جماعة منهن "[٣٨٩] .

---

[٣٨٥] تفسير ابن كثير [٤: ٣٨٦] .

[٣٨٦] الضياء المقدسي (٥٦٩-٦٤٣هـ) محمد بن عبد الواحد، عالم بالحديث ومؤرخ .

[٣٨٧] تفسير ابن كثير [٤: ٣٨٦] .

[٣٨٨] الفتح [٨: ٦٥٧] .

[٣٨٩] الفتح [٩: ٢٩٠] .

واختيارات الضياء المقدسي- التي نقل عنها كل من الحافظين ابن كثير وابن حجر حديث عمر السابق- يقول عنـها الإمـام ابن تيميـة: " إن أحاديث المختارة أصح وأقوى من أحاديث المستدرك "[٣٩٠] .

ما حرمه النبي ﷺ على نفسه

ثم ذكر ابن كثير حديث الطبراني- عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ قال: " حرّم رسول الله ﷺ سريته "[٣٩١] .

وظاهر الآية الكريمة يعزز هذا القول لأن "ما" في قوله تعالى: ﴿لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ وتعليل التحريم بقوله عز وشأنه ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَٰجِكَ﴾ يدل على أن المحرم شيء من جنس ما يُبْتَغَى به مرضاة الزوجات ويتوصل به إلى قلوهن في الاستمتاع، وعدم تحريمه بالامتناع عنه يثير في أنفسهن الغيرة، وإن كان المحرم ليس بداخل في الزوجات بوصف الزوجية لكنه مشارك لهن في وجود الاستمتاع به لتحققه فيه كتحققه فيهن، وذلك يناسبه أن يكون المحرم الممتنع عنه سريته مارية أم ولده إبراهيم عليه السلام التي أحل الله له ﷺ الاستمتاع بها، وكانت تثير في أنفس الزوجات الطاهرات الغيرة منها، وتحريمه إياها على نفسه وامتناعه عنها أشد مرضاة لهن وأدعى لسرورهن .

ويؤيد هذا أن في لفظ " لك " من قوله تعالى: ﴿مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَۖ﴾ من معنى الخصوصية ما يدل على أن المحرم من تعلقت به هـذه الخصوصـية

---

[٣٩٠] شرح المواهب: للزرقاني [١: ٣٧٣] .

[٣٩١] تفسير ابن كثير [٤: ٣٨٧] .

- وهي سريته ﷺ- إذ لا خصوصية في غيرها من العسل ونحوه .

وهذا التعزيز مال إليه جمهور المفسرين الذين قالوا: إن الذي حرمه النبي ﷺ على نفسه هو مارية القبطية أم ولده إبراهيم .

وقد ذكر هذا ابن الجوزي في تفسيره- زاد المسير- وأسنده إلى بعض أئمة السلف والأكثرين من المفسرين فقال: " وإلى هذا المعنى- أي تحريم مارية على نفسه ﷺ- ذهب سعيد بن جبير ومجاهد وعطاء والشعبي ومسروق ومقاتل والأكثرون "(٣٩٢) .

وممن مال إلى هذا القول- أيضاً- ابن العربي في تفسيره لآيات الأحكام -حين قال:" وأما ما روي أنه حرم مارية فهو.. أقرب إلى المعنى.."(٣٩٣) .

ولعل ابن العربي يقصد بالأقربية إلى المعنى أن هذا التحريم قد علل في الاية الكريمة بابتغاء مرضاة الزوجات، وهذا ما صرح به الجصاص في أحكام القرآن بقوله "... الأظهر أنه حرم مارية، وأن الآية فيها نزلت لأنه قال ﴿تَبْتَغِى مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾ وليس في ترك شرب العسل رضا أزواجه، وفي ترك قرب مارية رضاهن "(٣٩٤) .

وإلى هذا الترجيح مال جمال الدين القاسمي في تفسيره- محاسن التأويل- حيث قال:" والذي يظهر لي هو ترجيح روايات تحريم الجارية في سبب نزولها وذلك لوجوه:

---

(٣٩٢) زاد المسير في علم التفسير [٨: ٣٠٣] .

(٣٩٣) أحكام القرآن: لابن العربي [٤: ١٨٣٣] .

(٣٩٤) أحكام القرآن: للجصاص [٣: ٤٦٣] .

منها: أن مثله يبتغي به مرضاة الضرات[٣٩٥] ويهتم به لهن .

ومنها: أن روايات شرب العسل لا تدل على أنه حرمه ابتغاء مرضاتهن بل فيه أنه حلف لا يشربه أنفة من ريحه ... "[٣٩٦].

وذهب جمهور المحدثين إلى أن المحرم الممتنع عنه هو العسل وحجتهم في ذلك ما رواه البخاري ومسلم وغيرهما .

والروايات عندهما متفقة على أن ما حرمه النبي ﷺ على نفسه ومنع نفسه منه هو العسل، ومختلفة في التي شرب عندها العسل من زوجاته .

وأكثرها أن التي شرب عندها العسل هي زينب بنت جحش[٣٩٧]، ويليها أن التي شرب عندها هي حفصة[٣٩٨] .

وهناك روايات صحيحة الإسناد- كما يقول السيوطي في الدر[٣٩٩]- لكنها لم ترد في الصحيحين تذكر أن التي شرب عندها العسل هي سودة بنت زمعة رضي الله عنها .

---

[٣٩٥] وهو يقصد بالضرات الزوجات وإن كانت السرية ليست ضرة بالمعنى الشرعي وإنما هي ضرة في الواقع النفسي لهن .

[٣٩٦] محاسن التأويل [١٦: ٥٨٥٥] .

[٣٩٧] صحيح البخاري [٦: ١٩٤]، [٧: ٥٦]، [٨: ١٧٥]، مسلم [٢: ١١٠٠]، أبو داود[٣: ٣٣٥]، النسائي[٦: ١٥١]، [٧: ١٣، ٧١]

[٣٩٨] صحيح البخاري [٧: ٥٧]، [٩: ٣٣]، مسلم [٢: ١١٠١]، أبو داود [٣: ٣٣٥] .

[٣٩٩] الدر المنثور [٦: ٢٣٩] .

وعزا الحافظ ابن حجر- في الفتح- مثل هذا القــول إلى الطــبراني وابن مردويه في تفسيره عن ابن عباس وقال: " ورواته موثقون " [٤٠٠] .

ودعواه بأن أبا عامر- أحد رواة هذا الحديث عند الطــبراني وابــن مردويه-" وهم في قولة سودة "[٤٠١] دعوى لم يقم عليها دليلاً، سوى أنها نحو رواية البخاري التي تذكر أنه شرب العسل عند حفصة .

ولا معنى لتوهيمه الراوي بعد توثيقه إياه، مع أن الروايات مختلفــة في التي شرب رسول الله ﷺ عندها العسل .

وفي رواية أسندها الحافظ ابن حجر- في الفتح-[٤٠٢] إلى السدي في تفسيره ونقلها عن الطبري تقول إن التي شرب عندها العسل هي أم سلمة رضي الله عنها وقال: إنها مرجوحة ومرسلة .

وأسند السيوطي- في الدر[٤٠٣]- مثلها إلى ابن سعد في الطبقات عن عبد الله بن رافع .

فهذا الاختلاف في التي شرب النبي ﷺ عندها العسل مــن زوجاتــه - وهو موجود في الصحيحين في روايات أغلبها متوالية-[٤٠٤] يدل على الاضطراب مما حمل بعض حذاق العلماء على الترجيح بين هذه الروايات،

---

[٤٠٠] فتح الباري [١٢: ٣٤٣] .

[٤٠١] فتح الباري [١٢: ٣٤٣].

[٤٠٢] فتح الباري (٩: ٣٧٧) .

[٤٠٣] الدر المنثور (٦: ٢٣٩) .

[٤٠٤] صحيح البخاري [٧: ٥٦، ٥٧]، مسلم [٢: ١١٠٠، ١١٠١]، سنن أبي داود [٣: ٣٣٥] .

فذهب القاضي عياض والنسائي والأصيلي- فيما نقله عنهم النــووي في شرح مسلم[٤٠٥]- إلى ترجيح رواية أن التي شرب النبي ﷺ عندها العسل زينب . وقالوا: إنها أصح . و لم يتكلموا في صحة غيرها، والأصــحية لا تنافي الصحة، وحينئذ يبقى الحديث على الاحتمال فلا يصلح به القطع في الاستدلال .

ورجح الحافظ ابن حجر ما رجحه هؤلاء الأئمة بأن عائشة وحفصة كانتا متظاهرتين على النبي ﷺ على ما جاء عن عمر ﷺ فيمــا أخرجــه البخاري في التفسير[٤٠٦] وفي الطلاق[٤٠٧] وسبق أن حمل القــصة علــى التعدد جمعاً بين الروايات[٤٠٨]وبذلك يبقى الاحتمال قائماً إذ لم يمكنه رفع الاحتمال عن الحديث .

وهذا مما يؤيد ترجيح ما ذهبنا إليه من أن الذي حرمه النبي ﷺ على نفسه هو سريته مارية أم ولده إبراهيم العَلَيْلاً، ويرشح ذلك تعليل التحريم المنكر عليه بقوله ﴿ تَبۡتَغِى مَرۡضَاتَ أَزۡوَٰجِكَ ﴾ .

ووجه الترشيح بهذا أن النبي ﷺ في رفعة مقامه وجلال مكانته- نبياً ورسولاً- قدوة لأمته في جميع ما يقع منه قولاً أو فعلاً أو تقريراً ما لم يدل دليل على اختصاصه به ﷺ، لأنهم مأمورون بمتابعته، وأن متابعته قد جعلها الله تعالى دليلاً على حبه سبحانه في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ إِن كُنتُمۡ تُحِبُّونَ ٱللَّهَ

---

[٤٠٥] شرح مسلم [١٠: ٧٧] .

[٤٠٦] صحيح البخاري [٦: ١٩٥] .

[٤٠٧] لعله أراد (وفي النكاح) صحيح البخاري [٧: ٣٦] .

[٤٠٨] فتح الباري [٩: ٣٧٦] .

فَٱتَّبِعُونِى يُحْبِبْكُمُ ٱللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ﴾[٤٠٩] وفي قوله تعالى: ﴿ وَمَآ ءَاتَىٰكُمُ ٱلرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَىٰكُمْ عَنْهُ فَٱنتَهُوا۟ ﴾[٤١٠] إذ لو لم يحذر ﷺ من التحريم على نفسه مما أحله الله له لكان قد أتانا به . .

والمتابعة- في القدوة- قائمة دائمة خالدة مع دوام الرسالة وخلود شرائعها وأحكامها، فلا ينبغي لمن رفع الله شأنه فوق جميع خلقه، وجعله القدوة الحسنة لأمته أن يمنع نفسه مما أحله الله له تطلباً وابتغاء لمرضاة أزواجه، لأن ذلك مما يشق على أمته في مستقبل حياتها .

وختمت هذه الآية الكريمة- موضع البحث- بقوله تعالى: ﴿ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ تلطفاً به ﷺ،وإشعاراً له بعلو مقامه، وأنه لا ينبغي له وقد حباه الله تعالى بفضله، ورفعه مكاناً علياً على سائر خلقه أن يكون في مستوى دون مستوى مقامه الرفيع في ترضية أزواجه .

والغفران والرحمة من باب التبشير له ﷺ بكمال الطهر والنقاء على حد قوله تعالى﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ و لم يقع منه ﷺ ذنب يقتضي الغفران وإنما الذي وقع منه ﷺ تنازل منه عن بعض فضله، ورفعة شأنه ترضية لزوجاته وإحساناً لهن ورحمة بهن .

موئل العتاب من هذه الآية

وبناء على ما تقدم وعلى ترجيح أن الذي حرمه النبي ﷺ على نفسه هو سريته مارية القبطية أم ولده إبراهيم يكون العتاب على ما كان منه ﷺ من تقديمه رضا أزواجه على ما يختص براحته النفسية ومتعته الجسدية

---

[٤٠٩] سورة آل عمران: آية ٣١ .

[٤١٠] سورة الحشر: آية ٧ .

وسروره القلبي بمنعه نفسه مما أحله الله له لابتغاء مرضاة أزواجه . فالقيد " تبتغي مرضاة أزواجك " هو محط العتاب في الحقيقة، فكأنه قيل له: يا أيها النبي لم تمنع نفسك وتحرمها مما أحل الله لك من متعة وراحة وسرور تبتغي بذلك مرضاة أزواجك ؟ .

وليس مجرد منعه ﷺ نفسه من المتعة بالمباح محلاً للعتاب لأنه ﷺ كثيراً ما منع نفسه من بعض المباحات- التي ينعم بها الناس ولا سيما في مجال المتعة الجسدية- زهداً في الدنيا وبعداً عنها، و لم يحظر عليه ذلك، و لم يعاتبه الله تعالى على شيء من ذلك كله .

وفي ذلك تلميح إلى ما في طبائع النساء من قلة رضاهُنّ بما يمنحن من الفضل والعطاء والإحسان .

وفيه- أيضاً- تلميح إلى أن النبي ﷺ في مكانته العليا وفضله العظيم أنه ما كان ينبغي له ﷺ أن يترل- تفضلاً منه وإحساناً إليهن- بمقامه العظيم عند ترضية أزواجه بتحريم ما أحل الله له، ومنعه نفسه الطاهرة من المتعة والسرور لمجرد إرضائهن .

وإن رضاءهن- ولا سيما فيما يختص بأسرار الزوجية ومتعتها- عزيز المنال أن رضين مرة فقد يغضبن مرات .

ومن هنا كان في ذلك درس بالغ لتربية أزواجه الطاهرات على سنن الزوجية، وكان في ذلك- أيضاً- درس للنبي ﷺ في معاملة أزواجه ومعاشرتهن معاشرة تبقى معها القدوة للنساء المؤمنات .

أما قوله تعالى: ﴿ قَدْ فَرَضَ ٱللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَـٰنِكُمْ ﴾ فإن حملناه على ما جاء في الروايات من أن النبي ﷺ حلف لحفصة ألا يصيب مارية فيكون معنى الآية: قد شرع الله لكم الكفارة لتتحللوا من أيمانكم في قوله تعالى- من سورة المائدة- ﴿ لَا يُؤَاخِذُكُمُ ٱللَّهُ بِٱللَّغْوِ فِىٓ أَيْمَـٰنِكُمْ وَلَـٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ ٱلْأَيْمَـٰنَ ۖ فَكَفَّـٰرَتُهُۥٓ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَـٰكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَـٰثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّـٰرَةُ أَيْمَـٰنِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَٱحْفَظُوٓا۟ أَيْمَـٰنَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَـٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾[٤١١] .

.وإن حملناه على غير هذه الروايات فيكون من باب المجاز بجعل عزيمة النبي ﷺ المصممة على عدم إصابة سريته في قوة الحلف على ذلك .

ولا شك أن الوجه الأول أظهر لموافقته لظاهر الآية الكريمة .

وأما قوله ﴿ وَهُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ فهو بيان لإحاطة علم الله تعالى بما كان وما يكون، وأن ذاك جار على مقتضى الحكمة الإلهية التي تضع الأمور في مواضعها .

ثم قال تعالى: ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ ٱلنَّبِىُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَٰجِهِۦ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِۦ وَأَظْهَرَهُ ٱللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُۥ وَأَعْرَضَ عَنۢ بَعْضٍ ۖ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِۦ قَالَتْ مَنْ أَنۢبَأَكَ هَـٰذَا ۖ قَالَ نَبَّأَنِىَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ۖ وَإِن تَظَـٰهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ هُوَ مَوْلَىٰهُ وَجِبْرِيلُ وَصَـٰلِحُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ۝ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَـٰتٍ مُّؤْمِنَـٰتٍ

---

[٤١١] سورة المائدة: آية ٨٩ .

﴿قَٰنِتَٰتٖ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٖ سَٰٓئِحَٰتٖ ثَيِّبَٰتٖ وَأَبۡكَارٗا﴾[٤١٢] فهذا من الامتنان على النبي ﷺ، وتذكيره بنعم الله تعالى عليه لأن قوله ﴿وَإِذۡ أَسَرَّ ٱلنَّبِيُّ﴾ معمول لفعل محذوف تقديره واذكر إذ أسر النبي .

وإبراز النبي ﷺ بالاسم الظاهر بوصف النبوة، وكان مقتضى الظاهر أن يقال: وإذا أسررت إلى بعض أزواجك حديثاً، من باب الحفاوة بالنبي ﷺ، وإظهاره في هذا المقام بأشرف أوصافه وهو النبوة مما يتضمن تعريضاً بمن أفشت سره منهن .

وفي قوله ﴿إِلَىٰ بَعۡضِ أَزۡوَٰجِهِۦ﴾ بصورة الإبهام تلطف بهن بعدم الكشف عن شخصيتهن .

وتنكير " حديثاً " للدلالة على عظمة هذا الحديث وأنه من الأسرار التي ما كان ينبغي أن تفشى، وتذاع ولو لأصدق الصديقات .

وهذا الحديث الذي أسره النبي ﷺ إلى بعض أزواجه هو تحريمه مارية ومنعه نفسه ﷺ من التمتع بها إرضاء للتي غضبت وتألمت مما نالها من جراء تمتع النبي ﷺ بسريته في بيتها .

ويحتمل أن يكون الحديث الذي أسره النبي ﷺ إلى بعض أزواجه – عند من يقول بغير ما رجحنا– هو منعه نفسه ﷺ من شرب العسل كما ورد في بعض الروايات .

ويحتمل أن يكون إخبار النبي ﷺ حفصة أن أباها عمر بن الخطاب سيلي أمر أمته ﷺ بعد أبي بكر رضي الله عنه .

---

[٤١٢] سورة التحريم: آية ٣- ٥ .

وتحتمل الآية العموم الشامل لتحريم السرية والانباء بالخلافة أو لتحريم العسل والانباء بالخلافة .

ولما أفشت من أسر إليها هذا الحديث إلى صديقتها وكان النبي ﷺ قد أخذ عليها أن تكتمه ولا تخبر به أحداً عرفه الله تعالى إفشاءها سره وأظهره عليه، فذهب عن الحديث وصف سريته وعرف النبي ﷺ بعضه وأعرض عن بعض .

والذي عرف به هو تحريم سريته ﷺ أو شربه العسل، والذي أعرض عنه هو الانباء بالخلافة لما يترتب على إذاعته والتحدث فيه من أضرار وفتنة قد تؤثر على أنفس بعض المؤمنين الذين قد يكونون يتطلعون- في صمت- إلى منصب الخلافة بعد رسول الله ﷺ .

فلما نبأ النبي ﷺ صاحبة إذاعة السر وإفشائه بما أفشته من سره دهشت وقالت: " من أنبأك هذا ؟ " ولعلها ظنت أن صاحبتها هي التي أخبرته فقالت له: " من أنبأك هذا ؟ " فقال لها- كما حكى الله تعالى ذلك- « نبأني العليم الخبير » .

ثم توجه الخطاب في قوله تعالى ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ - من باب الحفاوة بالنبي ﷺ، والتأديب لمن أفشت سره بهذا الأسلوب المشعر بالزجر والتهديد- إلى اللتين تظاهرتا عليه ﷺ بالإذاية والغيرة وإفشاء سره بأنهما أن يتوبا إلى الله تعالى مما أزعجا به النبي ﷺ فإن التوبة حق واجب عليكما لأن قلوبكما قد مالت عن الحق كما تدل عليه قراءة ابن مسعود ﷺ " زاغت قلوبكما "[٤١٣] .

---

[٤١٣] روح المعاني [٢٨: ١٥٢] .

وعلى هذا فإن قوله ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ ليس جواب الشرط وإنما هو دليله وتعليله .

والمعنى على هذا: إن تتوبا إلى الله، وترجعا عن مغاضبة رسول الله ﷺ، وإيذائه بالتظاهر عليه وإفشاء سره فالتوبة حق واجب عليكما، لأن قلوبكما قد زاغت ومالت عن الحق في مغاضبة رسول الله ﷺ وإيذائه .

ويمكن أن تحمل الآية على فهم آخر يأتي من حمل قوله تعالى: ﴿ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ على معنى أنها مالت " إلى الحق وهو ما وجب من مجانبة ما يسخط رسوله "[٤١٤] وندمت على ما كان منها من مغاضبة النبي ﷺ وإيذائه .

والمعنى على هذا: إن تتوبا إلى الله وترجعا عن مغاضبة النبي ﷺ، وتندما على ما كان منكما، فقد مالت قلوبكما إلى الحق ومصالحة النبي ﷺ ومراضاته، وأن ما كان منكما من مغاضبة وإيذاء لم يكن صادراً عن قلوبكما وإنما هو فورة غضب ونار غيرة .

ويؤيد هذا قوله ﴿ وَإِن تَظَٰهَرَا عَلَيْهِ ﴾ أي استمررتما على المغاضبة والإيذاء وتعاونتما عليها فإن الله تعالى ناصر رسوله بقوته القاهرة وخواص ملائكته وعامتهم وصالح المؤمنين، وهذا كالمقابل لقوله ﴿ إِن تَتُوبَآ إِلَى ٱللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا ﴾ .

---

[٤١٤] محاسن التأويل [١٦: ٥٨٦٣] .

ثم تلطف الله تعالى بنبيه ﷺ إظهاراً لحفاوته به وإعلاء لمقامه بما زاد في تأديب الزوجات الطاهرات متمشياً مع أسلوب الزجر والتهديد فقال ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُۥٓ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُۥٓ أَزْوَٰجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَٰتٍ مُّؤْمِنَٰتٍ قَٰنِتَٰتٍ تَٰٓئِبَٰتٍ عَٰبِدَٰتٍ سَٰٓئِحَٰتٍ ثَيِّبَٰتٍ وَأَبْكَارًا ﴾ أي جامعات للكمال في إسعاده ﷺ حساً ومعنى فلا يعصين له أمراً، ولا يخالفن له نهياً، يعملن على إسعاده وإدخال السرور عليه بما يفرغ قلبه عن حمل أثقال الزوجية إلى القيام بواجبه الأعظم وهو تبليغ رسالته وتعليم أمته وإعطاؤها الأسوة الحسنة به لتكون كما أرادها الله تعالى خير أمة أخرجت للناس .

***

قصة نزول عبس وتولى

ومن آيات هذا البحث من النوع الثالث من أنواع العتاب صدر سورة عبس وهو قوله تعالى ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ۝ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ۝ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ۝ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ۝ وَمَا عَلَيْكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ۝ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسْعَىٰ ۝ وَهُوَ يَخْشَىٰ ۝ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّىٰ ﴾[٤١٥] .

وقد بدأت هذه الآيات بالإخبار عن حال رسول الله ﷺ إذ جاءه الأعمى- وهو ابن أم مكتوم وأشهر الأقوال في اسمه أنه عبد الله القرشي العامري وهو من سابقي المهاجرين[٤١٦]- يطلب الهداية والعلم منه ﷺ،

---

[٤١٥] سورة عبس: آية ١- ١٠ .

[٤١٦] الإصابة [٣: ٣٢٤، ٥٢٣]، الاستيعاب بهامش الإصابة [٣: ٢٥٩، ٥٠١] .

وهو ينادي-كما في موطأ الإمام مالك رحمه الله- "يا محمد استدنني "[٤١٧] وفي رواية الترمذي " يا رسول الله أرشدني "[٤١٨]وفي بعض الروايات " يا رسول الله علمني مما علمك الله "[٤١٩] .

وكان رسول الله ﷺ مشغولاً يتحدث في شأن رسالته والدعوة إلى الله تعالى مع صناديد قريش وأعيانها الذين ذكر المفسرون منهم الوليد بن المغيرة وأمية بن خلف أو أخاه أبي بن خلف وعتبة وشيبة ابني ربيعة وأبا جهل بن هشام والعباس بن عبد المطلب .

وكان ابن أم مكتوم ينادي رسول الله ﷺ بصوت جهير ويشبه أن يكون أنه لم يعرف اشتغال رسول الله ﷺ مع القوم بدعوتهم إلى الله تعالى .

وقد اتفق جمهور المفسرين على أن فاعل " عبس وتولى " هو رسول الله ﷺ[٤٢٠]، وأجمعوا على أن هذه الآيات الكريمة نزلت في ابن أم مكتوم[٤٢١] .

وأنه لم يصرح بذكر الفاعل للفعلين الماضيين- عبس وتولى- تلطفاً برسول الله ﷺ عن المفاجأة بمواجهته بهذا الخطاب المشعر بالشدة .

---

[٤١٧] الموطأ (ص١٤٣) بتصحيح وترقيم وتخريج وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي كتاب الشعب .

[٤١٨] سنن الترمذي [٥: ٤٣٢] وقد رواه موصولاً عن عائشة رضي الله عنها.

[٤١٩] تفسير الطبري [٣٠: ٥١]، تفسير ابن كثير [٤: ٤٧٠] .

[٤٢٠] روح المعاني: للألوسي[٣٠: ٣٩]، فتح الباري: لابن حجر[٨: ٦٩٢].

[٤٢١] فتح القدير: للشوكاني [٥: ٣٨٢]، تفسير القرطبي [١٩: ٢١١] .

وإبراز ابن أم مكتوم بوصفه المشتق من العمى دون اسمه بيان لعـــذره فيما واجه به الرسول ﷺ من تكرير القول عليه، وسبب في أحقية التلطف به والعطف عليه فهو مما له مدخل في العتاب .

ثم قال تعالى مخاطباً رسوله ﷺ ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ في هذه الآية تذكير له ﷺ بأن ما وقع منه ﷺ من التقطيب والإعراض- بسبب قطع الأعمى لحديثه المستمر مع من يدعوه إلى الله تعالى- ليس من سجيته الكريمة ﷺ،ولا مما يصلح أن يكون منه ﷺ لما ينبغي أن يقابل به الأعمى طالب الهداية من التلطف والرأفة والرحمة به وبكل من جاء يطلب هداية الله تعالى ويسمع آياته، ويتعلم منه ﷺ مما علمه الله تعالى، ولا سيما إذا كان في حال ابن أم مكتوم في عذره بالعمى الذي حجب عنه من كان يتحدث مع رسول الله ﷺ، ولعله لم يسمع الحديث لأن المتعارف في أحاديث هؤلاء الكبراء أن تكون أقرب إلى الهمس منها إلى الجهارة .

وإبراز تزكية الأعمى ابن أم مكتوم- في أسلوب الترجي فيه إشعار بأنه لم يكن إذ ذاك مسلماً، ولا سيما إذا انضم إلى هذا ما ورد في موطأ الإمام مالك-رحمه الله تعالى- من قوله لرسول الله ﷺ" يا محمد استدنني " .

وقد ذهب السهيلي- في الروض الأنف- إلى ترجيح عدم إيمانه حين جاء إلى رسول الله ﷺ وعنده القوم فقال: " .. مع أنه- أي الأعمى- لم يكن آمن بعد، ألا تراه يقول ﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ﴾ الآية، ولو كان قد صح إيمانه وعلم ذلك منه لم يعرض عنه رسول الله ﷺ .. وكذلك لم يكن ليخبر عنه ويسميه بالاسم المشتق من العمى دون الاسم المشتق من الإيمان والإسلام، ولو كان دخل في الإيمان من قبل- والله أعلم- وإنما دخل فيه

بعد نزول الآية، ويدل على ذلك قوله للنبي ﷺ: " استدنني يا محمد " ولم يقل استدنني يا رسول الله، مع أن ظاهر الكلام يدل على أن الهاء في لعله يزكي عائدة على الأعمى لا على الكافر، لأنه لم يتقدم له ذكر بعد، (ولعل) تعطي الترجي والانتظار، ولو كان إيمانه قد تقدم قبل هذا لخرج عن حد الترجي والانتظار للتزكي والله أعلم "[٤٢٢] .

أما قوله تعالى ﴿ أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ ٱلذِّكْرَىٰٓ ﴾ فهو معطوف على قوله " يزكى " الواقع خبراً لحرف الرجاء " لعل " فهو من مدخول الرجاء معه على معنى: أن قوله " لعله يزكى " يدل على أنه يراد منه التطهر بالإيمان وهذا قول ابن زيد حيث فسر " يزكى " بـ " يسلم "[٤٢٣] –كما نقله الطبري عنه– الذي يدل على أنه– حسب تفسيره– لم يكن قد أسلم بعد.

ولعل هذا القول هو مستقى كلام السهيلي في اختياره عدم إيمانه حين مجيئه .

وقوله " أو يذكر " أي بعد إيمانه يتذكر ما علم من دلائل الإيمان وبراهينه ما عسى أن يكون قد غاب عنه أو نسيه .

أما قوله تعالى ﴿ أَمَّا مَنِ ٱسْتَغْنَىٰ ۝ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ فهذا من قبيل البدء في المقابل بعد الانتهاء من طرف الحديث الأول .

---

[٤٢٢] الروض الأنف في شرح السيرة النبوية: للسهيلي [٣: ٣٢٩-٣٣٠] تحقيق عبد الرحمن الوكيل رحمه الله، ط/ دار النصر للطباعة .

[٤٢٣] تفسير الطبري [٣٠: ٥٢] .

ويراد بالمستغنى إما شخص، أو أشخاص على حسب ما جاء في روايات أسباب النزول، ففي بعضها أنه الوليد بن المغيرة، وفي بعضها أنه أمية بن خلف، وفي بعضها أنه عظيم من عظماء المشركين و لم يسمه، وفي بعضها ناس من وجهاء المشركين منهم أبو جهل وعتبة .

والتعبير بقوله " استغنى " فيه دلالة على الجحود استكباراً وعناداً وتعالياً بما في الأيدي من نشب الدنيا .

ثم قال تعالى ﴿ فَأَنتَ لَهُۥ تَصَدَّىٰ ﴾ أي أن هذا المستكبر المستغنى المعاند الذي عرف الحق فلم يقبل عليه و لم يقبله،وقد عرفت ذلك من سابق حاله معك فأنت تتصدى له وتتعرض لدعوته، وتحرص على إسلامه وهو- في مقابل إعراضه واستغنائه- أحق بالإعراض والتولى ممن جاءك يسعى لطلب الهداية والإيمان .

ثم قال تعالى في حق هذا المستغنى عن الإيمان والهداية مع الإقرار بحقيتهما: ﴿ وَمَا عَلَيۡكَ أَلَّا يَزَّكَّىٰ ﴾ بياناً لرسول الله ﷺ أن التزكى والتطهر بقبول الإيمان والهداية لا يتوقف على الأشخاص ومكانتهم في هذه الحياة الدنيا من الثراء والتفاخر بكثرة الأولاد والأموال والإعتزاز بالقبلية وكثرة الاتباع والأعوان .

ثم قال تعالى ﴿ وَأَمَّا مَن جَآءَكَ يَسۡعَىٰ ﴾ أي لطلب الإيمان والهداية أو لطلب الإزدياد في العلم بما أنزل الله من أحكام الشريعة، وهو " يخشى " أي يخاف من الله تعالى، ومن عذابه ﴿ فَأَنتَ عَنۡهُ تَلَهَّىٰ ﴾ أي بالحديث مع المستغني المستكبر المعاند حرضاً على دخوله الإسلام طمعاً في أن يسلم

بإسلامه اتباعه، مع أن الإقبال على الذي جاء يسعى وهو يخشى أحق وأولى لمجيئه راغباً، ولا سيما أن الله تعالى ذكره بوصف جعله عذراً له في مناداته لرسول الله ﷺ، وطلبه الهداية وفي أحقيته بالترفق به والإحسان إليه بحسن الإستقبال .

هذا هو رأي جمهور المفسرين من السلف والخلف في فهم هذه الآيات الكريمة .

وقد حكى الحافظ ابن حجر- في الفتح- عن الداودي شارح البخاري أن فاعل (عبس) " هو الكافر "[٤٢٤] الذي كان يحدث رسول الله ﷺ . و لم يرتض الحافظ هذا القول فوصفه بالغرابة لعدم اختلاف السلف- كما قال- " في أن فاعل عبس هو النبي ﷺ "[٤٢٥] .

وقد نقل القاضي عياض هذا القول-في الشفاء[٤٢٦]-عن أبي تمام[٤٢٧].

وقد رده شارحا الشفاء الشهاب الخفاجي وعلي القاري في شرحيهما فقال الشهاب- في رده-: " وهو قول- أي القول بأن فاعل عبس هو الكافر- في غاية الضعف بعيد عن السياق، والذي عليه المفسرون أنه النبي ﷺ "[٤٢٨] .

---

[٤٢٤] الفتح [٨: ٦٩٢] .

[٤٢٥] نفس المرجع السابق .

[٤٢٦] الشفاء [٢: ١٤٢] .

[٤٢٧] لعله يقصد حبيب بن أوس الطائي الشاعر المعروف(١١٨-٢٣١هـ) صاحب ديوان الحماسة .

[٤٢٨] نسيم الرياض في شرح شفاء القاضي عياض [٤: ١٨٧] .

وقال علي القاري في رده هذا القول: " وهذا التأويل مخالف لظاهر التنزيل بل كاد في مقام النزاع أن يكون مخالفاً للإجماع "[٤٢٩] .

وظاهر الآيات يرد قول الداودي، لأن سياقها ظاهره الاخبار عن حال رسول الله ﷺ، وهو يحدّث بعض عظماء المشركين حين جاءه الأعمى يطلب الهداية والتعليم، ويؤيد هذا أن ضمير الخطاب في قوله تعالى ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُۥ يَزَّكَّىٰٓ ﴾ متعين لأن يكون لرسول الله ﷺ .

وليس أبو تمام الشاعر ممن يعرف بين علماء التفسير أو الحديث بشيء وإنما هو رجل شاعر حكيم في شعره، ولا ندري من أين استقى هذا الرأي، ولا يدخل في دائرة المعقول أن يكون الداودي شارح صحيح البخاري قد أخذ هذا القول عنه[٤٣٠] .

---

[٤٢٩] شرح الشفاء: لعلي القاري بهامش نسيم الرياض [٤: ١٨٧] .

[٤٣٠] ظهر لنا فيما بعد أن الظاهر من عمل القاضي عياض رحمه الله في تأليفه أنه يذكر علي بن محمد البصري أحد أصحاب الأبهري بكنيته وهي " أبو تمام " ويصفه بأنه من المحققين، ومن كبراء المالكية البغداديين ويؤيد هذا ما قاله في كتابه " ترتيب المدارك " في النوع الثاني من الضرب الأول من بيان الحجة بإجماع أهل المدينة حيث قال في صفحة ٥٠ من الجزء الأول من الطبعة المغربية: " فهذا النوع اختلف فيه أصحابنا فذهب معظمهم إلى أنه ليس بحجة ولا فيه ترجيح وهو قول كبراء البغداديين منهم: ابن بكير وأبو يعقوب الرازي وأبو الحسن بن المنتاب وأبو العباس الطيالسي والفرج القاضي وأبو بكر الأبهري وأبوتمام ... " .

ثم بيّن الله تعالى أن الهداية والإيمان ليست مرتبطة بالأشخاص وحالاتهم من فقر وضر أو ثراء ومكانة في الحياة الدنيا فقال تعالى: ﴿كَلَّآ إِنَّهَا تَذْكِرَةٌ ۝ فَمَن شَآءَ ذَكَرَهُۥ﴾[٤٣١] وإنما هي تذكرة ينتفع بها من في قلوبهم استعداد لقبول الهداية، ولو كانوا من أهل الفقر والضر .

وهذا درس تربوي وتوجيه إلهي ختم الله تعالى به الآيات ليبين لرسوله ﷺ أنه في رسالته الخاتمة للرسالات الإلهية لا ينبغي له أن يلتفت إلى الأشخاص، ومكانتهم في الحياة الدنيا وتكثير عدد المسلمين بكثرتهم، لأنه في هدايته قدوة عامة خالدة يتأسى بها كل من تشرف بإتباعها .

ولا شك أن أهل الفقر والضر في الناس أكثر عدداً من أهل الثراء والمعافاة .

وأهل الضر والفقر هم أحوج إلى المواساة والترفق بهم لإدخالهم في حظيرة الإيمان ليكون الإيمان عدتهم على تحمل شدائد الحياة والصبر على نوائبها لما في الإيمان من رضى بالله تعالى وقضائه والتسليم بشرائعه وأحكامه .

= وأبو تمام هذا هو علي بن محمد البصري الذي ذكر ترجمته في الجزء الرابع من كتابه " ترتيب المدارك " ص٦٠٥ تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود طبع بيروت عام ١٣٨٧هـ .

وهذا – في رأيي- أرجح كما ذكرت مما ذهب إليه الشهاب الخفاجي في نسيم الرياض (٤: ١٩٤) من أن القاضي عياض يقصد بأبي تمام محمد الأبهري من علماء المالكية من أهل طليطة- والله أعلم .

[٤٣١] سورة عبس: ١١، ١٢ .

وفي هذه الآية ما يشعر بأن اجتهاد رسول الله ﷺ في حديثه مع الكافر ليستميله إلى الإيمان رجاء أن يؤمن بإيمانه عدد ممن يتبعه كان غير متمش مع طبيعة الهداية الإلهية- التي عليه ﷺ أن يعرضها على الناس دون أن يبخع نفسه حرصاً على إيمانهم- فجاءت الآية الكريمة تصحح هذا الإجتهاد، وتبين الطريق للدعاة إلى الله تعالى الذين يرثون دعوة رسول الله ﷺ وتبليغ رسالته ونهجه في إيصالها إلى جميع الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

*****

الخـــاتـــمــــــــة

نحمد الله تعالى على فضله أن وفقنا لإتمام ما أردنا إظهاره فيما عرضنا من الآيات التي نصبت هذه الرسالة لدراستها، وتوجيه الأنظار إلى وجــه الهدى فيها حفظاً لإيمان المؤمنين، وإنارة لسبيل الحق أمـــام المنــصفين . وبعد ...

فقد ظهر لنا من دراستنا– في الباب الأول– لعصمة الأنبياء علـــيهم الصلاة والسلام أن جمهور العلماء على القول بعصمة الأنبياء قبل النبـــوة، وبعدها من الكفر إجماعاً، وأنهم كذلك معصومون مأمونون فيما يبلغونـــه عن الله تعالى .

وأنهم معصومون من جميع كبائر الذنوب بعد النبوة إجماعاً، وما يخل بالمروءة من صغائرها ترجيحاً .

ثم عرضنا– في الباب الثاني– لبحث الإجتهاد، وبينا الأدلة الدالة على الإذن لرسول الله ﷺ في الاجتهاد فيما لم يترل عليه به وحي . وذكرنا من الحوادث التطبيقية ما يؤكد هذه النصوص .

وبينا– في الباب الثالث– معنى العتاب، واستطردنا منه إلى بيان معنى الذنب، ووجه إسناده في بعض الآيات إلى ضمير خطاب رسول الله ﷺ، ثم قسمنا العتاب– بحسب ما ظهر لنا من فهم الآيات– إلى ثلاثة أنـــواع هي: عتاب التوجيه، وعتاب التنبيه، وعتاب التحذير .

وذكرنا ما في كل من الآيات الكريمة، وبينا وجه دخول كل آية منها في نوعها .

وقد وجدنا أن العتاب فيما قيل إنه عوتب عليه رسول الله ﷺ، إنما كان على ما حكم فيه رسول الله ﷺ بالاجتهاد والاجتهاد محتمل الخطأ.

فما جاء من العتاب إنما هو من قبيل تصحيح الخطأ في الاجتهاد فوجهه الله تعالى إلى الأخذ بالأصوب فعاد الحكم بذلك إلى الوحي .

كما ظهر لنا من البحث أن بعضاً من الآيات التي قيل إن فيها عتاباً لرسول الله ﷺ تحتمل العتاب وغيره كما قد أوضحنا ذلك في مكانه من دراستنا للآيات الكريمة .

ومما يشرح الصدر، ويبهج النفس أن المتتبع لآيات عتابه ﷺ، يرى بوضوح وجلاء أن كل موضع من ذلك يعقب بنوع من الترفق برسول الله ﷺ في الخطاب طمأنة لقلبه الطاهر، تنادي بأن ما صدر منه من خطأ في الاجتهاد ووجه إلى الأخذ بالأصوب منه فيما يستقبل من حوادث، لم يؤثر على شيء مما ناله من شرف القرب والرضا عليه من الله تعالى، مما يمكن أن يقال فيه: إنه مسح بيد الرحمة على القلب الطاهر الرحيم الذي جعله الله هدى للعالمين .

وتظهر فائدة هذا البحث في بيان المراد من الخطاب بهذه الآيات لرسول الله ﷺ، وجلاء معناها في سياقها رداً لبعض الشبه التي يتعلق بها أعداء الإسلام ومقلدوهم من المسلمين .

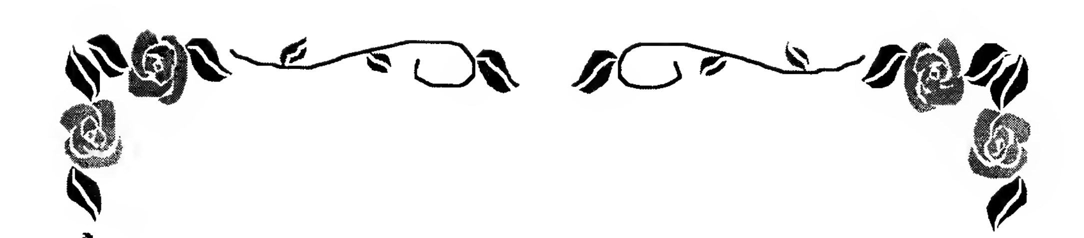
كما تظهر فائدته- أيضاً- في تثبيت إيمان المؤمنين بمعرفتهم الصحيحة لمعاني هذه الآيات، وإظهار مكانة النبي ﷺ وحفاوة الله تعالى به في تربيته ومخاطباته فيما يعلمه الله إياه ليكون قدوة لأمته .

وأما فائدة هذا البحث الاجتماعية، فتظهر في توطيد إيمان المـؤمنين وتقوية محبتهم لرسول الله ﷺ، ومعرفتهم بمكانته العليا، وتفتح باباً للدراسة في مثل هذه الموضوعات ليزداد يقين الموقنين وتـزول شـبه الملحـدين والمشككين في هذا الدين القيم .

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم الأنبياء والمرسـلين، وعلـى آلـه وصحبه، ومن سار على هداه إلى يوم الدين .

وكان الفراغ من كتابة هذه الرسالة المباركة وتأليفها مساء يوم الجمعة لثلاث خلون من شهر جمادى الثاني من سنة ألف وثلاثمائة وسبع وتسعين من هجره سيدنا محمد بن عبد الله عليه وعلى آله وصحبه أفضل الـصلاة والسلام، وذلك بمكة المكرمة، واسأله تعالى أن يغفر لنا ولوالدينا ومشايخنا وجميع المسلمين، والحمدلله رب العالمين .

*****



الفهارس العامة




فهرس الآيات القرآنية

فهرس الأحاديث والآثار

فهرس الأعلام

قائمــة المــراجــع

١ - اتحاف المريد شرح جوهرة التوحيد بهامش حاشية محمد الأمير على جوهرة التوحيد .

مطبعة البابي الحلبي بمصر عام ١٣٦٨هـ .

٢ - أحكام القرآن .

أبو بكر أحمد بن علي الرازي الجصاص .

طبعة مصورة عن الطبعة الأولى المطبوعة بمطبعة الأوقاف الإسلامية عام ١٣٣٥هـ .

دار الكتاب العربي .

٣ - أحكام القرآن .

أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربي .

تحقيق علي بن محمد البجاوي .

مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه- الطبعة الثانية .

٤ - الأحكام في أصول الأحكام .

سيف الدين أبو الحسين علي بن أبي علي الآمدي .

دار الاتحاد العربي للطباعة .

٥ - الأحكام في أصول الأحكام .

تعليق عبد الرزاق عفيفي- الطبعة الأولى عام ١٣٨٧هـ .

المطبعة المصرية- الطبعة الأولى عام ١٣٤٧هـ .

٦ - **اجتهاد الرسول ﷺ .**

عبد الجليل عيسى أبو النصر .

دار البيان- الكويت- عام ١٣٨٩هـ .

٧ - **الإرشاد إلى قواطع الأدلة في أصول الاعتقاد .**

إمام الحرمين الجويني .

تحقيق وتعليق وتقديم د/ محمد يوسف موسى وعلي عبد المنعم عبد الحميد .

مطبعة السعادة بمصر عام ١٣٦٩هـ .

٨ - **إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم .**

أبو السعود محمد بن محمد العمادي .

المطبعة المصرية- الطبعة الأولى عام ١٣٤٧هـ .

٩ - **إرشاد الفحول إلى تحقيق الحق من علم الأصول .**

محمد بن علي بن محمد الشوكاني .

مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر عام ١٣٥٦هـ .

١٠ - **أسرار التكرار في القرآن .**

تاج القراء محمود بن حمزة بن نصر الكرماني .

تحقيق عبد القادر أحمد عطا .

دار الاعتصام- الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ .

١١ - **إصلاح المنطق .**

ابن السكيت .

شرح وتحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هارون .

دار المعارف بمصر- سلسلة ذخائر العرب- الطبعة الثانية ١٩٧٠هـ .

١٢ - إعراب ما من به الرحمن من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن .

أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري .

تصحيح وتحقيق إبراهيم عطوة عوض .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ .

١٣ - إعلام النبوة .

أبو الحسن علي بن محمد الماوردي .

دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ .

١٤ - إعلام الموقعين عن رب العالمين .

محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية .

تحقيق عبد الرحمن الوكيل- مطبعة المدني بمصر عام ١٣٨٩هـ .

١٥ - الأعلام .

خير الدين الزركاني .

الطبعة الثالثة .

١٦ - الإكتفاء في مغازي رسول الله ﷺ والثلاثة الخلفاء .

أبو الربيع سليمان بن موسى الكلاعي .

تحقيق مصطفى عبد الواحد- مطبعة السنة المحمدية عام ١٣٨٧هـ .

١٧ - إكمال إكمال المعلم شرح صحيح مسلم .

محمد بن خلفة بن عمر الأبي .

مطبعة السعادة بمصر عام ١٣٢٧هـ .

١٨ – الانتصار والرد على ابن الراوندي .

عبد الرحيم بن محمد الخياط .

تحقيق د/ نيبرج .

دار الكتب المصرية عام ١٣٤٤هـ .

١٩ – الإنصاف فيما تضمنه الكشاف من الاعتزال .

ناصر الدين أحمد بن محمد بن المنير .

بهامش الكشاف عن حقائق التتريل للزمخشري .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي– الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ .

٢٠ – البداية والنهاية .

أبو الفداء الحافظ ابن كثير .

مكتبة المعارف– بيروت–، ومكتبة النصر– الرياض– الطبعة الأولى ١٩٦٦م .

٢١ – بدائع الفوائد .

أبو عبد الله محمد بن أبي بكر ابن قيم الجوزية .

دار الكاتب العربي– بيروت– لبنان .

٢٢ – الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث لابن كثير .

تأليف أحمد محمد شاكر .

مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح– الطبعة الثالثة .

٢٣ – تفسير القرآن الكريم المسمى أنوار التتريل وأسرار التأويل .

ناصر الدين عبد الله بن عمر بن محمد البيضاوي .

صححه محمد سالم محبش، وشعبان محمد إسماعيل .

مكتبة الجمهورية العربية .

٢٤ – تأويلات أهل السنة .

أبو منصور محمد بن محمد الماتريدي .

تحقيق وتعليق د/ إبراهيم عوضين والسيد عوضين– الجزء الأول

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة عام ١٣٩١هـ .

٢٥ – التحرير في أصول الفقة .

كمال الدين محمد بن عبد الواحد الشهير بابن الهمام .

مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر عام ١٣٥١هـ .

٢٦ – تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي .

أبو العلي محمد بن عبد الرحمن المباركفوري .

راجع أصوله وصححه عبد الرحمن محمد عثمان .

مطبعة الفجالة الجديدة– الطبعة الثانية ١٣٨٤هـ .

٢٧ – تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي .

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي .

حققه وراجع أصوله عبد الوهاب عبد اللطيف .

المكتبة العلمية بالمدينة المنورة– الطبعة الأولى ١٣٧٩هـ .

٢٨ – تفسير القرآن العظيم .

الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن كثير القرشي الدمشقي .

مطبعة مصطفى محمد بمصر عام ١٣٥٦هـ .

٢٩ – التقييد والإيضاح شرح مقدمة ابن الصلاح .

الحافظ زين الدين عبد الرحيم العراقي .

المكتبة السلفية بالمدينة المنورة– الطبعة الأولى ١٣٨٩هـ .

٣٠ - تيسير التحرير .

محمد أمير باد شاه .

مطبعة الحلبي بمصر عام ١٣٥١هـ .

٣١ - التفسير الكبير .

الإمام الفخرالرازي .

مؤسسة المطبوعات الإسلامية بمصر .

٣٢ - تفسير القرآن الكريم الشهير بتفسير المنار .

محمد رشيد رضا .

دار المعرفة- بيروت- لبنان- الطبعة الثانية .

٣٣ - تهذيب التهذيب .

الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .

طبعة دائرة المعارف في الهند- الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ .

٣٤ - تهذيب اللغة .

أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري .

تحقيق وتقديم عبد السلام محمد هارون وراجعه محمد علي النجا .

الدار المصرية للتأليف والترجمة عام ١٣٨٤هـ .

٣٥ - الجامع لأحكام القرآن .

محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي .

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر- القاهرة عام ١٣٨٧هـ .

٣٦ - جامع بيان العلم وفضله .

أبو عمر يوسف بن عبد البر القرطبي .

المكتبة السلفية بالمدينة المنورة- الطبعة الثانية ١٣٨٨هـ .

٣٧ - جامع البيان عن تأويل آي القرآن .

أبو جعفر محمد بن جرير الطبري .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر ١٣٧٣هـ - الطبعة الثانية .

٣٨ - جمع الجوامع (ضمن مجموع مهمات المتون) .

تاج الدين السبكي (عبد الوهاب بن أبي الحسن) .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي - الطبعة الرابعة ١٣٦٩هـ .

٣٩ - جوامع السيرة (وخمس رسائل أخرى) .

أبو محمد علي بن أحمد بن حزم .

تحقيق د/ إحسان عباس، و د/ ناصر الدين الأسد، مراجعة أحمد محمد شاكر .

دار المعارف بمصر .

٤٠ - جامع العلوم والحكم الملقب بدستور العلماء .

القاضي عبد النبي بن عبد الرسول الأحمد ذكرى .

تصحيح محمد بن غياث الدين .

مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد ركن - الهند ١٣٢٩هـ .

٤١ - حاشية سعد الدين التفتازاني .

وحاشية السيد الشريف الجرجاني على شرح القاضي عضد الملة والدين لمختصر المنتهى الأصولي لابن الحاجب مع حاشية الشيخ حسن الهروي .

المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق عام ١٣١٦هـ .

٤٢ - حاشية السيلكوتي على حاشية الخيالي على شرح العقائد .

عبد الحكيم بن شمس الدين السيلكوتي .

دار المطبعة العامرة بالآستانة عام ١٢٧٥هـ .

٤٣ – حاشية القونوي على تفسير البيضاوي .

المطبعة العامرة عام ١٢٨٥هـ .

٤٤ – الخصائص الكبرى .

جلال الدين السيوطي .

تحقيق د/ محمد خليل هراس .

٤٥ – خلق أفعال العباد والرد على الجهمية وأصحاب التعطيل .

أبو عبد الله بن إسماعيل البخاري .

طبعة مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة بمكة المكرمة عام ١٣٨٩هـ .

٤٦ – الدر المنثور .

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي .

الناشر محمد أمين دمج- بيروت .

٤٧ – الدرر في اختصار المغازي والسير .

الحافظ يوسف بن عبد البر النمري .

تحقيق د/ شوقي ضيف .

المجلس الأعلى للشئون الإسلامية- لجنة إحياء التراث الإسلامي- القاهرة عام ١٣٨٦هـ .

٤٨ – دلائل النبوة .

الحافظ أبو نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني .

دائرة المعارف بالهند- عام ١٣٦٩هـ- الطبعة الثانية .

٤٩ - دلائل النبوة .

البيهقي .

تقديم وتحقيق عبد الرحمن محمد عثمان .

المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

٥٠ - ديوان النابغة الذبياني .

ابن السكيت .

تحقيق شكري فيصل .

دار الفكر- بيروت- عام ١٣٨٨هـ .

٥١ - روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني .

أبو الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي .

إدارة الطباعة المنيرة- دار إحياء التراث العربي- بيروت- لبنان .

٥٢ - زاد المسير في علم التفسير .

أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن الجوزي .

المكتب الإسلامي للطباعة والنشر-دمشق وبيروت- الطبعة الأولى ١٣٨٤هـ

٥٣ - زاد المعاد في هدى خير العباد .

الحافظ أبو عبد الله ابن قيم الجوزية .

مطبعة محمد على صبيح بمصر .

٥٤ - الزواجر عن اقتراف الكبائر .

أبو العباس أحمد بن محمد بن علي ابن حجر المكي الهيثمي .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي .

٥٥ – سنن أبي داود .

سليمان بن الأشعث السجستاني .

دار إحياء السنة النبوية .

٥٦ – سنن الترمذي .

الجزءان الأول والثاني – تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر .

الجزء الثالث– تحقيق وتخريج وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي .

الجزءان الرابع والخامس– تحقيق وتعليق إبراهيم عطوة عوض .

مطبعة مصطفى البابي الحلبي .

٥٧ – سنن الدارمي .

أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن الدارمي .

دار إحياء السنة المحمدية .

٥٨ – سنن المصطفى ﷺ .

أبو عبد الله محمد بن يزيد ابن ماجة القزويني .

وبحاشيتها حاشية السندي .

المطبعة التازية– الطبعة الأولى .

٥٩ – سيرة النبي ﷺ .

أبو محمد عبد الملك بن هشام .

راجع أصولها وضبط غريبها وعلق حواشيها ووضع فهارسها محمد محيى الدين عبد الحميد .

مطبعة حجازي بالقاهرة .

٦٠ – الشفاء بتعريف حقوق المصطفى ﷺ .

القاضي عياض بن موسى اليحصبي .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي عام ١٣٦٩هـ .

٦١ – شرح تنقيح الفصول في اختصار المحصول في الأصول .

شهاب الدين أحمد بن إدريس القرافي .

حققه طه عبد الرؤوف سعد .

مكتبة الكليات الأزهرية- دار الفكر- الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ .

٦٢ – شرح الخريدة البهية .

أبو البركات سيدي أحمد الدردير .

مع حاشية العلامة الصاوي على شرح الخربدة .

مطبعة الاستقامة .

٦٣ – شرح الشفاء .

علي القاري .

بهامش نسيم الرياض .

المكتبة السلفية بالمدينة المنورة .

٦٤ – شرح صحيح مسلم .

أبو زكريا يحيى بن شرف النووي .

المطبعة المصرية ومكتبتها .

٦٥ – شرح الفقه الأكبر .

ملا علي القاري .

مطبعة دار الكتب العربية الكبرى بمصر عام ١٣٢٧هـ .

٦٦ - **شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات .**

أبو بكر محمد بن القاسم الأنباري .

تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون .

دار المعارف بمصر - الطبعة الثانية - ١٩٦٩م .

٦٧ - **شرح المقاصد .**

سعد الدين مسعود بن عمر التفتازاني .

دار الطباعة العامرة بدار الخلافة عام ١٢٧٧هـ

٦٨ - **شرح المواقف .**

السيد الشريف علي بن محمد الجرجاني .

مطبعة السعادة بمصر عام ١٣٢٥هـ .

٦٩ - **شرح المواهب اللدنية .**

محمد بن عبد الباقي الزرقاني .

دار المعرفة للطباعة والنشر - بيروت - لبنان .

٧٠ - **شرح المنار وحواشيه من علم الأصول .**

عز الدين عبد اللطيف بن عبد العزيز .

ومعه عدة حواشي ومنها حاشية يحيى الرهاوي .

المطبعة العثمانية عام ١٣١٥هـ .

٧١ - **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية .**

إسماعيل بن حماد الجوري .

تحقيق أحمد عبد الغفور عطار .

دار الكتاب العربي بمصر .

٧٢ - **صحيح البخاري .**

أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم البخاري .

دار ومطابع الشعب بمصر .

٧٣ - **صحيح مسلم .**

أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري النيسابوري .

تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

دار إحياء الكتب العربية بمصر - الطبعة الأولى - ١٣٧٤هـ .

٧٤ - **طبقات الحنابلة - الجزء الثاني .**

القاضي محمد بن أبي يعلى .

مطبعة السنة المحمدية .

٧٥ - **الطبقات الكبرى .**

محمد بن سعد بن منيع .

دار الشعب .

٧٦ - **عصمة الأنبياء .**

محمد بن عمر بن الحسن فخر الدين الرازي .

صححه وعلق عليه إدارة الطباعة المنيرية .

٧٧ - **عيون الأثر في فنون المغازي والشمائل والسير .**

ابن سيد الناس .

دار المعرفة - بيروت - لبنان .

٧٨ – غرائب القرآن ورغائب الفرقان .

نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري .

بهامش جامع البيان لابن جرير الطبري .

المطبعة الكبرى الأميرية- الطبعة الأولى- ١٣٢٧هـ .

٧٩ – فتح الباري بشرح صحيح البخاري .

الحافظ أحمد بن علي بن حجر العسقلاني .

رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه واستقصى أطرافه محمد فؤاد عبد الباقي .

قام بإخراجه محب الدين الخطيب .

المطبعة السلفية بالقاهرة عام ١٣٨٠هـ .

٨٠ – الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني .

مع مختصر شرح بلوغ الأماني .

أحمد عبد الرحمن البنا الشهير بالساعاتي .

الطبعة الأولى .

٨١ – الفرق بين الفرق .

عبد القاهر بن طاهر البغدادي .

تحقيق زاهد الكوثري

مكتبة نشر الثقافة الإسلامية عام ١٣٦٧هـ .

٨٢ – الفصل في الملل والأهواء والنحل .

أبو محمد علي بن أحمد بن حزم الظاهري .

دار المعرفة للطباعة والنشر- بيروت- لبنان- الطبعة الثانية ١٣٩٥هـ .

٨٣ - فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير .

محمد بن علي بن محمد الشوكاني .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى الحلبي- الطبعة الثانية ١٣٨٣هـ .

٨٤ - الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي .

سيدي محمد بن الحسن الحجوي الثعالبي .

طبع إدارة المعارف بالرباط، ومطبعة بلدية فاس عام ١٣٤٥هـ .

٨٥ - الفقيه والمتفقه .

أبو بكر أحمد بن علي الخطيب البغدادي .

تصحيح وتعليق الشيخ إسماعيل الأنصاري .

دار إحياء السنة النبوية عام ١٣٩٥هـ .

٨٦ - فواتح الرحموت بشرح مسلم الثبوت .

عبد العلى محمد بن نظام الدين الأنصاري .

بهامش المستصفى للغزالي .

المطبعة الأميرية- بولاق عام ١٣٢٢هـ .

٨٧ - كتاب العين .

الخليل بن أحمد الفراهيدي .

تحقيق د/ عبد الله درويش .

مطبعة العاني- بغداد عام ١٣٨٦هـ- الجزء الأول .

٨٨ - كشف الأسرار عن أصول فخر الدين البزدوي .

علاء الدين عبد العزيز بن أحمد البخاري .

دار الكتاب العربي- بيروت- لبنان عام ١٣٩٤هـ .

٨٩ - الكليات .

أبو البقاء الحسيني الكفوي .

المطبعة العامرة عام ١٢٨٧هـ .

٩٠ - الكشاف عن حقائق التتريل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل .

جار الله محمود بن عمر الزمخشري .

شركة ومكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي- الطبعة الأخيرة ١٣٨٥هـ .

٩١ - كتر العمال في سنن الأقوال والأفعال .

ضبطه وفسر غريبه الشيخ بكري حياني .

صححه ووضع فهارسه ومفتاحه الشيخ صفوة السقا .

مكتبة التراث الإسلامي- مطبعة الثقافة- حلب- الطبعة الأولى ١٣٩٤هـ .

٩٢ - لباب النقول في أسباب الترول .

جلال الدين عبد الرحمن السيوطي .

مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر- الطبعة الثانية ١٣٧٣هـ .

٩٣ - لسان العرب .

أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري .

دار صادر- بيروت- لبنان .

٩٤ - اللمع في أصول الفقه .

الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن يوسف الشيرازي المتوفى عام ٤٧٦هـ.

تصحيح السيد محمد بدر الدين النعساني الحلبي .

مطبعة السعادة بمصر- الطبعة الأولى ١٣٢٦هـ .

٩٥ - **لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية**

محمد بن أحمد السفاريني الأثري .

مطابع الأصفهاني وشركاه بجده عام ١٣٨٠هـ .

٩٦ - **مجمع البيان في تفسير القرآن .**

أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي .

دار مكتبة الحياة- بيروت عام ١٣٨٠هـ .

٩٧ - **محاسن التأويل .**

محمد جمال الدين القاسمي .

تحقيق وتخريج وتعليق محمد فؤاد عبد الباقي .

دار إحياء الكتب العربية عام ١٣٧٦هـ .

٩٨ - **المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز .**

القاضي أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عطية الأندلسي .

تحقيق المجلس العلمي بفاس عام ١٣٩٥هـ .

٩٩ - **مختصر التحرير في أصول فقه السادة الحنابلة .**

محمد بن أحمد الفتوحي المعروف بابن النجار .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر عام ١٣٦٧هـ .

١٠٠ - **مختصر لوامع الأنوار البهية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية .**

حسن الشطي الحنبلي .

مطبعة الترقي بدمشق عام ١٣٥٠هـ .

١٠١ – المدخل إلى مذهب الإمام أحمد بن حنبل .

عبد القادر بن أحمد (ابن بدران) .

إدارة الطباعة المنيرية .

١٠٢ – المستدرك على الصحيحين .

الحافظ أبو عبد الله الحاكم النيسابوري . وبذيله التخليص للذهبي .

مكتبة ومطبعة النصر الحديثة– الرياض .

١٠٣ – السامرة بشرح المسايرة .

كمال الدين محمد بن محمد المعروف بابن شريف .

وعليه نتائج المذاكرة بتحقيق مباحث المسايرة .

محمد محيى الدين عبد الحميد .

مطبعة السعادة بمصر .

١٠٤ – المستصفى من علم الأصول .

حجة الاسلام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي .

المطبعة الأميرية– بولاق – الطبعة الأولى ١٣٢٢هـ .

١٠٥ – مسند الإمام أحمد .

شرحه وصنع فهارسه أحمد محمد شاكر .

دار المعارف بمصر عام ١٣٦٩هـ .

١٠٦ – مسند الإمام أحمد .

المكتب الإسلامي– دار صادر– بيروت .

١٠٧ – مسند البزار .

الجزء الأولى– مصور بمكتبة الدكتور أحمد محمد نور سيف .

١٠٨ – المسودة في أصول الفقه .

آل تيميه .

تحقيق وتعليق محمد محيى الدين عبد الحميد .

مطبعة المدني– القاهرة .

١٠٩ – المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي .

أحمد بن محمد المقرى الفيومي .

ضححه مصطفى السقا .

مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر عام ١٣٦٩هـ .

١١٠ – المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية .

الحافظ أحمد بن علي بن حجر .

تحقيق حبيب الرحمن الأعظمي .

المطبعة العصرية بالكويت– الطبعة الأولى ١٣٩٣هـ .

١١١ – معالم السنن .

أبو سليمان الخطابي .

بحاشية مختصر سنن أبي داود للمنذري وتهذيب الإمام ابن قيم الجوزية .

تحقيق أحمد محمد شاكر، ومحمد حامد الفقي .

مطبعة أنصار السنة المحمدية عام ١٣٦٦هـ .

١١٢ – معاني القرآن وإعرابه .

الزجاج .

شرح وتحقيق د/ عبد الجليل عبده شلبي .

المكتبة العصرية– بيروت– صيدا .

١١٣ - معجم مقاييس اللغة .

أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا .

تحقيق وضبط عبد السلام محمد هارون .

شركة مكتبة ومطبعة البابي الحلبي بمصر - الطبعة الثانية ١٣٨٩هـ .

١١٤ - المعتمد في أصول الفقه .

أبو الحسين محمد بن علي بن الطيب البصري .

اعتنى بتهذيبه وتحقيقه محمد حميد الله بتعاون أحمد بكير وحسن حنفي .

دمشق عام ١٣٨٤هـ ز

١١٥ - المعلقات العشر وأخبار شعرائها .

الشيخ أحمد بن الأمين الشنقيطي .

مطبعة الاستقامة عام ١٣٥٣هـ .

١١٦ - المغنى أبواب التوحيد والعدل - الجزء (١٥) .

القاضي أبو الحسين عبد الجبار .

تحقيق د/ محمود الخضيري، د/ محمود محمد سالم .

مطبعة عيسى البابي الحلبي عام ١٣٨٥هـ .

١١٧ - مغني اللبيب عن كتب الأعاريب .

عبد الله جمال الدين بن يوسف بن هشام .

حققه وضبط غرائبه محمد محيى الدين عبد الحميد .

١١٨ - المغني لابن قدامة - الجزء الثامن .

تحقيق الدكتور طه الزيني .

مطبعة الفجالة عام ١٣٨٩هـ .

١١٩ – المفردات في غريب القرآن .

أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني .

تحقيق وضبط محمد سيد كيلاني .

شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر عام ١٣٨١هـ .

١٢٠ – مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين .

أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري .

تحقيق محمد محيى الدين عبد الحميد .

مكتبة النهضة المصرية– الطبعة الثانية عام ١٣٨٩هـ .

١٢١ – مناهج العقول شرح البدخشي على منهاج الوصول إلى علم الأصول

بهامش نهاية السول .

مطبعة صبيح .

١٢٢ – الموافقات في أصول الشريعة .

إبراهيم بن موسى الشاطبي .

بشرح الشيخ عبد الله دراز .

دار المعرفة– بيروت– لبنان .

١٢٣ – موطأ الإمام مالك .

تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي .

مطابع دار الشعب .

١٢٤ – النبوات .

ابن تيميه .

المطبعة السلفية– القاهرة عام ١٣٨٦هـ .

رقـــم الإيـــداع: ١٥٩٢ / ١٤٢٦
ردمك: ٤-٦٣٢-٤٧-٩٩٦٠